أحمد بوكاري

الزاوية الشرقاوية

زاوية أبي الجعد

إشعاعها الديني والعلمي



مساهمة في دراسة الزوايا والتصوف بالمغرب (1)

الزاوية الشرقاوية

زاوية أبي الجعد

إشعاعها الديني والعلمي

تأليف

أحمد بوكاري

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب — مراكش

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقشت هذه الرسالة يوم الجمعة 2 ربيع الأول 1404 هـ موافق 6 يناير 1984 بكلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط أمام لجنة مكونة من السادة الأساتذة : د. محمد حجي، عبد اللطيف الشاذلي، أحمد التوفيق، العربي مزين. ونال مؤلفها دبلوم الدراسات العليا في التاريخ (دكتوراة السلك الثالث) بميزة حسن. كما أوصت اللجنة بإدراج البحث ضمن منشورات كلية الاداب ــ الرباط

إهـــــداء

إلى فاطمة الزهراء ومريم .. وكل البراعم الواعدة في هذا الوطن ...

إلى التي أعطت من وقتها وكل وقتها من أجل أن يبقى وقت البحث والدراسة والكتابة ..

إلى من كان لهم فضل رعاية وتشجيع هذا البحث حتى يرى النور...

أهدي هذا الجهد المتواضع.

أ. بوكاري

الطبعة الأولى 1406 – 1985

تقديم عام

ـ مقدمة الكتاب

- ☐ أهمية الموضوع وظروف اختياره
- ☐ الاطار العام للبحث.
- ☐ موضوعات البحث

ـ المصادر والمراجع

- ☐ هل هناك دراسات سابقة ؟
- ☐ المصادر الخاصة
- ☐ المصادر العامة

مقدمة الكتاب

أهمية الموضوع وظروف اختياره

تقع مدينة أبي الجعد في مقدمة سهول تادلا العليا، غير بعيد عن قصبة تادلا المطلة على نهر أم الربيع .. ومنذ مطلع القرن الحالي، ظلت أبو الجعد تستمد شهرتها وأهميتها الدينية من عدد القباب والأضرحة التي تتوزع بداخلها بشكل كثيف، وتنتصب عالية بسطوحها الخضراء، كأهم وأبرز معالم المدينة بالاضافة إلى الصوامع .. وهو ما كان مصدر إلهام بعض الأدباء والسياح وكذا المعماريين الاجانب .. (1) دون التفات إلى ما يمكن أن يكون لهاته المعالم من دلالة ؛ وهو تساؤل ظل الهاجس القوي المرافق لنا لعدة سنوات، ثم أصبح أكثر حدة وإلحاحا في الأونة الاخيرة، عندما تبين لنا أن مدينة ابي الجعد، وما تعبر عنه من قداسة تتبدى في أكثر من مظهر وفي كل ركن من أركانها ؛ ما هي في الحقيقة إلا

(1) قام أحد المعماريين الفرنسيين في بداية عهد الحماية بوضع تصميم خارجي لمدينة أبي الجعد في شكل سور مفتوح على ساحة السوق، يحتوي على مجموعة من الشرفات والأقواس، في شكل هندسي ينسجم مع ما تحتويه الزاوية من أضرحة وقباب، وما تحتله من مكانة دينية وروحية لذى السكان.

— انظر كذلك : Burghelle (J) -Boujad ; Ville sainte. R. Automobile. Oct 1930, pp.31-35.

إرهاصات أولية لحمل ثقيل يتجاوز الأشكال والبنايات ليضرب بقوة في عمق التاريخ، كزاوية من أهم الزوايا المغربية، جمعت بين الصلاح والتدين والعلم والتعليم، وتقديم مختلف الخدمات والمساعدات من ايواء وإطعام، وتخفيف آلام المظلومين، وإغاثة الملهوفين، وإنجاد المجاهدين .. إلى غيرها من المهام التي اشتهرت بها الزوايا المغربية منذ أمد بعيد.

وقد زاد من تصميمنا ما شعرنا به من نقص وحيف اتجاه زاوية ابي الجعد وتاريخها، بل ما ذكرت أحيانا إلا للحديث عن أنها من الزوايا الموالية، أو الزوايا الخصم للسلطة (المخزن) .. بل ذهب الأمر ببعضهم إلى حد الافتراء، متهما إياها بالتعامل مع جهات أجنبية عن الوطن .. (2) وبنفس السهولة، تم إدراج هذه المغالطات المدسوسة في كتبنا الجامعية والمدرسية .. (3).

لقد كان أمل م. بيلير (M.M-Bellaire) أن ينجز مع باقي موظفي وضباط الشؤون الأهلية الفرنسيين إبان الحماية، عملا في مستوى ما قام به Rinn و Depont و Cappolani بالنسبة للجزائر .. (4) فيما يتعلق بالزوايا والطرق الدينية، وعلى الرغم من تحفظنا المبدئي حول كل ما كتب هؤلاء، وعلى رأسهم ج. دراك (G.Drague) في مؤلفه : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc-confreries et Zaouias. إلا أن عملا مثل هذا بدوره لم تظفر منه زاوية أبي الجعد إلا ببضع كلمات لا غير ..

(2) — Cour (A) -L'etablissement des dynasties des Cherifs au Maroc et leurs rivalites avec les turcs de la regence d'Alger. Paris ; p.224.

— Drague (G) -Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confreries et zaouia ; Paris, p.84-85.

(3) — Martinet et d'autre -Histoire du Maroc, Hatier ; Paris, 1967 ; p.265.

— تاريخ العالم الحديث : مقرر السنة الرابعة ثانوي، تأليف جماعة من الأساتذة، (الدار البيضاء)، طبعة جديدة، ص : 80.

(4) — M.Michaux-Bellaire ; -Les confreries religieuses au Maroc. Conferences faites au cours de perfectionnement. Rabat ; p.3.

وهو الوضع الذي عملت على تجنبه الكتابات المعاصرة، في إطار حركة استشراق جديدة تزعمتها المدرسة الانكلو ساكسونية، والتي تتخذ كمنطلق لها نظرية (E.Evans. Pritchard) الانتروبولوجية المعروفة ب «نظرية التجزئة» (La théorie de la segmentarité)، والتي حاول كل من «هارت D.M.Hart» و «كلنر E.Gellner» وغيرهما تطبيقها على المجتمع المغربي القروي «التقليدي» ما قبل الرأسمالي (5) في محاولة لابراز دور الصلاح والصلحاء في هاته المجتمعات .. وهو المنطلق الذي دفع بالاستاذ «ايكلمان Eickelman» لكتابة مؤلفه عن زاوية ابي الجعد، وعلاقاتها مع وسطها القبلي، الذي يشمل معظم المنطقة الوسطى من البلاد في إطار ما عبر عنه ب «الاسلام الشعبي» أو «الاسلام المغربي» Eickelman; D,F Moroccan Islam. Tradition and Society in a Pilgrimage Center. Texas Press 1976.

وقد انبرى عدد من الباحثين المؤرخين والاجتماعيين المغاربة للرد عن هذه الاراء. ووضع هذه النظريات والفرضيات في إطارها الحقيقي، إلا انها تبقى في نهاية المطاف محاولات للدفاع، يجب أن يحل محلها بشكل كثيف وعميق أخذ المبادرة لتحمل مسؤوليات كتابة تاريخ وطني حقيقي، يتوخى قدر الامكان الموضوعية والحقيقة العلمية بانسجام تام مع المصادر والوثائق والواقع المغربي، الذي طالما بقي مهمشا إلى درجة الازدراء والاحتقار (6).

(5) — D.M.Hart - Segmentary systems and the role of «Five fifths» in the rural Morocco. Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée, Aix-enPrevence, n°3; 1er, semestre, i 967.

وقد حاول تطبيقها على ثلاث قبائل مغربية : آيت عطا، بني ورياغل، ودكالة.

— Ernest Gelner : Saint of Atlas, London. Weindefeld and Niclson, 1969.

والذي حاول تطبيقها على قبائل الأطلس الأوسط.

(6) من أهم هذه الأبحاث والدراسات المغربية التي تعرضت لنقد هذه النظريات، ومناقشتها،

وهي القناعات التي كانت الحافز الرئيسي وراء هذه الدراسة عن زاوية أبي الجعد، سيما أنها تعتمد كمنطلق رئيسي لمادتها العلمية مؤلفات ووثائق دفينة يكشف النقاب عنها لأول مرة، في محاولة للتعريف بزاوية من أهم زوايا المغرب، حفل تاريخها بالعديد من المساهمات الدينية والعلمية والاجتماعية والسياسية .. في إطار عمل يستهدف إكمال وتوسيع أفق باقي الأبحاث والدراسات التي اختصت بهذا الجانب من حياتنا وتاريخنا.

وقد حاولنا في بحثنا هذا الاستفادة من الدراسات والأبحاث الحديثة حول الموضوع، حتى يتيسر توسيع مفهوم الزاوية ليشمل مختلف أوجه نشاطاتها الاجتماعية، خاصة ما يتعلق بعلاقاتها مع وسطها القبلي، إذ أن أدوارها ومهامها الدينية والعلمية تبقى محدودة النتائج إذا لم ينظر إليها من خلال علاقاتها الجدلية مع مجتمعها المحيط (الخدام والأتباع) ومع السُّلطة وممثليها (المخزن) سيما وأن طول عمر الزاوية منذ القرن 16م وحتى القرن 19م وما بعده، تعطي فرصا أكبر لتتبع مراحل وتطور هذه الممارسات والعلاقات وكذا النتائج المترتبة عن ذلك، في إطار ما تقوم به الزاوية وأشياخها من عملية ربط وتوسط بين قمة هرم المجتمع وقاعدته ..

وتوقف الدراسة عند مطلع القرن 19م لا يعني في شيء توقف مهام

= نذكر :

A - Abdellah Laroui -
Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1919) F. Maspero - Paris 1980.

ــ مقالات الأستاذ حمودى، التي منها :

B - Abdallah Hammoudi -
Segmentarité, stratification sociale, pouvoir politique et sainteté. Reflexions sur la thèse de Gellner. Hesp. Tamuda. vol xv; 1974, pp.147-179.

ــ مقالات الاستاذ ج. عياش، التي منها :

C - Germain Ayache -
Le sentiment national dans le Maroc du XIX siecle. in Etude d'histoire marocaine. S.M.E.R 1979 ; pp.177-183.

الزاوية، بقدر ما يعني حدوث تحولات داخلية كمية وكيفية بعضها-له علاقة بواقع الزاوية، والبعض الاخر له ارتباط بالوضع العام للبلاد؛ دون أن نفصل بين الخاص والعام، بسبب العلاقة العضوية التي تلحم الطرفين.

ويبقى هذا العمل، في نهاية المطاف محدود النتائج والفائدة، إذا لم يتم إغناؤه بدراسات مماثلة عن باقي زوايا المغرب الرئيسية منها والثانوية، بسبب الارتباط الوثيق والعميق لهاته المؤسسات الروحية والدينية بالتاريخ الجهوي من جهة وتاريخنا الوطني بصفة عامة .. وما يقال عن الزوايا والصلحاء ينطبق أيضا على باقي عناصر المجتمع المغربي ومكوناته.

الاطار العام للدراسة

أظهرت وضعية المغرب أواخر الدولة المرينية (ق 9هـ/15م) مدى الفراغ الذي يمكنه أن ينشأ عن غياب سلطة مركزية قوية، وما يترتب عن ذلك من مخاطر، سيما وان هذا حدث في وقت كانت فيه أوربا في مستهل وثبتها العلمية والاستعمارية ؛ وبالطبع سيكون المغرب بموقعه القريب من أوربا جغرافيا وتاريخيا هدفا مباشرا لهذا التوسع .. وهذا ما تبلور من خلال مسلسل احتلال الشواطىء والجيوب المغربية شمالا وغربا في محاولة لخنق أنفاس البلاد، حتى يتسنى الاجهاز الكلي عليها .. الا انه بقدر جسامة الأخطار المحدقة تتكشف الأمم العظيمة عن حيوية خارقة لاثبات ذاتها والدفاع عن هويتها ؛ وهذا فعلا ما تجسد من خلال الحركة المرابطية المتمثلة في المواقف العملية لرجالات التصوف والصلاح وأشياخ الزوايا وعدد من العلماء .. اذ أظهروا فعلا مدى أهميتهم ودورهم في تعبئة الامة لصد هذه المخاطر .. بل كان لهم فضل تجديد هيكل البلاد السياسي كما اتضح ذلك في الحركة السعدية مع مطلع القرن 10هـ/16م؛ إذ أن هذه القوى الدينية يسرت للامارة الناشئة النجاح في المهمتين : معركة الجهاد والتحرير ومعركة الوحدة الداخلية ؛ بل وانقاذ تاريخ البلاد ككل من كبوة محققة.

بيد أن دور هؤلاء الصلحاء، لم يقتصر على بعث وشحذ مقدرات الامة؛ بل ما كان لها أن تنجح في ذلك لولا تجذرها في المجتمع المغربي منذ أمد بعيد، في إطار علاقات دينية واجتماعية جد متشبعة تربط الطرفين معاً..

ومن الأبحاث القليلة التي اهتمت بهذا الموضوع : نذكر رسالة الاستاذ محمد حجي عن «الزاوية الدلائية» ورسالة الاستاذ عبد اللطيف الشاذلي عن «الحركة العياشية» إلا أن القرن 10هـ/16م شهد فعلا حركة كثيفة لانشاء الزوايا والرباطات عمت سائر البلاد .. ففي منطقة تادلا مثلا؛ نشأت بالاضافة إلى الزاوية الدلائية؛ زاوية الصومعة ببني ملال الحالية وقريبا منهما زاوية أبي الجعد التي انشأها مَحمد الشرقي.

وإذا كان مصير الزاوية الدلائية قد تحدد منذ أن نزعت إلى السلطة؛ فإن زاوية أبي الجعد حافظت على وجودها ومسارها بالرغم من بعض الفترات المتذبذة، حيث استمر نفوذها واشعاعها منذ ق 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م بل وإلى الان .. إلا أن البحث اقتصر فقط على ثلاثة قرون من تاريخها؛ آملين أن نتم إنجاز بقية الفترة التاريخية في بحث لاحق.

موضوعات البحث

قسمت البحث إلى خمسة أبواب، وكل باب إلى فصول مع تقديم عام يتضمن المدخل وعرضا للمصادر والمراجع والدراسات التي اهتمت بشكل رئيسي بموضوع الزاوية. وسأقتصر هنا على ذكر محتويات الباب الأول والثاني والثالث. على أن أخص الكتاب الثاني بمحتويات الباب الرابع والخامس المتعلقة بعلاقات الزاوية مع القبائل من جهة ؛ وعلاقاتها بالمخزن (السلطة السياسية) من جهة أخرى ؛ على أن نختم الكتاب بالنتائج التي توصل إليها البحث بصفة شاملة.

فالباب الأول : يتعرض لظروف تأسيس زاوية أبي الجعد، سواء على المستوى الوطني أو الجهوي، نظرا لما يمثله القرن 10هـ/16م من مخاض وتحول في مختلف المجالات .. واذا كان تأسيس الزاوية من طرف الشيخ مّحمد الشرقي يدخل في إطار مسلسل وطني عام؛ إلا أنه مر بثلاث مراحل؛ تعتبر المرحلة الثانية التي تم فيها تأسيس الزاوية بمنطقة أبي الجعد المعروفة برجال الميعاد، اخصب هذه المراحل بالنسبة لحياة مؤسسها؛ في حين أن انتقاله الغامض من زاويته هاته في أواخر حياته، ساهمت فيه عدة أحداث رجحنا منها ما كان ذا صبغة وطنية عامة؛ ويتعلق الأمر بأزمة الوباء الذي ضرب البلاد أواخر عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي والذي ذهب ضحيته هذا الأخير.

وعلى ذلك بات مصير زاوية أبي الجعد الثانية، التي لم يمض على انتقال الشيخ الشرقي إليها إلا سنة أو سنتين قبل أن يفارق الحياة .. أقول بات مصيرها مرتبطا ومرهونا بما سيقدم عليه الخلف من أبنائه واحفاده.

الباب الثاني : يتعرض لدور الزاوية الديني الصوفي منه على الخصوص؛ باعتبار أن مهام الزاوية بالاضافة إلى نشر وبث تعاليم الدين؛ تيسير أسباب الرقي الروحي والطهر الديني، بيد أنها خلال كل ذلك بقيت وفية لمنطلقها الأصلي المتمثل في الطريقة الجزولية الشاذلية، مع إبراز خصائص هذا الاتجاه في مرحلتين :

- مرحلة الشيخ مّحمد الشرقي القطب.
- مرحلة الابناء والأحفاد الذين واصلوا عمل أجدادهم وأغنوه؛ مستفيدين من مختلف التأثيرات مغربية كانت أم مشرقية.

ولا شك أن لائحة مريدي الزاوية، تفيدنا حقا مدى الاشعاع الديني والصوفي، الذي تجاوز منطقة تادلا إلى باقي مناطق البلاد، وهو النفوذ الذي ترددت أصداؤه من خلال علاقات الزاوية سواء مع كبار شيوخ

تصوف العصر أو مع باقي الزوايا المهمة في حواضر المغرب أو بواديه؛ مثل الزاوية الناصرية بدرعة والزاوية الفاسية بفاس.

الباب الثالث : خصصته للحديث عن نشاط الزاوية العلمي والتعليمي؛ ذلك أن زاوية ابي الجعد، مثلها في ذلك مثل أشهر الزوايا المغربية؛ جمعت بين نشاطات ومهام عديدة؛ منها التعليم وتوفير ظروف استقرار الطلبة من إيواء وإطعام وجلب للأطر من المنطقة أو من العواصم العلمية؛ وفي نفس الوقت السهر على تكوين أطر محلية. ذلك أن عهد الشيخ محمد الصالح وابنه محمد المعطي وحفيده محمد العربي؛ يعتبر فعلا عهد إشعاع علمي بكل ما تحمله كلمة الاشعاع من دلالة؛ فقد انتصبت زاوية أبي الجعد خلال ق 12هـ/18م كوريث لشعلة العلم والايمان، بعد اختفاء جارتها الزاوية الدلائية. ولاشك أن التجاء كل من الأفراني المؤرخ المشهور والطبيب عبد القادر بن شقرون إلى شيخها عندما تعذرت أسباب الحياة في وجههما في العواصم الكبرى؛ لأكبر دليل على ما ذهبنا إليه؛ فكان للزاوية فضل إخراج كتاب «النزهة» وربما حتى «الصفوة» إلى الوجود؛ كما أن ابن شقرون لم يبخل على حلقات الدرس بالزاوية بعلمه وثقافته التي منها علم الطب؛ في حين أن التاودي بن سودة شيخ الجماعة بفاس كلف نفسه عناء الحج إلى رحابها ليأخذ الاجازة عن شيخها محمد المعطي.

افردنا بعد ذلك فصلا خاصا لتراث الزاوية الفكري، لاعطاء فكرة عن مختلف انتاجهاتها الدينية والأدبية من نثر وشعر وملحون وما إلى ذلك؛ مع تخصيص قسم للتعريف بمؤلف الذخيرة وأجزائه التي تجاوزت ستين سفرا من الحجم الكبير، نظرا لما تمثله هذه الذخائر من ثروة ثقافية وفكرية على مستوى العالم الاسلامي؛ وهذا ما دفع الكتاني صاحب «فهرس الفهارس» إلى التعليق على مؤلفات الذخيرة بقوله :

«من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة على غيرهم».

مصادر ومراجع البحث

أولا : هل هناك دراسات سابقة عن الموضوع. ؟

ثانيا : المصادر الخاصة.

أ ــ كتب التراجم والمناقب.

ب ــ وثائق رسمية.

جـ ــ وثائق اخرى.

د ــ الزيارات واللقاءات.

ثالثا : المصادر العامة

أ ــ كتب التراجم

ب ــ الفهارس.

جـ ــ تواريخ عامة.

مصادر ومراجع البحث

أولا : هل هناك دراسات سابقة في الموضوع ؟

أ ــ تمثل مصادر الزاوية الدفينة المادة الأولية لهاته الدراسة، إلا أنه وجب الاشارة إلى بعض المقالات التي كتبت حول الموضوع (تاريخ زاوية أبي الجعد)، والتي لا تخرج عن إطار تقارير رسمية، كتبت من طرف موظفي الادارة الاستعمارية في مطلع هذا القرن؛ في محاولة للتعريف بالمناطق التي يعملون بها، ونعني بها على الخصوص :

— Cimetière (J); Notice sur Boujad. R.M.M. Tome : 24 (1913), pp.277-290.
— Niegle ; La Medersa et les Bibliotheques de Boujad. R.M.M; Tome : 24 '(1913), pp.290-297.

وبالرغم من طابع السرعة والعمومية الذي غلب على هاته التقارير، إلا أنها مع ذلك لا تخلو من فائدة لكونها تعتبر أول محاولة للتعريف بالزاوية في تاريخنا المعاصر (1)

ب ــ وتمثل دراسة الأستاذ إيكلمان الاكاديمية عن الزاوية، والتي كتبها باللغة الانكليزية، أول محاولة جادة في الموضوع ونعني بها

(1) أشار الاستاذ العروي في مؤلفه «Les origines sociales...» ضمن مراجعه إلى مقال آخر تعرض لزاوية أبي الجعد، إلا أننا لم نعثر عليه في المرجع المذكور، وهو :

- Durand Pascal; Boujad, la ville sainte. Les marabouts de Cherkaoua. A.F.Renseignement coloniaux - Fevrier 1930 pp 65-77.

واستغل ل. بروفنصال معلومات هذه التقارير لكتابة مقاله عن «شرقاوة» في دائرة المعارف الاسلامية بعد أن أضاف إليها مافي كتابه «مؤرخو الشرفاء».

ــ ل. بروفنصال : «شرقاوة». (تعريب الشنتناوي) دائرة المعارف الاسلامية، (المعربة)، بيروت. مجلد 13، ص 203، 204.

Eickelman D,F Moroccon Islam. Tradition and Society in a Pelgrimage Center.

وهي تحتوي على ثمانية فصول بالاضافة إلى ملحق، عدد صفحاتها 254 ؛ بالاضافة إلى الهوامش والشروح التي ذيل بها كتابه، كما تتضمن عددا من الرسوم والخرائط التوضيحية .. وتأتي خطورة هذه الدراسة من كونها توجه نقدا لاذعا إلى المؤلفات التاريخية التقليدية المغربية إلى درجة الغاء أي قيمة علمية لها، مع إعطاء أهمية كبرى للوصف والرواية الشفوية، ومختلف التعابير المتضمنة لهما، ليخلص بعد ذلك إلى الاقرار، بأنه «في مجتمع إسلامي مركب»، يجب أن يعتبر التاريخ والانتروبولوجية الاجتماعية ميدانين متكاملين ... (2).

وقد انصب البحث في بعض فصوله على القرن 19 والقرن 20م، مع تركيز خاص على الشيخ محمد العربي (المتوفى عام 1817م) كنقطة تحول في تاريخ الزاوية .. ليتعرض بعد ذلك للزاوية في عهد خلفائه حتى عام 1912م بل إلى ما بعد هذا التاريخ؛ في محاولة لفهم أبعاد تأثير الزاوية في وسطها القروي الذي تعتبر قبائله زاوية أبي الجعد محجا موسميا وسنويا لا غنى لها عنه (3).

ويسير في هذا النسق مقاله : — Eickelman and Draioui; Islamic Myths from western Morocco. Hesp. Tamuda ; v : XIV, 1973, pp.195-225.

وكذلك مقاله : — Eickelman ; Forme symbolique et espace social urbain; le cas de Boujad. R. Lamalif, n°97 mai (1978) pp.42-50.

في حين أن بحثه «بعض جوانب التنظيم السياسي والاقتصادي لزاوية مغربية في القرن 19» أكثر ارتباطا بالتاريخ منه بأي شيء آخر.

---

(2) Eickelman; Moroccan Islam... p a 17, 31-37.

(3) إن الفصول التي تتضمن معلومات تاريخية واجتماعية هي بالدرجة الأولى : الفصل الرابع والسابع والملحق بالاضافة إلى المقدمة.

— Eickeleman D, F; Quelques aspects de l'organisation politique et economique d'une Zawya marocaine au XIXè S. (B.S.H.M.) n° 4-5 (1972-73), C.U.R.U.S ; Rabat pp.37-50.

خاصة ما يتعلق بقضية عزيب الزاوية وعلاقاتها مع المخزن العلوي خلال القرن 19م من خلال ظهائر ومراسلات رسمية، كما تضمن مقاله خريطة لمنطقة نفوذ الزاوية في وسط البلاد، وكذا مواقع بعض الزوايا التابعة...

ثانيا : المصادر الخاصة :

أ ــ كتب التراجم والمناقب :

1 ــ المرقي في مناقب سيدي مَحمد الشرقي : لمؤلفه عبد الخالق بن محمد العروسي (عاش خلال القرن 18/12)، من أبناء الزاوية الشرقاوية. توجد عدة نسخ من هذا المخطوط سواء بالزاوية أو بالخزانة العامة بالرباط (مثلا رقم 1911د) كما توجد نسخة أخرى بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 2888. وقد اعتمدنا في بحثنا على نسخة الحاج عبد القادر الشرقاوي بعد مقارنتها مع نسخ أخرى، بسبب ما تأكد لنا من قدمها، وان النسخ الاخرى كتبت في فترات لاحقة ؛ وهي من الحجم الكبير، ومكتوبة بخط مغربي واضح، عدد صفحاتها 307، دون وجود لتاريخ أو اسم الناسخ، عكس نسخة الرباط (الخزانة العامة) بخط المزغراني، وعدد صفحاتها 508 من الحجم المتوسط في حين أن نسخة الخزانة الملكية، 240 ورقة من حجم 33 ــ 19، وفي الصفحة 21 سطرا. وقد أشار إلى اسم هذا المؤلف ل. ابروفنصال نقلا عن كتاب «السلوة» للكتاني محمد، دون ذكر لوجوده بالخزانة العامة أو غيرها (4)

---

(4) ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط ص : 236.

في حين أن ابن سودة صاحب الدليل، اقتصر على القول : «يوجد عند حفدته بكثرة» (5).

قسم عبد الخالق العروسي مؤلفه إلى خمسة أبواب، وكل باب يحتوي على فصول، وإذا كان الباب الأول قد خصصه للحديث عن فضل سيد الوجود محمد ﷺ فإنه قد ختمه بفصل عنوانه : كون طائفة فيها (في أمته) اقطابا وابدالا ونجباء، كتمهيد للتعريف بشيخ الزاوية الأول ومؤسسها مَحمد الشرقي؛ في حين خصص الباب الثالث لطريقته وسلسلة أشياخه والباب الرابع في ذكر كراماته وفي الباب الأخير ذكر بعض صلحاء الوقت الذين عاصرهم مَحمد الشرقي، ومنهم بعض تلامذته ومريديه، ووعد أن يختم الكتاب بشيء من كلام الشرقي، إلا أنه لم يفعل.

2 ــ الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح (6)، وهو المشهور بكتاب «الروض الفائح» لمؤلفه الحسن بن محمد الهداجي المعداني المتوفي بعد عام 1760/1180 أحد تلامذة الزاوية وأطرها .. ألفه للتعريف بشيخه محمد الصالح، مجدد زاوية أبي الجعد في أواخر القرن 11هـ ومطلع القرن 12هـ. توجد من المؤلف بعض النسخ في أبي الجعد؛ منها نسخة الحاج عبد القادر الشرقاوي، ونسخة الحاج مصطفى الشرقاوي، وهي أحدث من الاولى، في حين أن

---

(5) عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج 1، ص : 220.

(6) نسب ل. بروفنصال خطأ هذا المؤلف للفقيه العالم الحسن بن رحال المعداني التادلي الذي كان مدرسا بالمدرسة البوعنانية بفاس وتولى القضاء بفاس ومكناس أيام السلطان المولى إسماعيل. وتوفي عام 1728/1140، كما زعم أنه أول من اعتنى بتاريخ الزاوية، وقد صححنا هاته المعلومات أثناء الحديث عن تلامذة الزاوية في الباب الثالث وكذلك، أثناء استعراض بقية المصادر.
ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص : 212.

نسخة الخزانة الملكية رقم 61، توجد في جزأين؛ الأول نسخ عام 1289هـ والثاني في 1290هـ؛ وقد اعتمدنا على نسخة أبي الجعد الاولى بعد مقارنتها بالنسخ الأخرى، وهي تقع في 462 صفحة من الحجم المتوسط، بدون ذكر لاسم الناسخ ماعدا اسم المؤلف وتاريخ الانتهاء منه وهو عام 1179هـ. في حين أن صاحب الدليل جعل تاريخ الانتهاء منه هو عام 1159، وهو ما لم يتأكد لنا (7).

قسم محمد المعداني مؤلفه إلى مقدمة وخاتمة كل منهما تحتوي على ثلاثة فصول. فبعد تعريف وجيز بفضائل الأولياء وما قيل في الكرامة يخلص بعد ذلك إلى موضوع الكتاب في شبه التزام تام بالعنوان، معرفا بالشيخ محمد الصالح من حيث تربيته وتعليمه وأشياخه ومن عاصره من كبار العلماء والأولياء ومنهم الفقيه العالم الحسن بن رحال المعداني السابق الذكر، ثم يتعرض بعذ ذلك لما كان بين شيخ الزاوية وبينهم من المكاتبات والمراسلات ليختم ذلك بالحديث عن مختلف أنواع انتاجات الشيخ الادبية والدينية وإعطاء نماذج منها، مع تخصيصه الفصل الثاني من الخاتمة للتعريف بوالده محمد المعطي بن عبد الخالق ليختم مؤلفه بذكر نسب شيخه العمري، وبعض كرامات الشيخ محمد الشرقي.

وعلى العموم فكتاب الروض الفائح يعتبر بالاضافة إلى ما سبق، سجلا حافلا لتراث الزاوية الفكري في فترة تعتبر من أخصب حياة الزاوية عطاء..

3 ــ يتيمة العقود الوسطى : وعنوانه الكامل كما أورده مؤلفه محمد ابن عبد الكريم العبدوني (المتوفى حوالي 1775/1189) كالتالي :

«يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطي ومناقب أبيه سيدي محمد الصالح» (8).

---

(7) ابن سودة : الدليل، ج 1 ص : 214.

(8) العبدوني : اليتيمة، ص : 1.

توجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم 293د، وهي من الحجم الكبير وحالتها جد رثة بسبب تآكل عدد من أوراقها، ويظهر أنه أكثر قدما من نسخة ابي الجعد التي اعتمدناها في البحث بعد مقارنتها بنسخ أخرى بالزاوية، ومطابقة ذلك بنسخة الرباط الثانية رقم 305ك. تبلغ عدد صفحات مخطوط الحاج عبد القادر الشرقاوي (نسخة ابي الجعد) 400 صفحة من الحجم الكبير، دون ذكر لاسم الناسخ ولا تاريخ النسخ أو التأليف أو اسم المؤلف، وتحتوي نسخة الرباط (305ك) على 466 صفحة.

اعتقد ل. بروفنصال أن كتاب اليتيمة ألف بعد المرقي، كما اعتقد أن أول مؤلف في تاريخ الزاوية هو كتاب الروض الفائح. وهذا غير صحيح. ذلك أن كتاب المرقي ألف قبيل وفاة الشيخ محمد الصالح بسنة أو سنتين (9) أي حوالي 1138هـ، في حين أن كتاب الروض وقع الانتهاء منه عام 1179هـ كما صرح بذلك مؤلفه في نهاية الكتاب؛ وبقي ابن عبد الكريم يؤلف كتابه «اليتيمة» إلى ما بعد وفاة شيخه محمد المعطي (توفي 1180هـ)، دون أن يتمكن من اتمامه بسبب مرض بصره أولا ثم وفاته بعد شيخه ببضع سنوات (10).

قسم ابن عبد الكريم مؤلفه إلى أربعة أبواب خصص معظمها للحديث عن الشيخين محمد الصالح (الأب) ومحمد المعطي (الابن) سواء تعلق الأمر بنشأتهما أو اشياخهما، كما تعرض لنسب الأسرة الشرقاوية العمري، وظروف استطان أجداد هذه الأسرة بمنطقة تادلة، مع الاحاطة بشيء من التفصيل بكرامات أشياخ الزاوية، في حين أن الباب الرابع الذي عنونه ب

---

(9) العروسي : المرقي، ص : 137.

(10) العبدوني : اليتيمة، ص : 14. وحول وجهة نظر ل. بوفنصال، انظر.
ـــ ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص : 212، 236.

«ذكر احزابهم ووظائفهم وتآليفهم الجليلة، ومن تخرج على أيديهم من أكابر العلماء وأرباب الأحوال والمقامات ..» أقول لم نجد له أثر، مما جعلنا في البداية نفترض أنه بتر أصاب نهاية الكتاب، وبعد التحري والمقارنة، تبث لدينا أن ظروف المؤلف الصحية هي التي حالت بينه وبين اتمام كتابه (11).. وبذلك يتوقف الكتاب عند ذكر بعض كرامات الشيخ الشرقي في الباب الثالث.

4 ـــ اختصار اليتيمة : قام باختصار كتاب اليتيمة الفقيه محمد المكي (توفي بعد عام 1776/1190) بن الشيخ محمد المعطي مؤلف الذخيرة. وقد عثرنا منه على نسخة وحيدة بالخزانة العامة بالرباط وسط أرقام أسفار الذخيرة تحت رقم (ج 509) وهو من الحجم الكبير وحالته جيدة إلا أنه غير مرقم، يحتوي على أربعة وسبعين ورقة. ويقول المكي بن المعطي أنه كان ينوي نسخ الكتاب كله، لأن المؤلف قد توفي قبل إخراجه من المبيضة «إلا أنه اقتصر فقط على ذكر كرامات والده وجده دون التزام بترتيب الكتاب الأصلي، بل أضاف معلومات أخرى لم تكن موجودة، متجاوزا الاطار الزمني للكتاب ليتحدث عن أشياء وقعت بعد وفاة المؤلف وعاصرها محمد المكي بعده.

5 ـــ الفتح الوهبي في مناقب الشيخ العربي : من تأليف حفيده العربي بن داوود بن العربي المتوفى عام 1316هـ/1898م

توجد من هذا الكتاب عدة نسخ بابي الجعد بسبب حداثته؛ ذلك أنه ألف خلال النصف الثاني من القرن 19م. قال عنه ابن سودة : «رتبه على مقدمة وستة أبواب وخاتمة، يقع في مجلد وسط، يوجد بخزانتنا

---

(11) العبدوني : اليتيمة، ص : 14.
ـــ المكي الشرقاوي : اختصار اليتيمة، المقدمة.
ـــ انظر كذلك القسم المتعلق بتلامذة الزاوية وتُراثها في الباب الثالث.

الاحمدية»، كما ذكر أن محمد عبد الحي الكتاني قد اختصره في كراسة (12). وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2312ك، وقد اعتمدنا على نسخة ابي الجعد بعد مقابلتها بنسخ مماثلة، وهي من نسخ أحمد عواد بتاريخ 14 جمادي الثانية عام 1303هـ، وهذا الأخير نقله بدوره عن نسخة أخرى من خط الفقيه أحمد بن الطالب بن سودة مؤرخة ب 8 شوال عام 1298هـ (13).

يقع كتاب الفتح الوهبي في 327 صفحة، وأهم ملاحظة حول محتوى الكتاب، هي أن المؤلف لم يخصص لصاحب الترجمة إلا جزءا يسيرا من الكتاب (من الصفحة 191 إلى 212) مع ذكر القليل من كراماته، في حين أن قسما هاما من المؤلف خصصه للحديث عن الأولياء وكيفية سلوك الطريق، وضرورة الاعتقاد فيهم ... في حين أن الباب الثالث وهو الأوفر (من الصفحة 54 إلى 190) أعاد فيه ما كتبه سابقوه عن أشياخ الزاوية الذين سبقوا الشيخ محمد العربي.

إن ما يجب توضيحه حول هاته المصادر؛ يتمثل في كونها تكمل بعضها البعض من حيث الاطار الزمني، إلا أن عدم معاصرة بعض المؤلفين للفترة التي كتبوا عنها، قد أثر تأثيرا واضحا في أهمية وقيمة معلوماتهم التاريخية، وبالتالي في منهج كتاباتهم، فالمرقي الذي ألف بعد وفاة الشرقي بحوالي 128 سنة، جاء في معظمه كتاب تصوف، يستغل ذكر كرامة من الكرامات ليستفيض في تحليلها وذكر مثيلاتها عند باقي المتصوفة، مستعرضا آراء العلماء حول موضوعها ... إلا أنه مع ذلك قد لخص لنا ما كان شائعا ومعروفا عن مؤسس الزاوية محمد الشرقي، سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الوطني، إذ نجده يأخذ عن المحاضرات

(12) ابن سودة : الدليل، ج 1، ص : 137.

(13) العربي الشرقاوي : الفتح الوهبي، ص : 326، 327.

لليوسي، وعن كتاب المرآة لمحمد العربي الفاسي، أو عن كتاب الممتع لمحمد المهدي الفاسي ..

في حين أن صاحب الفتح الوهبي يعتذر عن قلة باعه وعلمه وقصور معلوماته عن جده القريب من عهده؛ ومع ذلك فإن أهمية مؤلفه تكمن في ما تضمنه من إجازات علمية، حصل عليها الشيخ محمد العربي أثناء رحلته للحج والعلم عام 1190هـ.

ويظهر أن معاصرة كل من حسن المعداني الهداجي، ومحمد بن عبد الكريم العبدوني للشيخين محمد الصالح ومحمد المعطي؛ جعلت مؤلفيهما، «الروض» و «اليتيمة» متكاملين، وفي نفس الوقت سجلا حافلا لنشاطات الزاوية الدينية والعلمية والاجتماعية والسياسية، ولذلك شكلا معا أهم مادة علمية وتاريخية لدارستنا هاته، وزاد من قيمة معلومات المؤلفين احتكاكهما شبه اليومي بشيوخ الزاوية بل والمشاركة الفعالة في بعض النشاطات، إما كمبعوثين في بعض المهام الأكثر خصوصية، أو مرافقة شيخ الزاوية في أسفاره وتنقلاته بالقطر التادلي أو خارجه، هذا بالاضافة إلى كون كل من المعداني وابن عبد الكريم كانا كاتبين خاصين، مما وفر لهما كل أسباب التوفيق في جمع المادة التاريخية التي يزخر بها كتابا الروض واليتيمة.

ومع ذلك فإن البحث عن بعض التآليف المكملة والخاصة بالزاوية لم يكلل بالتوفيق؛ ويتمثل ذلك في المؤلفات الاتية :

ــ التعريف المفيد في مناقب الشيخ الصالح بن المعطي وجده القطب أبي عبيد (14)، من تأليف أحمد بن فتوح التازي أحد أطر الزاوية العلمية في عهد الشيخ محمد الصالح. وقد حفل كتاب المرقي بعدد من أشعاره ومنظوماته في الزاوية وأشياخها.

---

(14) ابن سودة : الدليل، ج 1، ص : 199.

ـــ مسرة الاخوان بذكر الشيخ الرباني (15) : وهي منظومة شعرية في التعريف بالشيخ محمد الشرقي وأولاده وذكر طريقتهم وأسانيدهم، توارد عليها عدد من الشعراء من تلامذة الزاوية ومريديها، كان آخرهم الفقيه المؤرخ محمد بن عبد الكريم.

ـــ الموائد السنية والاسانيد السنية : لمحمد المعطي بن عبد الخالق والد الشيخ محمد الصالح، نقل منه صاحب الروض بعض المعلومات، مؤكدا على أن مؤلفه لم يتسر له أن يتمه (16).

ب ـــ وثائق رسمية.

وتتضمن رسائل وظهائر وكنانيش شرقاوية، يمكن تفصيلها كالتالي :

1 ـــ الرسائل : وهي متنوعة وذات أغراض مختلفة، فهناك :

ـــ رسائل دينية وعلمية : تبادلها على الخصوص الشيخ محمد الصالح مع علماء العصر ومتصوفته؛ يوجد قسم منها بالروض الفائح، وقسم آخر بكنانيش الزاوية، وفي بعضها نجده يسأل عن بعض المؤلفات لاقتنائها وتزويد خزانة الزاوية بها.

ـــ اخوانيات : وهي رسائل تتضمن الاستفسار عن أحوال الزاوية وأشياخها؛ مثل رسائل محمد الصالح مع والده أو مع أخيه عندما سافر إلى تامكروت لزيارة شيخه.أحمد بن ناصر، أو رسائل تعزية كالتي بعثها المولى عبد المالك بن المولى إسماعيل في وفاة محمد الصالح.

ـــ رسائل سياسية : منها ما تبادلها محمد الشرقي مع زيدان ابن أحمد

---

(15) المرجع السابق، ج 2، ص : 412.

(16) فصلنا القول عن هذا المؤلف في قسم تُراث الزاوية بالباب الثالث.

المنصور الذهبي؛ أو بين أبناء هذا الأخير وأبناء الشيخ الشرقي بعد وفاته (17).

ومن أهم هاته المراسلات أيضا :

* رسالة المولى هشام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله مؤرخة ب 11 شعبان عام 1206 هـ بشأن موقف الشيخ محمد العربي من بيعته، والتنويه بموقفه المتمثل في دعوة قبائل تادلا لطاعته إبان الصراع بينه وبين أخيه المولى سليمان الذي بايعه أهل فاس (18).

* رسالة المولى سليمان إلى الشيخ محمد العربي، يؤنبه ويوبخه على ما أبلغه عنه ولاته الذين عينهم بتادلا، ويأمره بالرحيل عن زاوية أبي الجعد إلى فاس .. (19)

* رسالة المولى سليمان إلى أبناء الشيخ العربي يعزيهم في وفاة والدهم عام 1234هـ، وينصحهم بالتباع سلوك والدهم الديني و «السياسي» مع بعض التحذير؛ «من احسن لنفسه ومن أساء فعليها والدين النصيحة وقد نصحت اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد ..» (20).

2 ــ مجموعة مراسلات وظهائر مخزنية أخرى :

يسر لنا الحصول عليها بعض ابناء الزاوية المعاصرين، خاصة الحاج

(17) أشار إلى هاته المراسلات العروسي في كتابه المرقي، ص : 204.
وقد أشار إلى هاته المراسلات أيضا الأستاذ المنوني، اذ عثر عليها ضمن مجموعة رسائل تاريخية بالخزانة الملكية رقم 6438).
محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، مجلة كلية الاداب الرباط، ع 9 الصفحة 292.

(18) تعرضنا لتحليل هذه المراسلة في الباب الخامس.

(19) وجدناها بداخل الكناشة رقم 1264ك ك (خ.ع الرباط)، ص : 361 وما بعدها.

(20) عثرنا عليها بكناشة محمد العربي الشرقاوي دفين الرباط رقم 147 ج، (م.خ.ع.) بالرباط، ص : 220.

محمد الشرقاوي المكلف حاليا بالزاوية، وإذا كانت في معظمها تخرج عن الاطار التاريخي للدراسة (ما بعد الشيخ العربي)، إلا أنها توضح عدة حقائق عن علاقات المخزن العلوي بالأسرة المرابطية الشرقاوية؛ إذ أن بعض هذه المراسلات تستشهد بعلاقات المولى إسماعيل مع الشيخ محمد الصالح كحجة لتبرير علاقات القرن التاسع عشر وتأكيدها والاقتداء بها، هذا عدا ما توضحه من أسماء مواقع بعض «عزيب» الزاوية والزوايا التابعة. وبالمناسبة نشير إلى أن المراقب المدني الفرنسي لأبي الجعد «اكورشفيل» (C.Ecorcheville) قد قام بجمع عدد من هذه المراسلات والظهائر في مطلع الثلاثينات من هذا القرن، إلا أنه لم يقم بطبعها أو نشرها، وقد أطلع عليها ايكلمان Eickeleman بفرنسا، ونقل منها عددا من الرسائل التي أدرجها في مؤلفه عن الزاوية (21).

3 ــ **كنانيش وأوراق خاصة** : نذكر منها على الخصوص :

ــ كناشة الشرقاوي صالح : مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1108 ك.

ــ الكناشة الشرقاوية : لمحمد الصالح بن محمد المعطي السابق الذكر، مخطوط الخزانة الملكية تحت رقم 3415.

وبالرغم من طبيعتهما الدينية والعلمية، إلا أنهما يتضمنان مراسلات ونوازل فقهية.

ــ عقد نكاح الشيخ محمد المعطي بن الصالح : وهو في ملك الحاج محمد الشرقاوي؛ فقد أناب شيخ الزاوية عنه للقيام بهذه المهمة الخاصة كاتبه ومبعوثه الحسن بن محمد الهداجي المعداني مؤلف كتاب الروض، وهذا العقد يشير إلى مصاهرة الأسرة الشرقاوية لاحدى العائلات

---

(21) انظر الملحق المعنون ب Eickelman; Moroccan Islam. Appendix; the wheel of fortune the last Maraboutic intrigue; pp : 239-254.

الشريفة الادريسية الفاسية. وتؤكد الروايات الشفوية على أن أشياخ زاوية ابي الجعد صاهروا جميعهم عائلات شريفة، إلا أن ما ثبت لدينا خلال الدراسة حتى مطلع القرن 19م من هؤلاء الزوجات الشريفات :

* زوجة الشيخ محمد أبو القاسم والد الشيخ الشرقي واسمها «لالة رحمة» بنت أحد أشراف وصلحاء تادلا.
* زوجة الشيخ محمد المعطي السابق الذكر
* في حين أن محمد العربي تزوج من عائلة مرابطية تادلية، ونعني بها عائلة آل القيرواني بآيت عتاب، واسمها السيدة الحقاوية.

ج ــ **تآليف أخرى** : ونعني بها :

ــ أحزاب الزاوية التي ألفها الشيخ محمد المعطي.

ــ أسفار الذخيرة : من تأليف الشيخ محمد المعطي كذلك، والتي بلغت أجزاؤها حوالي ستين مجلدا.

ــ سفر التقاريظ : وهو سفر يحتوي على تقاريظ وتعاليق علماء وأشياخ مغاربة ومشارقة عن مؤلف الذخيرة، إلا أننا لم نظفر بعد بالاطلاع عليه، بالرغم من تأكيد بعض المهتمين على وجوده، كما ذكره مؤلف فهرس الفهارس، محمد بن عبد الحي الكتاني، وقد قال عنه : «انه يوجد في مجلد، ويعرف عند آل المترجم ب «سفر الاجازات» وهو في الحقيقة سفر التقاريظ».

ــ سفر الاجازات : بالرغم من إشارة محمد بن عبد الحي الكتاني إلى هذا المؤلف، إلا أن بعض أبناء الزاوية أكد أنه إلى جانب سفر التقاريظ؛يوجد سفر الاجازات، يتضمن إجازات علماء المغرب والمشرق للشيخ محمد العربي. ومن حسن الحظ أن مؤلف كتاب الفتح الوهبي نقل معظم هاته الاجازات إن لم يكن جميعها في مؤلفه المذكور.

وإذا كان موضوع هاته التآليف، اهتمامات دينية صوفية وعلمية لا يمكن إنكار قيمتها في فهم أهمية النشاط العلمي والفكري للزاوية وأشياخها؛ إلا أنها تتضمن أيضا إشارات تاريخية واجتماعية بالغة الأهمية (مثلا حزب اللطف والفرج).

د ـــ كما وجب التأكيد على أهمية الزيارات الميدانية واللقاءات والمحاورات، والاستماع إلى العديد من الأقوال والحكايات بالاضافة إلى الاستجوابات والمسامرات؛ التي تجعل الباحث يربط الاتصال بين ما تحتويه هذه المصادر من معلومات تاريخية وبين البيئة والواقع الذي كان مسرحا لهذه الأحداث أثرت فيه وأثر فيها بشكل أو آخر، وهو ما لازالت اصداؤه وآثاره ماثلة في حياة السكان الروحية منها على الخصوص.

وفي ختام الحديث عن مصادر الزاوية؛ نشير إلى أن قسما هاما من «تراث الزاوية الوثائقي» لا تعرف أبعاده وحدوده، لم يتم بعد الكشف عليه، وهو ما تم لمسه والشعور به من خلال ترددنا المستمر على ابناء الزاوية المعاصرين، المسنين منهم على الخصوص امثال الفقيه العدل الحاج الشرقي الشرقاوي، والقاضي الحاج عبد القادر الشرقاوي وأبناء الفقيه الحاج عبد العزيز الشرقاوي وغيرهم، بسبب ما كانوا يبدونه أحيانا من تردد أو تخوف مشوب بالقلق، كان يبدده في بعض الأوقات كوني احد أبناء الزاوية .. ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى ما كتبه «ايكلمان» عن الزاوية، خاصة الفترة القريبة من الحماية الفرنسية..

إلا أننا نعلق آمالا كبيرة في أن يتفهم هؤلاء وغيرهم، الرسالة العلمية والتاريخية لهاته الوثائق والمؤلفات، سيما وان مواقف بعض الشخصيات الشرقاوية المتأخرة على المستوى السياسي؛ لا يمكنها بتاتا أن تحلق أدنى ضرر بقيمة الانجاز الديني والعلمي والحضاري الذي حققه أشياخ الزاوية، كما حاولت هاته الرسالة توضيحه؛ ولا شك أن الجهل شبه التام بادوار

الزاوية ومساهماتها على جميع المستويات، هو الذي دفع البعض بالوقوف عند العثرات والمبادرات الفردية دون أن يتجاوزها إلى ما هو أبعد صدى وأكثر رسوخا في تاريخ الزاوية الحافل، وتاريخنا الوطني بصفة عامة.

ثالثا ـــ المصادر العامة :

ونعني بها مختلف المؤلفات من كتب التراجم والفهارس والتواريخ العامة، التي كتبت في العصر أو عن العصر الذي نشأت وتطورت فيه زاوية ابي الجعد.
وسنقتصر هنا على الأهم بالنسبة للموضوع.

أ ـــ كتب التراجم

1 ـــ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ ابي المحاسن : تأليف أبي حامد محمد العربي الفاسي المتوفى عام 1642/1052. يعتبر من الكتب الاولى زمنيا التي تعرضت لترجمة شيخ الزاوية ومؤسسها محمد الشرقي، وكان من دواعي اهتمام اعلام الأسرة الفاسية بمحمد الشرقي، ما دار بين هذا الأخير وجدهم ابي المحاسن من مكاتبات بسبب ما أشيع عن الشرقي من انكار في جانبه، وقد تم اغناء هذا الموضوع بما كتبه كل من عبد الرحمان الفاسي المتوفى 1685/1096 في كتابه «ابتهاج القلوب ..» وما كتبه محمد المهدي الفاسي المتوفى 1109/97 ـــ 1698م في مؤلفه «ممتع الأسماع ..» في حين أن موقف الزاوية الشرقاوية من ذلك تبلور في ما كتبه العروسي في مؤلفه «المرقي» في الثلث الأول من القرن 12هـ (22).

2 ـــ التشوف الصغير : لأبي زيد عبد الرحمان بن إبراهيم بن محمد

(22) انظر حول هذا : علاقة زاوية ابي الجعد بالزاوية الفاسية (الباب الثاني).

بن أحمد بن أبي القاسم الصومعي التادلي، مخطوط الخزانة العامة رقم 1103 د.

فإذا كان كتاب «التشوف إلى رجال التصوف» لابن الزيات (23)، قد تعرض لتراجم شخصيات صوفية، تادلية في الفترة السابقة للقرن 7هـ، فإن الصومعي قد ركز في مؤلفه الصغير على صلحاء واعلام القطر التادلي خلال القرن 9 هـ، 10هـ بل وبعدهما (24)، فذكر الشرقي ووالده وجده كما ذكر بعض أبنائه، مما يجعلنا نرجح أنه عاش على الأقل خلال القرن 11هـ/17م خاصة اذا علمنا أن أحد أجداده وهو سيدي أحمد بن أبي القاسم الصومعي، كان معاصرا للشيخ الشرقي.

3 ــ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر : لمحمد الصغير اليفراني المراكشي المتوفى عام 27/1140 ــ 1728.

أراد به مؤلفه أن يكون ذيلا لمؤلف «دوحة الناشر» لابن عسكر الشفشاوني، وإذا كان هذا الأخير لم يشر لا من قريب أو بعيد لبعض أفراد البيت الشرقاوي وهو ما فعل مع شخصيات علمية ودينية مماثلة ومعاصرة له .. إلا أن الأفراني قد ترجم لبعض اعلام الزاوية، كما أخبر بذلك صديقه الحميم محمد الصالح شيخ الزاوية في عهده، دون أن نجد أي أثر لمحاباة أو تملق؛ كما حاول أن يصفه بذلك «ايكلمان» دون اطلاع منه

(23) عاش يوسف التادلي المعروف بابن زيات في أواخر القرن 6هـ وتوفي عام 627 أو 1129/628 ــ 1130م. وطبع كتابه التشوف عام 1958 بإشراف وتحقيق الأستاذ ادولف فور.

(24) اشارل. بروفنصال إلى أن صاحب التشوف الصغير قد جاء بعد ابن الزيات بسنوات دون تحديد لذلك، الا أن صاحب «دليل المؤرخ» يجعله من رجال القرن التاسع الهجري، في حين ان الأستاذ حجي يصنفه من بين أهل القرن العاشر الهجري.
ــ ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص : 153.
ــ ابن سودة : الدليل، ج 1، ص : 257.
ــ حجي محمد : الزاوية الدلائية، ببليوغرافية الرسالة.

على المؤلف المذكور (25) .. فترجم لمؤسس الزاوية محمد الشرقي، ولابنه عبد السلام ولحفيده محمد المعطي بن عبد الخالق (26) بالاضافة إلى بعض صلحاء القطر التادلي؛ امثال محمد بن مبارك الزعري صاحب زاوية تاستاوت (27) قرب تاغيا حيث يوجد ضريح الشيخ أبي يعزى يلنور (مولاي بوعزة).

4 ــ وتكتسي كتابات «صاحب الاعلام» (28) أهمية كبرى ذلك أنه زار مدينة ابي الجعد واتصل بكبار الشخصيات الشرقاوية بها في مطلع هذا القرن، واطلع على دفائن خزانات الزاوية، ونقل تقاييد عنها ذكرها في معرض ترجمته لأشياخ الزاوية باعتبارهم كانوا على اتصال مستمر بالعاصمة مراكش في ظروف ومناسبات مختلفة؛ وسيتمم عمله هذا محمد بن عبد الحي الكتاني كما سنرى.

ب ــ الفهارس.

1 ــ فهرسة الشيخ التاودي (29) المتوفى عام 1795/1209 ترجم فيها لأشياخه المغاربة والمشارقة، كما تطرق للصلحاء الذين زارهم وتبرك بهم، ويعتبر الشيخ محمد المعطي من كبار أشياخ التاودي، زاره هذا الأخير بزاويته بابي الجعد واخذ عنه وقرأ عليه «الحديث الأول من البخاري والأول في شمائل الترميذي» كما أطلعه على أسفار الذخيرة التي بلغت حسب التاودي عند وفاته «نيفا وسبعين مجلدا في القالب الكبير».

2 ــ فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات

---

(25) Eickelman; Moroccan Islam, p : 38.

(26) الأفراني : صفوة من انتشر (فاس) الصفحات : 25، 155، 188.

(27) المصدر السابق، ص : 9.

(28) عباس بن ابراهيم المراكشي : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام (فاس).

(29) يوجد ضمن مجموعين بالخزانة العامة بالرباط وهما مخطوطين، الأول تحت رقم 725د والثاني 3251ك.

والمسلاسلات، جزآن، (فاس 1347هـ) لمؤلفه محمد عبد الحي الكتاني المتوفى 1962/1382.

تعرض المؤلف لترجمة بعض ابناء الزاوية وأشياخها ضمن مؤلفه الشامل، خاصة الشيخين محمد المعطي ومحمد العربي .. إلا أن أهمية عبد الحي الكتاني ترجع بالدرجة الأولى إلى كونه أول شخصية علمية أولت انتاج الزاوية وتراثها أهمية بالغة، بدليل أن العديد من أفراد البيت الشرقاوي المعاصرين، أو من تخطفهم المنون؛ كلهم يقرون أن معظم كتب الزاوية قد حملها عبد الحي الكتاني إما بالشراء أو اخذها كهدية وأحيانا ينسخها .. وهذا بالفعل ما تأكد لنا بعد معاينة فهارس الخزانة العامة بالرباط (حرف ك)، في حين أن الأبحاث تظهر من وقت لأخر نفائس جديدة نعاينها أو نسمع عنها من طرف المختصين خاصة الأستاذ محمد المنوني .. وبذلك يمكن القول أن الفقيه العلامة محمد عبد الحي الكتاني قد خدم تراث الزاوية من حيث لا يدري أهل الزاوية؛نظرا لما حظي منه هذا التراث من اهتمام واعتناء، سواء تعلق الأمر بأسفار «الذخيرة» أو بانتاجاتها الأخرى.. إذ انفرد الكتاني بذكر عناوين العديد منها، البعض تم العثور عليه والبعض الاخر لم ير بعد النور، لازال حبيس الخزانات الخاصة.

ج ــ تواريخ عامة.

عاصرت زاوية أبي الجعد قيام الدولة السعدية وسقوطها، وكذا قيام الدولة العلوية ومختلف اطوارها، لذلك كان لزاما ان نحيط بتاريخ هاته الفترة الطويلة الممتدة من القرن العاشر الهجري/16م، إلى مطلع القرن 13هـ/19م وذلك بالرجوع إلى المصادر التي أرخت لهاته الفترة دون إهمال بقية الدراسات الأخرى.

1 ـــ نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي (30)، للمؤرخ والفقيه محمد الصغير الافراني الذي يعتبر مدرسة متميزة في الكتابة التاريخية عند المغاربة سواء الذين عاصروه أو جاؤا بعده .. لأنه ألف كتابه في عقب الدولة السعدية، التي حظيت منه في مؤلفه بالقسط الأكبر، في حين لخص أحداث الفترة التي عاصرها و المتمثلة في قيام الدولة العلوية حتى عهد المولى اسماعيل، ولذلك تحرى قدر الامكان الموضوعية دون تحيز أو تحامل، وفي مواقف معينة يكتفي بعرض أقوال من أخذ عنهم معلوماته على عهدتهم تاركا للقارىء فرصة المقارنة واستخلاص النتائج ..

وإذا كانت اخباره عن الزاوية الشرقاوية لا تتعدى إشاراته إلى محمد الشرقي كأحد اعلام التصوف في العصر السعدي؛ إلا أن أهمية دور الزوايا والصلحاء في قيام الدولة السعدية أو بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي، كانت بارزة المعالم في مؤلفه، ليختمه بالشكر والامتنان لمن كان له فضل إخراج مؤلفه هذا إلى الوجود، ونعني به شيخ زاوية أبي الجعد محمد الصالح الذي قال عنه :

«فهو الذي أعاد لفكري قوة النشاط، ونشر عليه بساط الانبساط ..».

2 ـــ إلا أن أهم كتابات العصر العلوي من حيث التركيز وغزارة المعلومات، تتمثل فيما كتبه أبو القاسم الزياني في مؤلفاته؛ خاصة البستان الظريف والترجمان المعرب (31)، سيما الفترة التي عاصرها ونعني بها عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وما أعقب ذلك من صراع إلى أن آل الأمر للمولى سليمان، وهي فترة جد حاسمة في تاريخ زاوية أبي الجعد، إذ شهدت مرحلة التأزم بين الزاوية والمخزن، مما جعل لآراء الزياني

---

(30) حول التعريف بالنزهة ومؤلفها الافراني، انظر : بروفنصال : مؤرخو الشرفاء. 89 ـــ 96.

(31) حول الزياني ومؤلفاته. بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، 102 ـــ 136.

ومواقفه أهمية كبرى بسبب مكانته في الدولة كسفير ومفاوض وأحيانا قائدا مكلفا بمنطقة تادلا، منطقة نفوذ الزاوية الشرقاوية ومركز اشعاعها.

3 — في حين أن مؤلف الجيش العرمرم الخماسي (32) .. لاكنسوس، يمثل وجهة نظر أخرى معاكسة لوجهة نظر الزياني حول ظروف تحطيم الزاوية وحول شخص شيخها آنذاك محمد العربي.

4 — تاريخ الضعيف الرباطي (33) : يعتبر محمد بن عبد السلام الرباطي المعروف ب «الضعيف» من المؤرخين الذين حاولوا أن يكتبوا تاريخا متتابعا للدولة العلوية منذ نشأتها إلى عهد المولى سليمان، الذي كان معاصرا له، ذلك أن احداث الكتاب تتوقف عند عام 17/1233 — 1818م الا أن أهميته بالنسبة لتاريخ زاوية ابي الجعد؛ تتمثل على الخصوص في الفترة الممتدة من عام 1200هـ إلى 1233هـ أي قبيل وفاة شيخ الزاوية محمد العربي بسنة واحدة إذ نجد المؤرخ المذكور، يتتبع أخبار شيخ الزاوية محمد العربي وباقي أعيانها باهتمام بالغ، ويرصد تحركاتهم بعين الملاحظ المراقب، وإذا كان هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى ما أصبحت تمثله هاته الزاوية خلال تلك الفترة من أهمية على المستوى الوطني، فإنه لا يستبعد أن يكون لهذا الاهتمام أيضا علاقة بشيخه محمد ابن أبي القاسم الرباطي، الذي قضى قسما كبيرا من حياته متنقلا بين الرباط وزاوية أبي الجعد، إلى أن توفي بها ودفن بجوار المؤرخ محمد بن عبد الكريم العبدوني بضريح الشيخ محمد المعطي.

5 — ولا شك أن أهم تعريف ورد في شأن زاوية أبي الجعد، هو ما كتبه أحمد بن خالد الناصري في نهاية القرن 13هـ/19م، والذي جاء فيه :

---

(32) حول اكنسوس انظر : بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص 136 — 145.

(33) اعتمدنا في بحثنا على نسخة خ.غ.ر. مخطوط رقم 660د ونشير إلى انه توجد نسخة ثانية أقل وضوحا تحت رقم 758د.

«هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب، ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب تداولها من أزمان فحول أكابر، ورثوا مقام الولاية والرياسة بها كابرا عن كابر، قد عرف لهم ذلك السوقة والملوك، والغني والصعلوك، ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرهم تعاملهم بالاجلال والاعظام والتوقير والاحترام»(34).

انها التعابير التي كان يقف منها عدد من الكتاب الاجانب، موقف السخرية والازدراء؛ متهمين هؤلاء الكُتاب المؤرخين المغاربة بالتعميم والمحاباة، وأحيانا بالتستر وراء الكلمات ...

إلا أن الناصري كان يدرك حقيقة ما يقول .. وقد تكفل هذا البحث بالنيابة عنه في محاولة لفك رموز هذه التعابير، حتى نضع كلامه وأحكامه في موضعها وإطارها الحقيقيين؛ وهو ما نأمل أن نصل إليه في ختام دراستنا هاته.

---

(34) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، القسم الثاني. دار الكتاب (البيضاء) ج 8، ص : 59.

الباب الأول

○ ○ ○

ظروف تأسيس زاوية أبي الجعد

يرجع تأسيس زاوية أبي الجعد إلى فترة حاسمة من تاريخ التصوف المغربي، وتاريخ المغرب بصفة عامة، ونعني بها مغرب القرن العاشر الهجري/16م، الذي عرف هجوما استعماريا صليبيا قصد طمس معالم البلاد الحضارية ودوس مقدساتها، بل وتهديد كيانها ...

وبفضل تظافر جهود قوات البلاد الحية، وعلى رأسها شيوخ الزوايا، تمت تعبئة البلاد من اقصاها إلى اقصاها في مسيرة جهادية وطنية جنبت البلاد خطر مسخ حقيقي ..

في هذا الظرف نشأ وترعرع مَحمد الشرقي مؤسس زاوية ابي الجعد، وإلى هذا العصر يعود تأسيس العديد من الزوايا بالمغرب، كسلسلة من الحصون والقلاع بهدف الحفاظ على شعلة الاسلام والجهاد حية في مختلف ربوع البلاد.

الفصل الأول

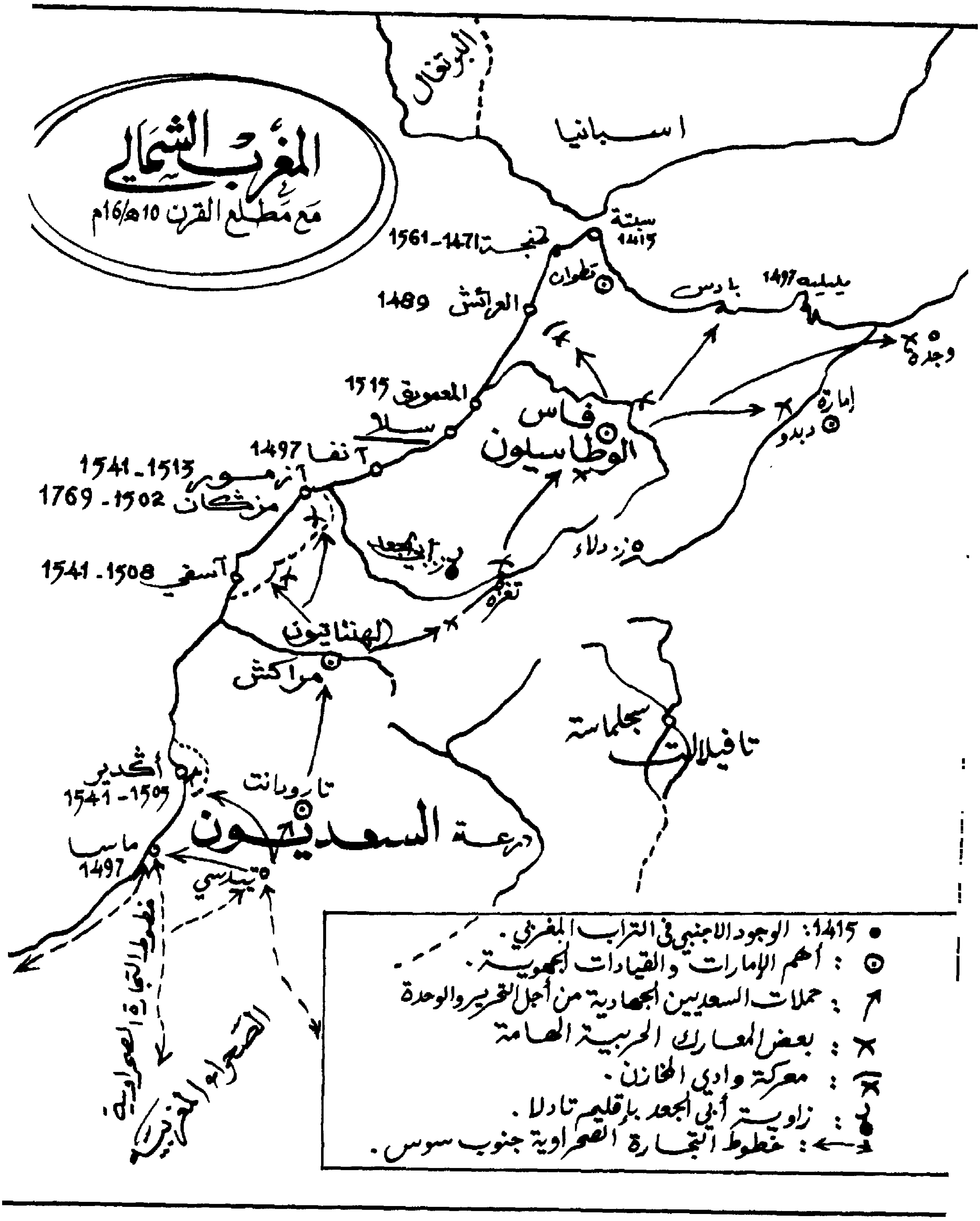
○ ○ ○

أبو عبيد الله الشرقي
مؤسس الزاوية

أولا : أصله ونسبه.

ثانيا : ظروف نشأته.

ثالثا : شيوخــــه.



المغرب الشمالي
مع مطلع القرن 10هـ/16م
البرتغال
اسبانيا
سبتة 1415
طنجة 1471-1561
تطوان
مليلية 1497
بادس
العرائش 1489
وجدة
المعمورة 1515
فاس
الوطاسيون
إمارة دبدو
سلا
أنفا 1497
أزمور 1513-1541
مزكان 1502-1769
ز. أبي الجعد
ز. دلاء
آسفي 1508-1541
الهنتاتيون
مراكش
سجلماسة
تافيلالت
أكدير
1505-1541
تارودانت
درعة
السعديون
ماسا
1497
تيدسي
الصحراء المغربية
1415: الوجود الأجنبي في التراب المغربي.
: أهم الإمارات والقيادات الجهوية.
: حملات السعديين الجهادية من أجل التحرير والوحدة
: بعض المعارك الحربية الهامة
: معركة وادي المخازن.
: زاوية أبي الجعد بإقليم تادلا.
: خطوط التجارة الصحراوية جنوب سوس.

أولا : أصله ونسبه.

«هو أبو عبد الله (1) مَحمد المدعو الشرقي بن الشيخ أبي القاسم المعروف بالزعري (2) الجابري الرثمي، وينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3)..» هكذا عرف به صاحب المرآة باعتباره من أقدم المصادر التي تعرضت لترجمة مؤسس الزاوية، فهو يرجع أصله إلى بني جابر، القبيلة العربية المشهورة التي هي من عداد قبائل «جشم»، وهو الاسم الذي حملته مجموعة من القبائل الهلالية (4) التي استقرت بتامسنا «البسيط الافيح ما بين سلا ومراكش أواسط بلاد المغرب الأقصى .. وأقاموا بها احياء حلولا، وافترقت شعوبهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر» (5).

وقد استقرت قبيلة بني جابر بمنطقة تادلا، في النصف الأول من القرن 7هـ/13م حيث ربطوا علاقات تحالف مع برابرة الأطلس، «فيسهلون إلى

---

(1) حسب محمد بن عبد الكريم العبدوني : يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطي ... «مخطوط ابي الجعد.»ص 5، 6 .. «أبو عبد الله سيدي ومولاي محمد المكنى بأبي عبيدة والملقب بالشرقي..». ذلك أن معظم المصادر قد كتبت اسمه محمد (فتحا)، ونادرا ما تقرنه بكنية «أبي عبيدة»، والشائع عند عموم الناس هو اسم «بوعبيد»، تحريفا لأبي عبيدة.

(2) الزعري، هو اسم لجد الشرقي وليس لقب لوالده.

(3) م. العربي الفاسي : «مرآة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن» م.خ.ع. بالرباط. ك 316. الورقة 146 مكررة/أ.

(4) يرجع دخول قبائل بني هلال العربية إلى المغرب الأقصى إلى النصف الأول من القرن 6هـ/12م. انظر :
ـــ عبد الرحمن بن خلدون : «كتاب العبر». القسم 1، المجلد 6، (بيروت) ص 27 وما بعدها.

(5) المصدر السابق، 58.

البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم اخرى، اذا داهمتهم مخافة..» (6).

وخلال القرن 8هـ/14م، آلت الرئاسة إلى «ورديغة» احدى بطونهم ؛ فقد أدرك ابن خلدون أحد اشياخهم، وهو حسن بن علي الورديغي، كما تحدث عن استمرار الزعامة في أبنائه.. (7).

ويظهر أن قبيلة بني جابر بقيت تحتفظ بهذا النفوذ الجهوي أواخر العهد المريني، وخلال فترة حكم محمد الشيخ الوطاسي (8) (875 ــ 910هـ/1471 ــ 1504)، كما أن «الحسن الوزان» أكد أثناء مروره بمنطقة تادلا عام 915هـ/1509م على أهمية هذه القبيلة، وتدخلها في الصراعات المحلية (9)؛ وهي الفترة التي كان فيها أبو القاسم والد محمد الشرقي مقيما ببلاد ورديغة؛ «وهو نازل معهم في موضع هناك يقال له واد الزم (10)، وهناك تزايد عنده جميع أولاده..» (11) وهي المنطقة التي كانت تقيم بها قبيلة «الرثمة» احدى بطون ورديغة، والتي تفرعت عنها عدة فرق مثل : أولاد بحر، وأولاد سمير (12).. وهي اسماء مجموعات

(6) المصدر السابق، 66.

(7) المصدر السابق، 67 وكذلك :
ــ احمد بن خالد الناصري : «الاستقصا» 4، دار الكتاب، ص 32.

(8) — Massignion (L); Le Maroc dans les premières annèes du 16è. S (Alger) p : 174, 176.
— Martinet (G); et d'autre, Histoire du Maroc Paris, p : 168, 175.

(9) الحسن الوزان : «وصف افريقيا» تعريب الاستاذين : محمد حجي، محمد الأخضر. الرباط، ج 1 ص 140 ــ 144.

(10) أصلها، (وادي ازم) بكسر الهمزة وفتح الزاي مع امالة : معناها الاسد في المصمودية الصنهاجية، وحذفت الهمزة كما هي محذوفة في (ازا) وغيرها..» وهو المكان الذي نشأت فيه مدينة وادي الزم الحالية، بين مدينتي ابي الجعد وخريبكة. انظر :
ــ شفيق محمد : في ان أسماء الاماكن في المغرب جلها مازيغية.
مجلة البحث العلمي، السنة 14 ع 27، الرباط. ص 335.

(11) العبدوني : يتيمة العقود الوسطى .. «مخطوط ابى الجعد، ص 110.

(12) مما يفسر نسبة بعضهم محمد الشرقي ؛ إلى بني سمير. «محمد الشرقي السميري..»
ــ محمد بن الطيب القادري : «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» تحقيق الاستاذين محمد حجي وأحمد التوفيق. الرباط.ص 80.

قبلية لازالت مستقرة إلى وقتنا الحاضر فيما يعرف ب «هضبة ورديغة» أو «هضبة الفوسفاط» شمال أم الربيع.

إلا أن المصادر تربط بين الأصل الجابري الهلالي والنسب العمري؛ فقد أورد صاحب المرقى لأول مرة سلسلة هذه الشجرة العمرية التي تنتهي بثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب (ر) كالتالي :

«فهو ابو عبد الله محمد الملقب بالشرقي، بن أبي القاسم، بن الزعري، بن عمر بن حمو، بن مهدي، بن حمامة، بن سعيد، بن عبد الله بن عبد العزيز، بن محمد، بن سليمان، بن سمير، بن يعقوب، بن فاضل، بن عمر، بن موسى، بن أحمد ابن محمد، بن مرداس، بن هلال، بن عمر بن عبد الله، بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه» (13).

مؤكدا على أن هذه النسبة العمرية كانت شائعة في ابناء وأحفاد مؤسس الزاوية محمد الشرقي (المتوفى 1010هـ/1602م)، وهذا لا يتناقض مع ما جاء في كتاب المرآة، الذي ألف بعد وفاة الشرقي بحوالي 40 سنة، وقد أشار إلى تلك النسبة بعده كتاب آخرون مثل : محمد المهدي الفاسي (14)، في حين يكتسي كتاب «التشوف الصغير» أهمية خاصة، لأنه من تأليف أحد فقهاء ووجهاء المجتمع التادلي ؛ والذي حاول فيه أن يستوعب جل صلحاء تادلا ومن بينهم، أسرة محمد الشرقي (15). وهي كتابات في مجملها سابقة للتآليف المختصة بتراجم شيوخ الزاوية.

بيد أن هذه الشجرة تختلف من حيث عدد الاجداد، كما تختلف في

---

(13) عبد الخالق بن محمد العروسي : «المرقي في مناقب الشيخ سيدي محمد الشرقي» مخطوط ابى الجعد. ص 95.

(14) محمد المهدي الفاسي : «ممتع الاسماع في دكر الجزولي والتباع ومالهما من الاتباع» فاس، ص 123.

(15) عبد الرحمن الصومعي : التشوف الصغير م.خ.ع. بالرباط. د 1103 الورقة 86.

بعض الاسماء أو في ترتيبها، وهو أمر شائع في مثل هذه الحالات (16)؛ إلا أن أهميتها تتمثل في إعطائنا مزيدا من التوضيح فيما يخص اجداد هذه الأسرة ؛ خاصة أولائك الذين لازالت قبورهم مزارات يُتبرك بها من طرف «ورديغة» وغيرها من القبائل المجاورة. فقد ذكر صاحب اليتيمة، أن آخر ما رأى من مزاراتهم هو : «أبو القاسم دفين واد أم الربيع بقرب القصبة (17) ابن سيدي محمد الملقب بالزعري دفين وادي تاشرافت (18) ببلد ورديغة .. ابن عمر دفين وادي أبي جروم (19) ابن حمو القادم من تافيلالت من بلد الرتب على ماذكره قدماء أهل البلد .. (20)».

إلا أن رواية اخرى نقلا، عن أولاد الشيخ محمد الشرقي وحفدته، تجعل «أول من هبط م أجداد الشيخ إلى هذا المغرب، هو سيدي محمد المهدي، في وسط كبكبة من فرسان العرب .. وهم بنو بحر من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب، واستقروا في الرتب، حتى انتقلوا إلى دير تادلا (21).

إلا أن «ايكلمان» يجعل أول من نزل منهم إلى المغرب هو سيدي عبد الله احد اجداد محمد المهدي. «فبهذا نجد أن عبد الله، يقال : انه قد غادر مرسى «ينبع» بالجزيرة العربية في تاريخ غير معروف، متجها إلى ناحية تافيلالت بالمغرب، وهذه الناحية تعتبر ذات أهمية كبرى، لكونها

(16) قارن مثلا ما جاء في كتاب اليتيمة، ص 118، انظر : الرسم التوضيحي مع التعليق بالصفحة رقم 50-51.

(17) يعني بها قصبة تادلا الحالية.

(18) أي وادي الشرفاء (نسبة إلى أحد الصلحاء الاشراف المدفونين بالمنطقة، وهو الشيخ حمزة بن يعيش الشريف الحسني) وهو نهر صغير يقع في منتصف الطريق بين ابي الجعد ووادي الزم.

(19) أو، وادي ابى كروم (وادي المرابطين أو الصلحاء)، وهو نهر صغير يلتقي مع وادي تاشرافت غرب أبي الجعد، ليكونا معا أحد روافد نهر أم الربيع من الجهة اليمنى، وتوجد قريبا منه قباب عدد من الصلحاء : سيدي عمر، سيدي حمو ... مما يفسر سبب هذه التسمية.

(20) العبدوني : اليتيمة، ص 124.

(21) المصدر السابق، ص 132.

الموضع الذي انطلقت منه سلالتان مغربيتان رئيسيتان، ... هما : السعديون، والعلويون (22).

وعلى ذلك يقترن وصول السيد عبد الله العمري إلى المغرب بفترة هجرة قبلية عربية حاسمة ؛ ونعني بها وصول قبائل بني هلال العربية خلال القرن 6هـ/12م وما بعده.. (23).

وفي أواخر ق. 7هـ/13م وصل إلى المغرب جد الأسرة العلوية الشريفة المولى الحسن بن قاسم .. ويذكرون أن من جملة أسباب دخولهم بلاد سجلماسة ما قام به أحد السادة العرب من سلالة عمر بن الخطاب هو : أبو ابراهيم العمري الذي كانت له مكانة ومنزلة عظمى في الوسط السجلماسي؛ فقد كان يرأس موكب الحج؛ وفي كل حجة كان الشيخ ابو ابراهيم : «يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله، فاجمع السير مع الركب وقدم به أبو ابراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة» (24).

وتوطدت العلاقات بين الشخصيتين والاسرتين عندما تزوج المولى الحسن ابنة الشيخ ابي ابراهيم العمري؛ وهي العلاقة التي استمرت وتوطدت حتى عهد المولى علي الشريف الذي اشتهر بعملياته الجهادية في بلاد الاندلس، وفي احدى مراسلات الاستنجاد بالمولى علي وجنوده المغاربة بقصد الجهاد، نجد أهل الأندلس يمدحون هذا الأخير وصاحبه الفاضل أي عبد الله محمد بن ابراهيم العمري (25).

وترجع مصادر الزاوية وصول أحد اجداد الأسرة الشرقاوية إلى تادلا إلى

---

(22) Eckelman; Moroccan Islam..., (1976). p : 189.

(23) انظر الرسم مع التعليق بالصفحة 50 – 51.

(24) الافراني : النزهة، ص 288، 289.
— الناصري : الاستقصا، ج : 7، ص 5.

(25) الافراني : النزهة، ص 294.
— الناصري : الاستقصا، ج : 7 ص 9.

القرن 9هـ/15م بعد أن استقر بعضهم بتافيلالت حوالي ق 8هـ/14.

وعلى ذلك بات من الضروري التساؤل عن العلاقة بين الفرع العمري التادلي والفرع العمري السجلماسي على الاقل من حيث عملية الوصول والاستقرار زمنيا ؛ بيد أن ما هو مؤكد هو أهمية هاته الأسرة العمرية وشهرتها في المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد منذ زمن بعيد، ثم انتشارها في باقي المناطق المغربية خاصة تادلا في مرحلة لاحقة.

وإذا كان من غير الضروري مناقشة هاته الروايات المتعددة، على اعتبار أن اهميتها الحقيقية، تكمن في ابعادها الاجتماعية والسياسية، فإنه بالامكان ابداء الملاحظات الاتية :

ــ ان اقتران النسب العمري بالأصل القبلي لهذه الاسرة في نظر مؤرخي الزاوية لا تعارض فيه، ذلك «ان الشيخ كان ينتسب إلى الوطن لكونه اشتهر به، ولهذا انتسب كثير من العلماء لأوطانهم، ونسيت نسبتهم لقبائلهم.. (26).

ــ ان صاحب المرقى يبعد كل علاقة سلالية بين الأسرة المرابطية والوسط القبلي الذي ظهرت فيه واشتهرت ؛ في حين نجد مؤلف اليتيمة يتوسع في مدلول النسب العمري ليشمل كل القبيلة الورديغية (27).

ــ ويظهر ان الانتساب للعمرية لم يكن غريبا عن منطقة تادلا، فقد أورد صاحب «التشوف الصغير» عددا من اسماء الصلحاء العمريين، بل قبائل بأجمعها، مثل قبيلة بني سجدال (شگدال) ومن بين هاته الأسر، عائلة أبي عبد الله الشرقي (28) وهو ما أصبح شائعا وتناقلته مختلف كتب التراجم (29).

(26) العروسي : المرقى، 92.

(27) العبدوني : اليتيمة، 132.

(28) الصومعي : التشوف الصغير، الورقة 77 و 86.

(29) القادري : نشر المثاني، ج : 1، ص 80.

ــ ان مؤرخي الزاوية يبررون هاته النسبة العمرية بمختلف الوسائل، خاصة «صاحب المرقي»، الذي تصدى للمتشككين أو المنكرين مفندا ادعاءاتهم، ومؤكدا على أن الذين وجدت بخطهم «على درجة من العلم والصلاح، والهداية، والرشد، والخوف .. بل ماقالوا ذلك حتى صححوه وحققوه (30)» امثال الشيخ الفقيه سيدي محمد التونسي بن الشيخ محمد الشرقي، والاستاذ الولي محمد المفضل بن الشيخ المرسي (31) بن الشيخ الشرقي (32)، وخاصة شيخه، وشيخ الزاوية في عهده : أبو عبد الله محمد الصالح. (المتوفى 39 ــ 1140هـ/1728) الذي يقول عنه : «ولو لم يكن في ثبوت هذا النسب الا وجوده بخط هذا الوالي العارف بالله .. لكان كافيا في صحته وثبوته) (33).

ولاشك ان أسلوب التبرير هذا لا يبتعد كثيرا عن الأساليب الاخرى التي أثبتت بها معظم الشجرات السلالية، خاصة خلال القرن 10هـ وبعده (34).

ــ ان مختلف المصادر تتفق فعلا على عدم اشتهار النسبة العمرية في حياة ابى عبد الله الشرقي، عكس ما حدث في حياة ابنائه واحفاده ..، مما يفسر أهمية ظاهرة الصلاح في هذه المجتمعات القبلية دون غيرها من مظاهر الشرف .. الشيء الذي تغير فعلا ابتداء من القرن 11هـ/17م وما بعده، مما لا يمكن فهم ابعاده، الا في إطار الظرف التاريخي، الذي أعطى لعنصر الشرف السلالي ــ خاصة الانتساب إلى آل البيت ــ أهمية كبرى، فيما يخص التصنيف الاجتماعي.

(30) العروسي : المرقى، ص 90.

(31) وينطقونه خطأ : «المرسلي».

(32) العروسي : المرقى، ص 90.

(33) العروسي : المرقى، ص 95.

(34) انظر على سبيل المثال :

ــ محمد الصغير الافراني : «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي»، هوادس، باريس، ص 3 وما

عمود النسب العمري لأسرة ابي عبد الله محمد الشرقي (اعتمادا على رواية مؤلف اليتيمة) (35)

عمر بن الخطاب

عبد الله

عمر

هلال

مرداس

محمد

عمر

موسى

مسعود

محمد

فاضل

يعقوب

بحر

سمير

سليمان

= بعدها. في موضوع : «ذكر الخبر عن نسبهم الشريف».
ـ الناصري : الاستقصا. ج : 5، ص 3 وما بعدها : «الخبر عن دولة الأشراف..».

(35) العبدوني : اليتيمة، 118. وبمقارنة هذه الشجرة مع مثيلتها في المرقي (ص 95) نلاحظ :
ـ الاختلاف حسب عدد الأجداد (25 في اليتيمة) مقابل 23 في المرقي.
ـ الاختلاف في بعض الأسماء، مثلا الزعري بن محمد وفي المرقي الزعري بن عمر، إلا أن الثابت هو عمر كما في اليتيمة في مكان آخر، مما يفيد أن الأمر يتعلق بتصحيف بسبب تشابه رسم الاسمين (محمد، عمر).
ـ ان كتب التراجم الاخرى اعتمدت رواية صاحب المرقي، إلا أن عدد 25 هو الأقرب لتوزيع الاجداد حسب ثلاثة أجيال في كل قرن.

مـحـمـد
عبد الله (36)
عبد العزيز
سـعـيد
حـمـامـة
محمد المهدي (37)
حـمـو
عـمـر
الـزعـري
أبو القاسم
تمـحـمد الـشـرقـي

ثانيا : ظروف نشأته :

نشأ أبو عبيد الله الشرقي، في وسط عرف بالصلاح والنفوذ الروحي في منطقة تادلة. وإذا كانت معلوماتنا عن أجداده لا تتجاوز مظاهر تاثيرهم المادي والروحي الذي لازال مجسدا في مزاراتهم وقبابهم المنبثة في المنطقة هنا وهناك، فإن بعض معالم هذه الشهرة، تتوضح كلما اقتربنا من العصر الذي ولد فيه تمحمد الشرقي ونشأ؛ ذلك أن المصادر تتحدث عن ان جده الزعري (38) «كان من أهل الصلاح .. وقد تزوج بامرأة من قبيلة

---

(36) حسب «ايكلمان» يرتبط وصول أول جد للأسرة الشرقاوية إلى المغرب بفترة وصول القبائل العربية الهلالية خلال القرن 6هـ/12م.

(37) في حين يقترن وصول محمد المهدي إلى المغرب بالفترة التي كانت فيها الرئاسة في ورديغة أحد بطون بني جابر خلال القرن 8هـ/14م.

(38) الزعري اسم لوالد أبي القاسم «وعلم عليه كما هو معلوم عند أهله..» هكذا صحح مؤلف النشر خطأ ما ذهب إليه صاحب المرآة ومن بعده مؤلف الممتع، «وقوله في المرآة في أبي القاسم المعروف بالزعري، =

ورديغة من فخد يقال له لبراشوة (39) وكانت صالحة معينة له على دينه ودنياه .. اسمها زبيدة» (40) وبالرغم من عدم وجود أي إشارة إلى الفترة التاريخية التي عاشت فيها هذه الشخصية الصوفية، فيمكن الاطمئنان إلى أنه قد اشتهر في النصف الثاني من القرن 9هـ/15م، فأصبح مقصدا لطلاب العلم والمعرفة من مختلف الجهات التادلية، وتخرج على يده بعض الصلحاء، مثل الشيخ «ميمون السحرواي».. (41)، وعند وفاة سيدي محمد الزعري، دفن بالقرب من «وادي تاشرافت» ببلد ورديغة، وأقيمت عليه مزارة لازالت إلى يومنا هذا، قريبا من والده سيدي عمر وجده سيدي حمو.

أما الشيخ أبو القاسم بن محمد الزعري، والد محمد الشرقي، فيظهر أنه نشأ وترعرع في مطلع القرن 10هـ/16م، فقد كان مقيما مع أسرته في منطقة «الزم»، وبعد وفاة والده أصبح وارثا لصلاح أسرته وثرائها، « وكان ذا وفرة في الدنيا وتوسعه من غنم وبقر وابل، وأكثر ماله الغنم..» (42).

إلا أننا نجده يرحل عن موطن أسرته، تاركا أمواله وعشيرته وأبناءه، باحثا عن الشيخ الذي يوجهه ويرشده إلى طريق الصلاح وسبيل الوصول؛ وهي

= يقتضي أنه لقب له لا اسم ابيه، وليس كذلك»، وهذا يوافق ما جاء في كتب التراجم الخاصة بالزاوية، وفي كتاب التشوف الصغير، ومع ذلك ينقل مؤلف الاستقصا نفس الخطأ.

أ ــ الفاسي : المرآة، الورقة 146/أ.

ب ــ الفاسي م : الممتع، ص : 123.

ج ــ الصومعي : التشوف الصغير، الورقة 76، 77.

د ــ العبدوني : اليتيمة، ص : 110.

هـ ــ القادري : النشر، ج 1، ص : 80 (المحقق).

و ــ الناصري : الاستقصا، ج 5، ص : 193.

(39) لاتزال هذه القبيلة في المنطقة غرب مدينة أبي الجعد.

(40) العبدوني اليتيمة، ص : 114.

(41) الصومعي : التشوف الصغير، و : 77/أ.

(42) العبدوني : المصدر السابق، ص : 110.

هجرة تختلف المصادر حول أبعادها، وآفاقها. فالبعض (43) يجعله قد اتصل بأكبر شيوخ الطريقة الجزولية الشاذلية في عصره ؛ وهو الشيخ عبد العزيز التباع (المتوفى سنة 914هـ)، في حين لم يستطع محمد المهدي الفاسي (44) أن يجزم بحقيقة اتصاله بالشيخ عبد الله الغزواني (المتوفى 932هـ)، إلا أن المصادر تجمع حول العلاقة الصوفية وعلاقة «الصحبة» الحميمة التي كانت تجمع بين أبي القاسم واحد كبار شيوخ منطقة تادلا، وهو : أبو عثمان سعيد أمسناو، صاحب زاوية الصومعة ببلد داي (45).

«وكان مواخيا لسيدي أبي عثمان امسناو، ومتعاهدا لزيارته..» (46)

وكانت تشاركه في هذه العلاقة الصوفية، زوجته السيدة رحمة، التي اشتهرت بصلاحها، وتتلمذها على شيوخ الناحية برفقة زوجها.

والسيدة رحمة إلى جانب ذلك ؛ ابنة الشيخ سيدي حمزة بن يعيش الشريف الحسني أحد صلحاء تادلا وأشرافها (47).

ولا تقتصر صحبة كل من أبي القاسم وزوجته، على الشيخ امسناو، بل كانا يترددان كذلك على شيخ آخر من أشهر شيوخ تادلا، وهو سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي دفين اكرض (48).

---

(43) الفاسي : المرآة، الورقة 146/ب.
ـــ العروسي : المرقي، ص 40.

(44) الفاسي : الممتع، ص 52.

(45) قرية الصومعة متصلة بمدينة بني ملال الحالية (بلد داي قديما)، حيث أنشأ بها سعيد أمسناو زاويته في مطلع 10هـ/16م. ترجم له ..
ـــ الصومعي : التشوف الصغير، (الورقة 85).
ـــ محمد بن علي الشفشاوني (ابن عسكر). «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» ؛ تحقيق ذ. محمد حجي، الرباط، ص 95
ـــ العروسي : المرقي، ص 40، 47.

(46) الفاسي : الممتع، ص 52 وكذالك، العبدوني : اليتيمة، ص 131.

(47) الصومعي : التشوف الصغير. الورقة 86 وكذلك في «اليتيمة». ص 114.

(48) ابن عسكر : الدوحة. ص 95، وكذلك في «التشوف الصغير»، الورقة 85.
وأكرض أو أقرض معناها في اللغة الامازغية : قدم الجبل (الدير)

أصبح أبو القاسم بعد ذلك شيخا صوفيا ذا قدم راسخ وسند عال في طريق القوم، باعتبار اخذه ومعاصرته لأشهر شيوخ الطريقة الجزولية خلال النصف الأول من القرن 10هـ/16م ؛ سواء أولائك الذين كانوا مقيمين بتادلا أو الذين نزح إليهم بمراكش، في وقت اضحت فيه البلاد عرضة لخطر مسخ حقيقي، عندما أبانت السلطة المرينية ـــ الوطاسية القائمة عن عجزها وتقاعسها لصد العدو المحتل، الذي خنق البلاد باحتلاله لمعظم سواحلها (49) .. فليس ببعيد أن يجييء تاسيس زاوية أبي القاسم على ضفة أم الربيع قريبا من القصبة التادلية (50)، يندرج ضمن خطة توعية وتعبئة شاملة، اتخذت كخلية لها «الزوايا» .. وإلى هذه الفترة يرجع تأسيس العديد من الزوايا بالمغرب .. هذا إلى جانب شهرة أسرة أبي القاسم الدينية بالمنطقة وعصبيته القبلية بها، كما أن هذا التأسيس يمثل إضافة جديدة ضمن حلقة من (الزوايا ـــ الحصون) الممتدة عبر الدير والتي تبدأ على الأقل من زاوية سيدي رحال الكوش (51) فزاوية أقرض (52)، فزاوية الصومعة في شكل قلاع خلفية تحمي ظهور المجاهدين من جهة، وتمدهم بالعدة والعدد لمواصلة الصمود والمرابطة، وتهيئة داخل البلاد لكل محاولات غزو محتملة (53) وهذه العملية لن

---

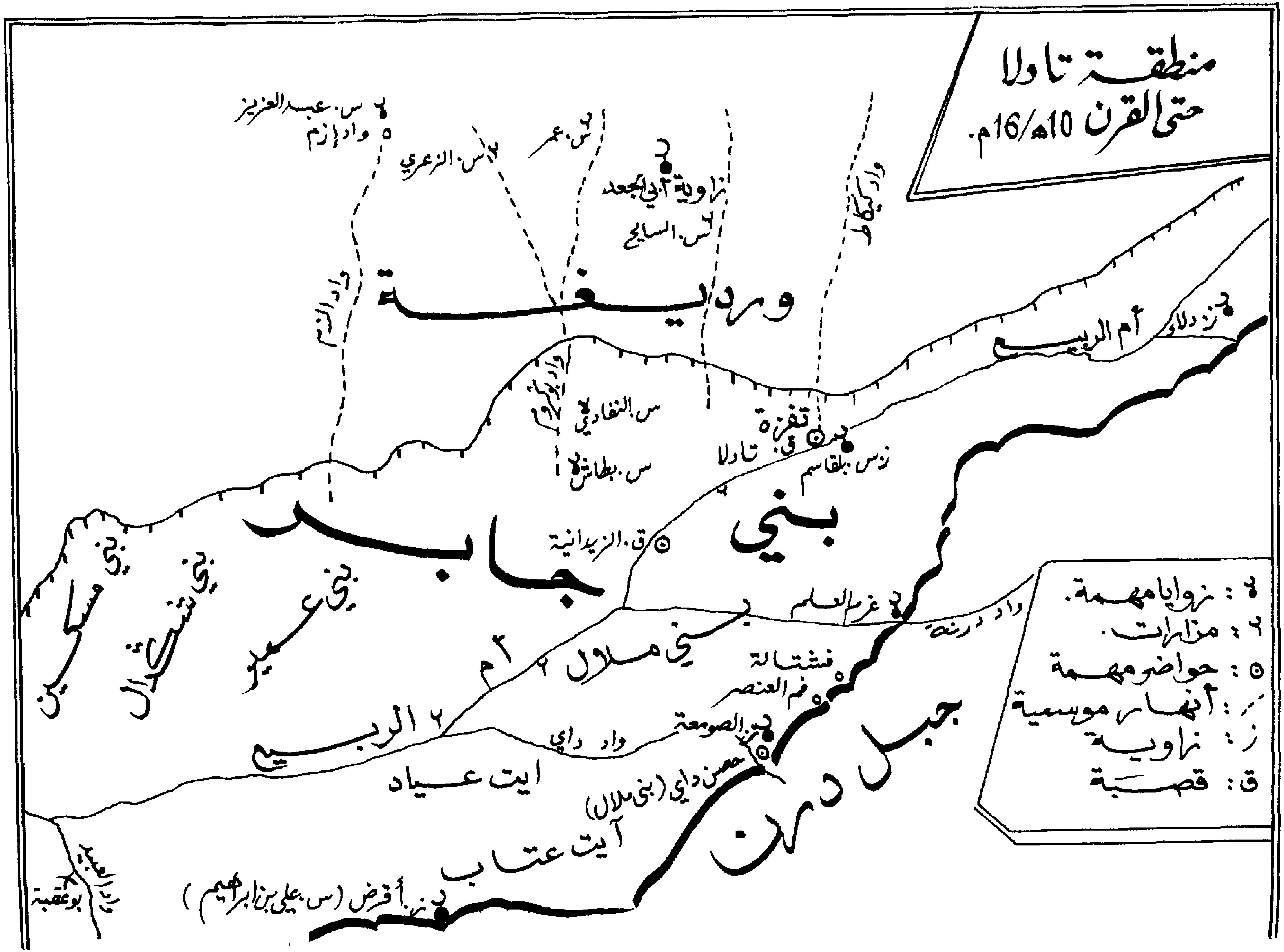
(49) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية. الرباط، ص : 5 ـــ 23.

(50) ونعني بها قصبة تادلا الحالية التي لم تعرف بذلك وتشتهر إلا في العصر العلوي فأصبحت مقرا للوالي أو الخليفة السلطاني مثل الأمير مولاي أحمد بن اسماعيل : وإلى الجنوب الغربي على ضفة أم الربيع أيضا توجد القصبة الزيدانية نسبة إلى الامير زيدان بن أحمد المنصور السعدي.

(51) وتعرف أيضا بزاوية «انماي» وهي قرية زاوية سيدي رحال حاليا، من احواز مدينة مراكش من جهة الشمال الشرقي في المرتفعات الأولى للاطلس الكبير ويعتبر سيدي رحال الكوش (أي الأسود) من مشاهير رحالات التصوف حلال القرن 10هـ/16م).

(52) أو زاوية سيدي علي بن ابراهيم، وهي اليوم من المزارات المشهورة في تادلا ويقام بها موسم سنوي تحج إليه عدد من قبائل الجبل والسهل (انظر الخريطة ص : 55).

(53) شهدت سنتا 1514م و 1515م محاولتين عسكريتين استعماريتين برتغاليتين بهدف التسرب من الشواطىء المغربية المحتلة إلى داخل البلاد لاحتلال العاصمتين مراكش وفاس .. الا أن المقاومة المغربية في الشمال والجنوب افشلت كلتا المغامرتين.
حول هذا، انظر : كريم : «المغرب..» الصفحات : 42،43،44.


منطقة تادلا
حتى القرن 10هـ/16م.
زوايا مهمة.
مزارات.
حواضر مهمة
أنهار موسمية
زاوية
قصبة
ورديغة
بني جابر
بني ملال
أم الربيع
جبل درن
ايت عياد
آيت عتاب
تادلا
تفزة
الزيدانية
فشتالة
فم العنصر
الصومعة
وادي داي
بني عمير
بني مسكين
بوعقبة
زاوية أبي الجعد
س. النفاري
س. بطاش
س. الزعري
س. عبد العزيز
واد درنة
واد العبيد
حصن داي (بني ملال)
أفرض (س. علي بن ابراهيم)

تتوقف بزاوية أبي القاسم بل ستتواصل في مرحلة لاحقة في اتجاه الشمال الشرقي، متمثلة في زاوية «دلاء» (54) وزاوية «ابن امبارك» (55) ناحية تاغيا مرورا بزاوية الشرقي.

ولد أبو عبيد الله الشرقي بعد رحيل والده أبي القاسم عن عشيرته، واقامته لزاوية بجوار أم الربيع (56)، وتاريخ هذا الميلاد ما بين 926هـ و 928هـ (57)، مما يفسر أهمية الحقبة التاريخية التي عاصرتها هذه الشخصية أو التي نشأ فيها ابنه ووارث سره من بعده .. فقد شهدت قيام الدولة السعدية بمساندة شيوخ الزوايا «وقد اتفقت كلمة أولائك الأشياخ على أن أبا عبد الله محمد القائم (58) انما كان نهوضه بإشارة من الصالحين، واذن من العلماء العاملين ... (59)» فأثبتت هذه الأسرة جدارتها وشرعيتها بما اقدمت عليه من مقارعة العدو في الساحل السوسي وغيره، مما زاد من التفاف الامة وصلحائها حولها بما في ذلك صلحاء تادلا في وقت أصبح فيه أم الربيع يمثل حدا فاصلا بين الامارتين : السعدية

(54) تأسست زاوية «دلا» حوالي 974هـ/1566م على يد الشيخ أبي بكر ابن محمد بن سعيد الدلائي وقد كان لها دور هام في احداث المغرب الدينة والعلمية والسياسية خلال ق 11هـ/17م، تم تحطيمها على يد السلطان العلوي مولاي رشيد عام 1079هـ/1668م .. وتقوم اليوم على انقاضها قرية «زاوية ايت اسحاق» على الطريق التي تربط بين مدينتي خنيفرة وقصبة تادلا.

حول هذا انظر، الاستاذ محمد حجي : الزاوية الدلائية، ودورها الديني والعلمي والسياسي. المطبعة الوطنية بالرباط (1384هـ/1964م).

(55) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن امبارك الزعري دفين تاستوت بالقرب من قرية تاغيا (مولاي بوعزة حاليا) أسس زاويته خلال النصف الثاني من القرن 10هـ في وقت قريب من تأسيس زاوية «دلا» باذن من الشيخ ابي عمر القسطلي.

— ترجم له : الفاسي في الممتع، ص 143 والصومعي في التشوف الصغير الورقة 84 وكذلك

— محمد الصغير الافراني : «صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر (فاس). ص 9

(56) العبدوني : اليتيمة، ص 110.

(57) على اعتبار أنه توفي عام 1010هـ/1602 م عن سن تناهز 82 سنة أو 84 سنة.

(58) هو المولى محمد بن عبد الرحمن الملقب بالقائم بأمر الله مؤسس حكم الدولة السعدية حوالي 916هـ/1510م.

(59) الافراني : النزهة، ص 12.

في الجنوب والوطاسية في الشمال، ويشكل الحد الاقصى لما وصل إليه امتداد نفوذهما .. بل أن أهم المعارك الحاسمة بينهما وقعت على ضفافه أو قريبا منه، وأشهرها معركة (بوعقبة) بتادلا عام 943هـ/36 — 1537م) والتي انتهت بانهزام السلطان الوطاسي، وعقد صلح بين الطرفين من أهم بنوده ؛ اتخاذ وادي أم الربيع كخط فاصل بينهما وتخلي الوطاسيين عن كل من تادلا وتامسنا (60) .. وقد ساهم في هذا الانجاز السلمي بشكل فعال العلماء والصلحاء ؛ مما يجعلنا لا نستبعد التأثير المباشر لصلحاء تادلا في هذه المعارك أو خلال فترات الهدنة أو أثناء عقد الصلح بين الفريقين، خاصة ضم منطقة تادلا إلى الامارة السعدية، بل أن تسوية مشكل تادلا معناه ؛ سقوط آخر معقل دفاعي للدولة الوطاسية، وفتح الطريق أمام القوات الجنوبية لضم باقي البلاد بما في ذلك العاصمة فاس، ويؤيد هذا إسراع القبائل المتواجدة وراء منطقة تادلا للانضواء تحت القيادة السعدية الناشئة، مما أدى إلى عزل الامارة الوطاسية داخل فاس واحوازها، إلى أن تم الاجهاز عليها في نهاية المطاف عام 956هـ/1549م (61).

تجري هذه الاحداث الهامة في وقت أصبح فيه الشيخ أبو القاسم من أهم الشخصيات الصوفية في المنطقة التادلية (62) التي اضحت تعيش في شبه فراغ صوفي بعد وفاة كل من الشيخين «امسناو» و «علي بن ابراهيم» في منتصف القرن أو قريبا منه (63) في حين تأخرت منية أبي القاسم إلى ما بعد هذا التاريخ .. مما يجعله يمثل حلقة بارزة في تصوف المنطقة التادلية، باعتبار امتداد الصلاح في أسرته لحقبة تتجاوز القرن من

(60) المصدر السابق : ص 20، 21.

(61) تقترن هذه الأحداث الحاسمة بشخصية أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي (951 — 964هـ و 1544 — 1557م) انظر أيضا : الافراني : نزهة، من ص 27 — 36—.

(62) جاء في اليتيمة ص 113 «ولم يزل خدام هذه الولي .. متظافرين على محبته، عاكفين على خدمته .. مثل البعض من بني سجدال وورديغة وغيرهم من أهل تادلة.

(63) توفي الشيخ امسناو عام 950هـ في حين توفي علي بن ابراهيم عام 956هـ.

الزمن إلى الوراء .. وانه بفضل شخصيته وغنى تجربته الصوفية قد ضمن لهذا الخط الاستمرار إلى ما بعده بقرون اخرى ؛ ومع ذلك تظل بعض النقط والاشارات حوله غامضة أو تحتاج إلى توضيح :

ـــ أوردت بعض الكتابات (64) ان أبا القاسم نَزح من الحجاز حيث زار مصر ولبيا وتونس والجزائر ثم توقف بفاس ليتم دراسته بها، ومنها توجه إلى مراكش قبل أن يتخذ تادلا مستقرا له في نهاية المطاف .. وهو زعم لم نعثر له على ما يؤكده.

ـــ في حين تشير المصادر إلى اتصال ابي القاسم بالشيخ الصوفي الكبير أحمد بن يوسف الراشدي الملياني (65) «يقال أن الشيخ سيدي أبي القاسم ذهب لزيارته، فأمره أن يسمي مافي بطن زوجته محمد الشرقي فسماه لذلك محمد الشرقي (66)» معنى هذا أن الزيارة تمت قريبا من فترة ميلاد الشرقي ما بين 926هـ و 928هـ وقبيل وفاة الشيخ الملياني بقليل (مابين 1927هـ 1521م/931هـ 24 ـــ 1525). إلا أن التسمية في حد ذاتها تثير بعض التساؤل. خاصة وانها تقترن بحادث سياسي وبشري هام يتمثل في وصول أفواج من قبائل عرب بادية تلمسان في اتجاه المغرب، فرارا من وجه الاحتلال العثماني للجزائر في مطلع ق 10هـ/16م، والذين سموا ب «شراقة»، لأنهم في جهة الشرق من المغرب (67).

---

(64) تحعل هذه الكتابات لقب الشرقي مرتبطا بالشيخ أبي القاسم وليس ابنه : ومن تم فهو من الشرق وانه ولد بالحجاز، انظر مثلا

— Cimetière (J); Notice sur Boujad, (R.M.M) T : 24; p.278.

(65) هو احمد بن يوسف الراشدي الملياني، من أبرز رجالات التصوف في مطلع القرن 10هـ/16م، تتلمذ على الشيخ احمد زروق البرنسي الفاسي الذي أخذ عنه عهد الشاذلية ثم أسس بعد ذلك الطريقة اليوسفية، وهي طريقة زروقية شاذلية.

(66) العروسي : المرقى، ص 45.

ـــ الفاسي : الممتع، ص 123.

(67) عبد الله نجمي : العكاكزة. مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط : ع : 5 و 6. (مزدوج) ص 29.

ـــ واقترن بهذا أيضا، وصول بعض تلامذة الشيخ الملياني إلى المغرب، مثل احمد بن عبد الله المنزولي (68) وعبد الله الخياط (69)، مما يجعلنا لا نستبعد أن يكون من بينهم أيضا أبو القاسم بن محمد الزعري .. ويقترب هذا من التبرير الشفوي لأهل الزاوية والقائل : «(ان أهل لعبادة سموه بوعبيد، وأهل الشرق سموه الشرقي). فهل كانت التسمية تسجيلا أو ترديدا لصدى هذا الحدث (70)؛ استقر بعده أبو القاسم بتادلا، «وهناك تزايد عنده ابنه محمد الذي سماه بالشرقي» (71).

ـــ ان انتقال أبي القاسم لمنطقة الدير على ضفة أم الربيع، وعزوفه عن موطنه وعشيرته في الظروف التي تميزت بها أواخر الثلاثينات من القرن العاشر الهجري، يدفعنا إلى البحث عن علاقة هذا النزوح بالمحنة الطبيعية والبشرية التي ضربت بلاد المغرب انداك، واتت على الحرث والنسل، ونعني بها مجاعة ووباء 927هـ/1521م، والذين استمرا زهاء ثلاث سنوات، وكانا أكثر حدة في السهول منه في الجبال ؛ فأتيا على ما يناهز ثلثى سكان السهول الاطلسية وتسببا في إخلاء وتشريد ما تبقى من غالبية السكان، ونزوح العديد منهم في اتجاه المناطق الساحلية أو الجبلية .. (72) مما يجعلنا نتساءل عن إمكانية وجود علاقة بين انتقال

(68) احمد بن عبد الله المنزولي من أشهر تلامذة الشيخ المليان .. الا أنه ممن توغلوا في محبته وافرطوا فيها حتى ربما نسبه إلى النبوة، مما أثار سخط وغضب شيخه عليه .. وقد عرفت هذه الطائفة بأسماء عديدة مثل : الطائفة اليوسفية، أو العكاكزة أو أصحاب المنزولي. انظر حول هذا : ـــ نجمى، ع : العكاكزة، من ص 59 إلى ص 94.

(69) الشيخ عبد الله الخياط من متصوفة القرن 10هـ، صحب الشيخ الملياني أكثر من عشر سنوات ثم رجع إلى المغرب حيث أسس زاويته «ببزرهون» وحسب ابن عسكر (الدوحة، 83) فإنه «توفي مسموما في العشرة الثالثة».

(70) لا نظن أن هناك علاقة بين هذه التسمية (الشرقي) واسم احدى فرق الطائفة اليوسفية المعروفة بالشراقة بتشديد الراء.

(71) العبدوني : اليتيمة. ص 110.

(72) — Rosenberger et Triki ; Famines et epidèmies au Maroc au 16è S et 17è S ; in Hesp. Tam. Volume : 14, pp:119-135-

أبي القاسم إلى منطقة الدير واستقراره بها، وهذا الحدث الطارىء .. أم ان هذه الهجرة تعبير عن نزوح جماعي لقبيلته أو عشيرته ؟، بحيث يصبح لهذا الانتقال دلالاته الاقتصادية ولاجتماعية والدينية في آن واحد .. ويزيد من قوة هذا الاحتمال توافد شخصيات صوفية اخرى إلى هذه الناحية ومن مناطق بعيدة في نفس الفترة والظرف، مثل الشيخ محمد بن داوود الشاوي البوزيري (73)، الذي هاجر إليها، من اقصى بلاد الشاوية الحالية، وأقام زاويته في المرتفعات الاولى للأطلس المتوسط، غير بعيد عن زاوية الشيخ ابي القاسم.

لاشك أن الافاضة في الحديث عن شخصية أبي القاسم، والظروف المحيطة بها ؛ تجعلنا نزيح الستار لأول مرة عنها، وتبسط في نفس الوقت الجو العائلي والجهوي والوطني الذي نشأ فيه محمد الشرقي وترعرع، مما أصبح لزاما عليه أن يتمثله، ويستمر على نهجه ؛ الشيء الذي يفسر اهتمام والده بتربيته وتعليمه وتكوينه، حتى يكون أهلا للمهمة والامانة التي ستناط به مستقبلا.

ثالثا : شيـــوخـــه

نشأ أبو عبيد الله الشرقي في بيئة دينية محضة، سواء على المستوى العائلي أو الجهوي أو الوطني، ذلك أن الفترة التاريخية التي تمتد من ولادته في نهاية الربع الأول من ق 10هـ/16م إلى بلوغه حوالي العشرين من عمره في منتصف القرن ؛ تعتبر قمة ما وصل إليه النشاط الصوفي

---

(73) من مشايخ الصوفية خلال ق 10هـ. اخذ عن الشيخ عبد العزيز التباع، ثم انشأ زاويته بتمسنا ببلاد الشاوية الحالية. يقول عند ابن عسكر (الدوحة، 95) انه توفي في العشرة الرابعة .. الا أنه يجعل قبره بتامسنا، وهذا خطأ .. إذ انه هاجر إلى دير تادلا وبه توفي ودفن وأقيمت عليه مزارة هنالك، قرب قرية «غرم لعلم» شرق مدينة تادلا بحوالي 15 كلم، ولا زالت قبائل الشاوية تحج إليه في كل خريف .. وعندما سألت سكان المنطقة عنه، اخبروني : «بأنه جد الشاوية».
— ترجم له ابن عسكر في الدوحة ص : 95 والفاسي في المرآة، الورقة 147 ب، 148/أ

بالمغرب سواء في إطاره النظري العلمي أو جانبه العملي المتمثل في الجهاد وجمع شتات الامة.

تلقى أبو عبيد الله الشرقي تعليمه الأولي على والده في زاويته بتادلا، حيث كان الأطفال .. «يبدؤون في سن مبكر بحفظ الحروف الهجائية قبل التعرف على أشكالها في الالواح، ثم يحفظون فاتحة الكتاب فسورة الناس، فسورة الفلق، ولا يزالون يوالون حفظ «سور القرآن من أسفل إلى أعلى حتى يحفظوه كله على ظهر قلب .. ويحفظ المتأهلون من الأطفال اثناءها بعض الروايات المختلفة في قراءة القرآن و «الكراريس» وهي نصوص منثورة ومنظومة تتعلق بكيفية رسم القران وضبطه وبمبادىء الدين واللغة العربية (74).

بعد ذلك أرسله والده ليتم تكوينه الديني والعلمي في زاوية الصومعة؛ وهي آنذاك في عهد شيخها «امسناو» محج للعديد من الطلبة والمريدين من مختلف أنحاء القطر التادلي (75)، كما كانت تتميز بنظام تعليمي وتربوي خاص، «وكان اتباعه غاية في اتباع السنة .. ياكلون من عنده من طعام زاويته وكانوا اذا امسوا عرضوا عليه ما كان منهم بالنهار من قول أو فعل أو نية أو عزم في العادات والعبادات وان وجد عند أحد ما لا يصلح عاقبه بالقول أو الضرب بعصى كانت عنده أو بالهجران أو بغير ذلك مما يراه رادعا وكفارة ..» (76)، مما يفسر مدى الاهتمام البالغ الذي أولاه إياه والده أبو القاسم .. فقد اخذ بزاوية الصومعة مجموعة من العلوم الدينية؛ مثل التفسير والقراءات والحديث والفقه بالاضافة إلى التصوف.

---

(74) محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. (فضالة). ج 2، ص : 83 — 84.

(75) أمثال ابي العباس احمد بن أبي القاسم الزمراني المعروف بالصومعي، وهو من كبار الشيوخ والعلماء الذين انجبتهم هذه الزاوية. انظر :
— الفاسي : الممتع، 123.
— العروسي : المرقى، ص 53.

(76) العروسي : المرقى، ص 47.

ويظهر أن صحبة تمحمد الشرقي لشيخه لم تطل حتى يدرك غايته الروحية بعد أن ادرك غايته العلمية، ذلك أن الشيخ امسناو سرعان ما توفي، فرجع إلى والده ليأخذ عنه عهد وسند الطريقة، باعتباره من الآخذين المباشرين عن الشيخ التباع، الذي ينسب إليه معظم شيوخ التصوف خلال القرن 10هـ/16م، سواء الذين اخذوا عنه مباشرة أو بواسطة.

الا ان تمحمد الشرقي لم يقتصر على هذا بل توسع في مصادر تصوفه وفي اسانيده في الطريقة التباعية الجزولية، فنجده يأخذ على بعض كبار شيوخها المعاصرين له خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، نذكر منهم :

ــ الشيخ عبد الله بن ساسي (77) : وهو من أشهر الاخذين عن أبي محمد الغزواني، وهذا الاخير يعتبر من أخص تلاميذ ومريدي الشيخ عبد العزيز التباع .. توفي ابن ساسي عام 961هـ/1554م وأقيمت عليه مزارة قرب مراكش على ضفة وادي تانسيفت.

ــ الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر المختاري (78) : من كبار العلماء والصلحاء، كان له مجلس للعلم بجامع القرويين بفاس، وكثر الآخذون عليه والمتتلمذون خاصة في الشمال المغربي أمثال محمد بن عسكر، مؤلف كتاب الدوحة، الذي لقيه مرتين احداهما بتامسنا والثانية بفاس ..

وإذا كنا لا نعلم شيئا عن كيفية اتصال تمحمد الشرقي بشيخه هذا،

(77) ابن عسكر : الدوحة، ص 110 وكذلك، العروسي : المرقي، ص 110.

(78) أشار صاحب المرقي إلى أنه اخذ عن الشيخ محمد بن عيسى الفهدي دفين ناحية مكناس عام 940هـ، وهو عن الشيخ احمد الحارثي المكناسي (المتوفى 910هـ، عن الشيخ الجزولي (المتوفى 870هـ)، كما يجعل وفاة محمد ابن عمر المختاري عام 980هـ بدل 970هـ كما جاء عند ابن عسكر.
ــ ابن عسكر : الدوحة، ص 83.
ــ العروسي : المرقي، ص 116، 117.

فلا يستبعد أن يكون قد حصل ذلك أثناء مرور ابن عمر بتامسنا قريبا من تادلا .. ذلك أن تردد الشرقي على مراكش ــ كما كان يفعل والده ــ قد تكرر أكثر من مرة، في حين لم ترد إشارة إلى زيارات مماثلة لعاصمة الشمال فاس. ومع هذا فقد اشتهر اخذه عنه واعتماده عليه في الطريق كأخص شيوخه من بعد والده.

ورد في كتاب «الصفوة» ان الشيخ محمد بن امبارك الزعري من جملة أشياخ الشرقي (79)، الا أن هذا يبدو مناقضا لمضمون المراسلة التي وقعت بينهما، إذ دعاه فيها الشرقي لطريقته .. (80).

يدرج مؤلف المرقي، الشيخ الغزواني ضمن سلسلة أشياخ محمد الشرقي : (81) وهو ما لا يمكن قبوله إذ ان هذا الاخير لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره، عندما توفي الغزواني عام 935هـ، ويؤكد هذا تشككه في ذلك «واما الشيخ أبو محمد الغزواني افاض الله بركته، فلم نجده في بعض التقاييد وجدت فيها هذه السلسة .. (82).

وتثير المصادر قضية اخرى تتعلق بطبيعة العلاقة التي كانت بين الشرقي واحد كبار شيوخ العصر، وهو : أبو عمر القسطلي (83)، الذي تخرج عليه العديد من الصلحاء منهم بعض شيوخ تادلا خاصة أبا بكر الدلائي، وابن امبارك الزعري ؛ ذلك أن علماء الوقت انقسموا في شأنه، «فمن قائل أنه على بصيرة من ربه، ومن قائل خلاف ذلك (84)»، مما

---

(79) الأفراني : صفوة من انتشر .. ص 27.

(80) الفاسي : الممتع، ص 143، 144.

(81) العروسي : المرقى، ص 106، 110.

(82) المصدر السابق، ص 177.

(83) الشيخ أبو عمر القسطلي نسبة إلى قسطلة، مدينة بالاندلس، أخذ وتتلمذ عن الشيخ عبد الكريم الفلاح (المتوفى 933هـ)، عن الشيخ عبد العزيز التباع .. توفي أبو عمر عام 974هـ/1566م ودفن برياض العروس بمراكش.

(84) ابن عسكر : الدوحة، ص 108.

يجعلنا نفترض انتماء الشرقي إلى الصنف الثاني، بسبب ماورد من تنافس وقع بين الشخصيتين، من أجل التزوج بامرأة من قبيلة بني ملال .. (85) ويؤكد هذا موقف الإعراض الذي اتخذه أبو بكر الدلائي من الشرقي في بداية أمره، حينما كان يمر بزاويته، وهو في طريقه لزيارة شيخه (القسطلي) بمراكش (86).

ان استعراضا أوليا لأشياخ الشرقي، بما في ذلك والده أبو القاسم، يجعلنا نتبين مدى علو سنده في الطريقة الجزولية الشاذلية، التي تكاد تكون الطريقة الوحيدة في البلاد آنذاك (87)، وبالتالي استمرار اتصاله بهم، وأخذه عنهم، لتمثين روابطه الدينية والعلمية بهم، كما أنه جمع بين شيوخ عاشوا في شمال المغرب وشيوخ عاشوا في جنوبه، ليترجم في شخصه الوحدة الصوفية للبلاد.

وستحاول «زاوية ابى الجعد» — التي انشأها بعد اذن — أن تكون إضافة جديدة، ومعلمة من معالم التصوف الجزولي، الذي تميز بواقعيته وتلونه بالبيئة المغربية والتعبير عن معاناتها أصدق ما يكون التعبير، مع الابتعاد عن الغلو والتطرف.

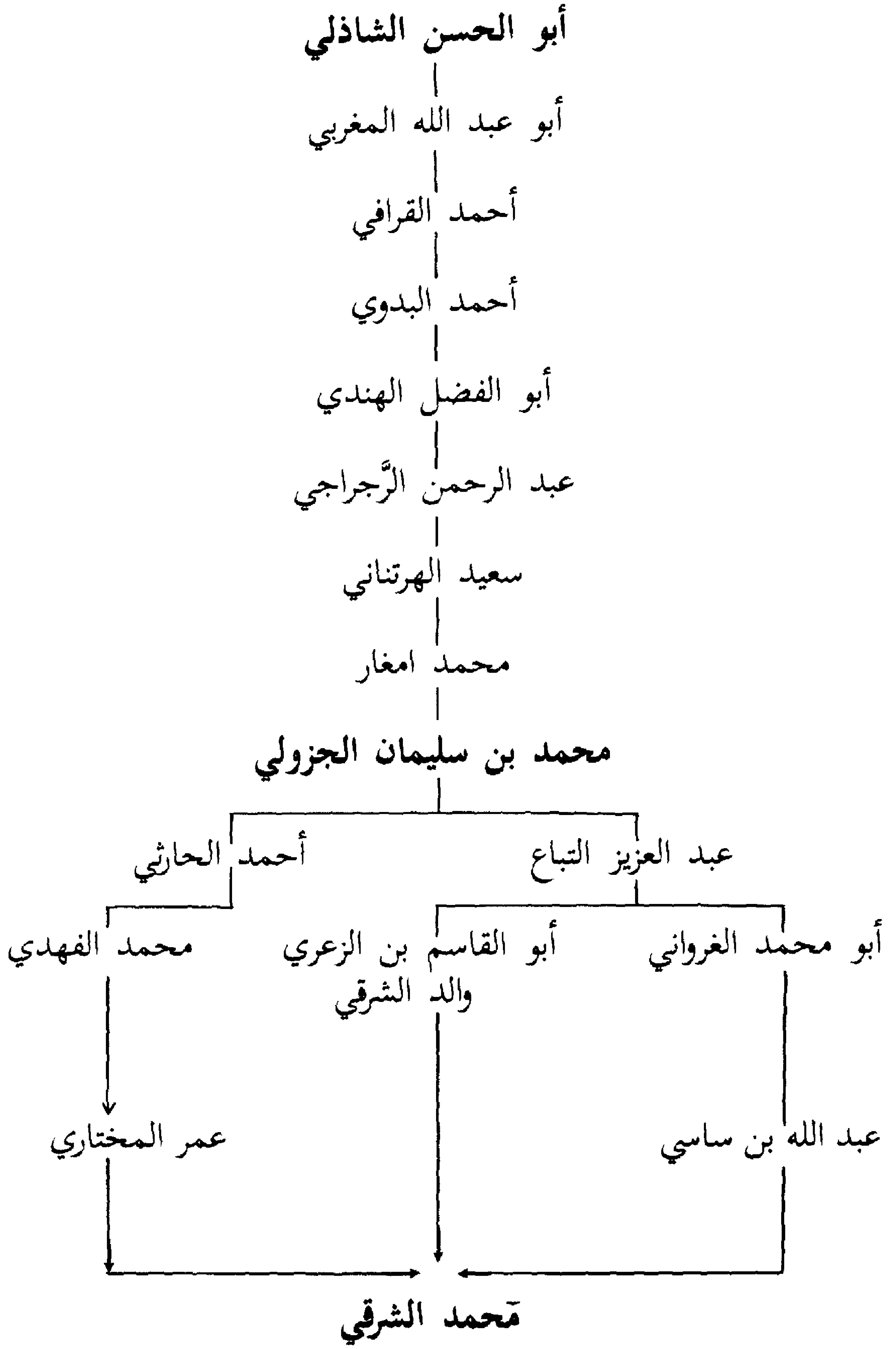
---

(85) العروسي : المرقى، ص 41.

(86) المصدر السابق، ص 295.

(87) المصدر السابق، ص 106.

سند محمد الشرقي في الطريقة الجزولية الشاذلية



الفصل الثاني

○ ○ ○

تأسيس الزاوية

أولا : أين أسس زاويته الأولى ؟

ثانيا : تأسيس زاوية ابي الجعد.

ثالثا : اخلاء الزاوية إلى مكان قريب منها.

أولا : أين أسس زاويته الأولى ؟

اننا لا نكاد نعثر على الشيخ الذي أذن لمّحمد الشرقي في تأسيس زاويته كما جرت العادة عند المتصوفة؛ اذ أن المريد بعد أن يأخذ حظه من العلم الظاهر والباطن، ويصبح متمكنا من الطريق الذي اختاره وسلكه وأقبل عليه، بتوجيه ورعاية من شيخه، يأذن له هذا الاخير في اتخاذ زاوية له في منطقة معينة لمواصلة نشر تعاليم شيخه، وهداية الناس إلى الطريق، وهذا الاختيار والاذن لا يشمل كل المريدين، بل من ظهرت عليهم معالم الوصول والنبوغ، وتوفر لهم الاستعداد .. (1) ذلك أن صحبة المريد لشيخه تفضي إلى ذوبان كل الأسرار بينهما، على اعتبار أن شيخه في الطريق، بعد تطهيره وغسل ما في قلبه، يعيد بناءه الروحي الباطني وفق أسلوب خاص.

إلا أن كلا من الاذن، وتعيين مكان إقامة الزاوية، لم يكن في معظم الحالات عملا اعتباطيا وعفويا، ذلك أن بعض كبار شيوخ التصوف، كانوا فعلا على بينة من مختلف التطورات، وطنيا وجهويا .. فسواء أكان الذي اذن له بتأسيس زاويته أحد أشياخه أو والده، فان الذي يهم حقا هو الظروف المصاحبة لذلك.

---

(1) فبقيت في صحبة شيخي المذكور نحوا من ثمانية عشر عاما، وما فارقته بالمرسوم إلا عن أمره، اذ هو الذي وجهني لبلاد سجلماسة من غير اختيار قائلا لي : ان صلاحهم فيك، ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب مني لشيء من ذلك، وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع ..» هذا نموذج لما ذهبنا إليه اعلاه، مأخوذ من العلاقة بين أبي العباس أحمد بن عبد الله المعروف بأبي محلى، وشيخه سيدي محمد بن امبارك الزعري السالف الذكر.
ــ الافراني : النزهة، ص 202.

ان اختيار الشرقي لمنطقة دير تادلا لا يخلو من دلالة وبعد نظر، باعتبار ماضي أسرته العريق بها، القريب منه والبعيد، وهو ما تأكد فعلا في عهد والده، كما أن المنطقة باتت في بداية النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، وكأنها في شبه فراغ صوفي، بعد اختفاء كل من الشيخ سيدي علي بن ابراهيم وسيدي سعيد امسناو، ثم بعدهما بقليل الشيخ ابن القاسم. (2).

ولتأمين الاستمرار، كان أبو عبيد الله مّحمد الشرقي في موقع أكثر من غيره لملأ هذا الفراغ، في منطقة كانت وستظل من أهم مناطق المغرب حساسية باعتبارها همزة وصل بين مراكش وفاس، وأيضا منطقة اتصال بين سكان الجبال البرابرة، وسكان البسيط من العرب، أي أنها منطقة تكامل اقتصادي مشتركة بين نمطين من العيش، الرحل والمستقرين وأي اضطراب في علاقات ساكنيها يفضي إلى اضطراب خط المواصلات الرئيسي والحاسم بين العاصمتين. ولذلك لم يكن عبثا بناء القلاع والقصبات في منطقة الدير المقابلة لمرتفعات الأطلس، وإلى جوارها سلسلة من الزوايا.

لكن في أي منطقة بالضبط كان تأسيس زاوية الشرقي الأولى بالدير ؟

ان المصادر تتحدث على أنه كان في ابتداء امره قاطنا قرب ابيه بدير جبل تادلة من ناحية «أَزْرَارَقْ» ببلد ورديغة التي كان اسلافهم فيها هناك في ذلك الزمان .. (3).

معنى هذا أنه لم يستقر بزاوية أبيه على ضفة ام الربيع، ولا قريبا من المنطقة التي عاش فيها ودفن أجداده، لكنه ظل في مجال قبيلته ورديغة،

---

(2) لا نعرف بالضبط سنة وفاة أبي القاسم، إلا أن سياق الاحداث يجعلنا نفترض وفاته في العقد السادس من القرن 10هـ، على اعتبار أنه كان حيا عند تأسيس الشرقي لزاويته الأولى بالدير.

(3) العبدوني : اليتيمة، ص 139.

وانه اتخذ زاوية خاصة به في مكان جديد .. إحدى مميزاته الطوبوغرافية، انه يقع في منطقة شبيهة بمواقع زوايا أخرى قريبة مثل زاوية الصومعة وزاوية اقرض في المرتفعات الأولى المشرفة على السهل في إحدى مناطق «الفم» الغنية بعيونها ومياهها وأنواع المغروسات والنباتات .. مما يوضح ان اختيار موقع زاوية ما .. يخضع إلى جملة من الاعتبارات قد يكون من ضمنها ما توفره المنطقة من إمكانيات طبيعية وغيرها.

وإذ كان هذا الوصف ينطبق على عدة مواقع في منطقة الدير، فإن الأمر هنا يتعلق — حسب المصادر — بناحية «ازرارق» دون غيرها.

لقد أورد صاحب المرآة، هذا الاسم المكاني مرتبطا بشخصية صوفية مشهورة خلال القرن 10هـ/16م، وهو الشيخ «محمد بن داوود الشاوي».

«من أولاد بوزيرى وهم من أولاد بوزرق من الشاوية دفين ازرارق من تادلا (4)»، وهو ما أكدته كتابات أخرى لاحقة .. (5) مما يفسر خطأ ما ذهب إليه ابن عسكر الذي يقول عنه : «وقبره مزارة عظيمة مشهورة ببلاد تامسنا.» (6)، وعلى هذا يصبح هنا ارتباط وتطابق بين منطقة تأسيس زاوية الشرقي الأولى، وبين المنطقة التي استقر بها قبله ابن داوود إلى أن توفي ودفن بها، بعد أن هاجر إليها من بلاد الشاوية.

إن اختيار محمد الشرقي لهذا المكان دون سواه من مناطق الدير، يرجع إلى توفره على شروط وإمكانيات لم تتوفر في غيره من الأماكن المشابهة، ذلك أن الشيخ أمسناو توفي بالصومعة دون أن يخلف ولدا، إلا أن المصادر تتحدث عن وجود شخصية علمية وصوفية حلت محله ونعني

---

(4) الفاسي م : المرآة، الورقة 147/ب، 148/أ.

(5) العروسي : المرقى، 45 — 47.

(6) ابن عسكر : الدوحة، ص 95.

بها : الشيخ أحمد بن أبي القاسم الصومعي (7). كما أن أبناء سيدي على بن ابراهيم دفين «اقرض» توارثوا نفوذ أبيهم في المنطقة (8) في حين لم يرد ذكر لخلف ابن داوود الشاوي في المنطقة بعد وفاته حوالي 940هـ. وبذلك توفر منطقة «ازرارق» فرصا تنعدم في غيرها لاقامة زاوية الشرقي بالدير.

ويفترض «ايكلمان» — اعتمادا على رواية شفوية — ان قرية «تَاكَزِيرَتْ» الحالية كانت هي موطن زاويته الاولى .. (9) وهذا الموقع الجغرافي له نفس المواصفات والمعطيات الطبيعية لمنطقة «ازرارق»، كما هو الشأن في كل من «فشتالة» (10) و «فم العنصر» (11) .. فلماذا لا تكون إحدى هذه المناطق أو غيرها ؟ وهو ما لم نجد له تأكيدا في المصادر التي توفرت لدينا، كما لم تؤكده المعاينة الميدانية.

ومما يزيد من تشبتنا بالافتراض الأول، هو قيام مدشر صغير قريب من مدفن ابن داوود يحمل اسم «غرم لعلم» ومعناه قصبة العلم في المصمودية الصنهاجية، كما لاتزال إلى اليوم بقايا آثار مندرسة لقصبة يزعم سكان

(7) «هو الامام العارف الصوفي البعيدُ الصيت أبو العباس أحمد بن أبي القاسم صاحب زاوية الصومعة بتادلا، واحد المكثرين من التصنيف، وجمع الكتب. لقي الكثير من أصحاب الشيخ التباع، واعتمد الشيخ أبا الحسن على ابن ابراهيم دفين اقرض بتادلا ..». توفي عام 1013هـ/1604م.
— عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات — فاس. ج 2، ص 116.

(8) أشار اليوسي إلى أحد حفدته وهو الصالح سيدي الصغير بن المنيار المعاصر لمحمد بن أبي بكر الدلائي.
— الحسن بن مسعود اليوسي : المحاضرات، اعدها للطبع ذ. محمد حجي الرباط. ص 135.

(9) Eickelman; Moroccan Islam, ... p : 37.

(10)، (11) «فشتالة» «وفم العنصر» من القرى الصغيرة بدير تادلا، شمال شرق مدينة بني ملال.

الناحية أنها من عهد المولى إسماعيل العلوي، والتي لا يستبعد أن تكون قد بنيت على انقاض قصبة أخرى، ترجع إلى زمن سابق اشتهرت بما قام حولها من نشاط ديني وعلمي في زاوية ابن داوود في البداية، ثم في زاوية الشرقي القريبة منها بعد ذلك (12).

وبذلك تتوافق المعطيات الجغرافية مع الاشارات التاريخية والطوبونيمية فيما يخص تحديد مكان وموقع الزاوية الأولى التي أنشأها محمد الشرقي.

أما عن تاريخ تأسيسها، فمن المرجح أن يكون في بداية الستينات من القرن 10هـ/16م، أي ما بين 960هـ و 964هـ، وإلى هذا التاريخ ترجع المصادر أول اتصال للشرقي بالسلطات السياسية السعدية القائمة في عهد السلطان محمد الشيخ (13) (المتوفى 964هـ/1557) وهذه الزاوية الأولى تقع على الطريق الذي كان يسلكه أبو بكر الدلائي، اثناء تردده على شيخه القسطلي بمراكش (14) .. كما أن هذا التأسيس يوافق بلوغ الشرقي الثلاثين من عمره أو تجاوزها بقليل في آخر حياة والده.

ويظهر أن استقرار محمد الشرقي في هذه المنطقة، لم يخل من عقبات ومصاعب، الشيء الذي يشرح مدى الحساسية التي تطرحها إقامة زاوية جديدة في مجال نفوذ زاوية اخرى أو قريبة منها .. ذلك أنه لما اشتهر حاله «غار منه بعض ابناء الصالحين من أهل ذلك الجبل فغدا يقول للواردين عليه : اذا كان ذلك السيد يخدم الزاوية حقا ويقيمها صدقا،

---

(12) يسكن ناحية «عرم العلم» حاليا قبيلة «ايت ويرة» من برابرة صنهاجة وتدخل هذه المنطقة بدورها في مجال نفوذ الزاوية الشرقاوية، اذ يحج العديد من سكانها سنويا إلى أبي الجعد. وقد أكد غير واحد منهم، ان العديد من سكان الناحية يحلقون لأطفالهم عند بلوغهم الأربعين يوما في ضريح الشيخ الشرقي.

(13) العبدوني : اليتيمة، ص 97.

(14) العروسي : المرقى، 293.

يقيمها في بلد القفار والصحاري، لا في بلد السواقي والماء الجاري .. (15)» دون الافصاح عن هذه الشخصية، والتي لا نظن أنها تخرج عن إطار أهم الزوايا في المنطقة .. ومما يقوي هذا الاعتقاد ما أشارت إليه المصادر من علاقات الجفاء بين الشرقي وأبي بكر الدلائي، بل أن أحمد بن أبي القاسم الصومعي، الذي كان يقرأ مع الشرقي في الصومعة، «انهما لما كبرا وصار كل واحد منهما بزاويته في بلاده اختلفت أحوالهما، وصار كل واحد منهما ينكر حال صاحبه، وكانا على طرفي نقيض .. (16)».

لاشك أن الأحداث التي رافقت محاولة التأسيس الأولى هاته، توضح على الأقل شيئين مهمين :

1 ــ رغبة الشيخ الشرقي في تأسيس زاويته في منطقة الدير؛ حيث تتوفر إمكانيات اقتصادية وحمائية أكثر من السهل، في وقت أصبحت فيه فرصة استقطاب نفوذ صلحاء المنطقة أكثر ملائمة .. وهذا الطموح لا يستبعد أن تكون وراءه تشجيعات رسمية في محاولة لخلق قطب تصوف جهوي في المنطقة الوسطى من البلاد، وان هذه المحاولة قد عورضت كما عورضت سياسة محمد الشيخ السعدي ... إلا أن أصداء هذا الحدث سنراها تتردد باستمرار في تاريخ الزاوية اللاحق، اذ سنلاحظ نوعا من العلاقات الغير الطيبة، وأحيانا العدائية بين صلحاء دير الجبل من جهة وصلحاء زاوية أبي الجعد من جهة اخرى.

2 ــ ان الصراع الذي نتج عن هذا الاختيار الأول لمقر الزاوية، هو وان كان يظهر واقعية التصوف المغربي، فإنه في نفس الوقت يدفعنا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب الاقتصادي في تكوين الزوايا الصوفية

---

(15) العبدوني : اليتيمة، ص 139.

(16) العروسي : المرقى، ص 53.

بالمغرب، والتي اشتهرت من جملة ما اشتهرت به الكرم الوافر (اطعام الطعام)، وتأمين حاجيات العديد من زوارها وروادها وخدامها وأطرها، وهو أمر لا يناقض ولا ينقص من دورها الديني ان لم يكن يكمله ويؤمنه. وتتأكد هذه الملاحظة عندما نقارن بين هذا الموقع الذي اختاره الشرقي والمكان الذي استقر به اجداده في سهول تادلا العليا، حيث تشح الطبيعة وتقسو خاصة في الفترات المناخية العصيبة .. مما يدفعنا إلى التساؤل عن دلالات هذا الخط الذي يصل بين اضرحة ومزارات اجداده، انطلاقا من حدود الشاوية المتاخمة لورديغة في اتجاه جبل تادلا. هل يحمل دلالات نزوح قلبي من مناطق رعوية غير آمنة في حياتها ولا في معاشها، نحو مناطق أكثر طمأنينة .. ويقوي هذا الافتراض، الصيغة التي عبر بها كتاب ومؤرخو الزاوية عن هذا الوطن.

«ان أكثر بلاد الله أولياء تادلة في الغالب، ان الأولياء يفرون إليها من أوطانهم كما تفر الابل إلى بلد الرعي ..» (17).

غير أن أبا عبيد الله الشرقي كان له فيها رأي آخر، وهو يستعد لمغادرتها مكرها، قائلا لأصحابه :

«هذه البلاد، لا يسوغ لنا فيها مقام، وحال أهلها الفاس في الطين، والعيد بالدين، فمن نظر إليها يقول : امورها ميسرة، ومن نظر إلى أرزاقها يجدها معسرة، واني راحل ان شاء الله، إلى بلد أمورها في الظاهر معسرة وأرزاقها ميسرة» (18).

ثانيا : تأسيس زاوية أبي الجعد (19).

ان الدراسات الجغرافية والمعاينة الميدانية، تتوافق والوصف الذي

(17) العبدوني : اليتيمة، ص 136.

(18) المصدر السابق. ص 140.

(19) نعني بزاوية أبي الجعد هنا، زاوية ابي الجعد القديم، التي تبعد عن مدينة ابي الجعد الحالية بحوالي 1،5 كلم من جهة الغرب وتعرف أيضا باسم «رجال الميعاد».

وصف به محمد الشرقي منطقة أبي الجعد «بلد امورها في الظاهر معسرة ..»، اذ أن منطقة أبي الجعد، تمثل القسم الذي تبرز فيه القشرة الكلسية، أو تقع قريبا من السطح، تاركة تربة حمراء رقيقة قليلة الخصوبة، في شكل هضاب ذات محدبات خفيفة الانحدار تقطعها شبكة مائية تتكون من روافد موسمية لأم الربيع، يعتبر وادي أبي الجعد أكثرها جفافا وجدبا، بسبب قارية المناخ الذي يتميز بالحرارة المرتفعة صيفا وضعف التساقطات وعدم انتظامها شتاء، مما يفسر صعوبة قيام نشاط زراعي قار، ويعطي للرعي والانتجاع أهمية كبرى.

ويتضح لنا، من خلال القاء نظرة سريعة على خريطة الصلاح بالمنطقة، ان معظم الصلحاء قد استقروا بجوار الأودية خاصة حول وادي أم الربيع وعند منابع الأنهار والعيون بالدير (*) .. كما أن أجداد الشرقي قد اتخذوا كمقر لهم جوانب أودية صغيرة في منطقة تادلا العليا، وهي وان كانت أقل خصوبة وأشح ماء، إلا أنها أكثر حظا من منخفض أبي الجعد. «ونزل في الوطا بوادي أبي الجعد في الصحاري، فوجده خاليا لا ملك فيه لأحد إلا للملك المعبود، وعمارته الذياب والوحوش والأسد» (20).

ومما يزيد من أهمية هذه المعلومات، أن أسماء أودية المنطقة في معظمها تحمل اسماء الحيوانات السالفة الذكر، قبل أن يحمل بعضها أسماء بعض الصلحاء، مثل : وادي لزم (وادي الاسد)، ووادي أبي الجعد (الجعد لقب من القاب الذئب) مما يفسر فراغ المنطقة بشريا وعمرانيا، وانها كانت مجالا لتردد الرعاة مع قطعانهم أو منطقة مرور ليس إلا.

ان هذا الاطار الطبيعي الهادىء والموحش في آن واحد، أغرى بعض الكتاب بإعطاء اختيار أبي عبيد الله الشرقي أبعادا رومنسية .. (21).

---

(20) العبدوني : اليتيمة، ص 140.

(21) Cimetière; op.cit. p : 279.

(*) انظر خريطة تادلا البشرية والدينية (ق 10هـ/16م). ص : 55.

ومنخفض أبي الجعد بالاضافة إلى ما سبق، يكاد يكون هو ما تبقى من الأودية شمال أم الربيع، والتي لا يقوم بها ضريح صالح من الصلحاء (22).

وان تفحصنا لخريطة المسالك والطرق التي عُرفت واشتهرت خلال ق 10هـ/16م، تجعلنا نتساءل عن العلاقة بين اختيار موقع الزاوية الجديد، وبين مرور خط تجاري ثانوي متفرع عن الطريق الرئيسي بين مراكش وفاس عبر تادلا، عند نقطة مدينة «تفزة» (23) حيث يصعد أحدهما ـــ وهو الرئيسي ـــ مخترقا المرتفعات الأطلسية مرورا ب «ادخسان» (خنيفرة الحالية) نحو فاس، بينما المسلك الاخر ينحرف قليلا نحو الغرب، ليمر قريبا من منطقة أبي الجعد، فمعدن «عوام» ليلتحق بفاس بعد أن يمر جنوب موقع مكناسة الحالية (24).

وإذا كان هذا الخط يعتبر ثانويا، واحتياطيا، فإن أهميته تزداد إبان فترات الاضطراب والفتن السياسية، بل إن هذا الخط أصبح فيما بعد يمثل أقرب مسافة بين تادلا ومكناس عاصمة المولى اسماعيل.

وتشير الرواية الشفوية إلى أن أقدم حي في أبي الجعد الحالي هو حي «لَقصر» قريبا من ضريح ابي عبيد الله الشرقي .. والذي لا يستبعد أن يكون نقطة استراحة مرحلية أشبه بالنقطة التي توقف عندها الرحالة

---

(22) يعتبر واد «تاحزريت» أقرب الانهار إلى ابى الجعد، كما يحمل اسم «واد سيدي السايح» .. ويقال أن هذا الولي قد سبق الشرقي إلى المنطقة بحوالي 40 سنة. (رواية شفوية).

(23) تفزة حاضرة اقليم تادلا قبل بناء قصبة تادلا الحالية. ويرجح (ماسينيون) انها كانت مبنية في نفس موقع مدينة تادلا الحالية (انظر خريطة تادلا) ص 55

(24) Massignon (L); Le Maroc dans les premières années du 16è S, p : 110, carte, p : 105.
راجع الخريطة السالفة.

«دوفوكو» وهي قصر بني زمور، اثناء عبوره للطريق بين مكناس وأبي الجعد أواخر القرن 19، حين كانت «السيبا» ضاربة أطنابها (25).

وقد أدى اكتشاف أحد كنوز العملة، قريبا من أبي الجعد إلى زيادة هذا الاحتمال سيما وأنه يحتوي على مجموعة من القطع النقدية المعدنية يرجع ضربها إلى فترات تاريخية مختلفة، يعود أقدمها إلى القرن 9هـ/15م (26).

أما «ايكلمان» فيجعل اختيار موقع أبي الجعد أكثر منطقية وواقعية، بسبب بعده عن غارات البربر من جهة وعن طريق «حركات» السلطان من جهة ثانية .. (27).

ومهما كانت ظروف هذا الاختيار، فقد اتخذه أبو عبد الله الشرقي مقرا له، «فقطن فيه، وسكنه واستقر فيه واستوطنه، وحفر فيه بير الله ..» (28)، وشرع في عمليات الاستيطان، وما يستلزم ذلك من حفر للأبار، وإقامة البنايات الخاصة بالمسجد والزاوية، ومسكن الشيخ وأسرته، والوافدين عليه، وهو عمل في حد ذاته عمل على خلق نواة عمرانية في وسط عالم تغلب عليه حياة التنقل وعدم الاستقرار، وتتابعت عمليات البناء، وتوسعت تبعا لتزايد أهمية الزاوية واتساع نشاطاتها وعلاقاتها ؛ فتحولت منطقة أبي الجعد من مجال فارغ مغمور إلى معلم من المعالم المشهورة بمنطقة تادلا وخارجها.

«.. واتته من كل بلد الطوائف والركبان، من العرب والبربر والسوس

---

(25) De Foucauld (ch); Reconnaissance au Maroc, Paris; 1939, p : 119.

(26) Deverdun (G); Le trésor de Boujad. Hesp.T. (1958); vot : xlv, pp : 291-293.

(27) وهذا يتناقض كلية مع مكانة الزاوية وقداستها بالنسبة للقبائل .. في حين أن موقع ابى الجعد لا يعتبر بعيدا عن الطريق السلطاني عكس زوايا أخرى في أقصى البلاد أو في عمق الجبال. Eickelman; (1976), p : 33, 34

(28) العبدوني : اليتيمة، ص 140.

الاقصا، وجميع الجهات، حتى عمرت ببركته تلك البلد .. وولد فيها جملة من الأولاد .. وغاظ بسكناه الوشاة والحساد .. (29)

ان شهرة تمحمد الشرقي خلال مدة إقامته بزاويته الثانية (بأبي الجعد) لا ينازع فيها أحد من معاصريه، بما في ذلك الخصوم، بل ان مستوى هؤلاء الخصوم يؤكد ما ذهبنا إليه .. وتقترن هذه الشهرة بفترة حكم أعظم ملوك الدولة السعدية . محمد الشيخ وعبد الله الغالب وأحمد المنصور الذهبي. ويرجع ذلك إلى زيادة أهمية ودور الزاوية في عدة مجالات .. اذ اخذت تستقطب شيئا فشيئا نشاط ونفوذ الزوايا المحلية .. وبذلك طغت شهرة «بلد الصحاري» على «بلد السواقي»، وان بلدا كان يظهر معسرا، أصبحت فيه الحياة ميسرة، بفضل ما حملته وفود الركبان، من هدايا وأنواع الزيارات، وما أضفاه عليه ملوك الدولة السعدية من توقير واحترام (30).

وقد شهدت هاته الزاوية أخصب حياة تمحمد الشرقي وزهرة عمره، اذ استمدت شهرتها واشعاعها من قوة وهمة مؤسسها، الذي كان لا يرضى أن يساميه أو يضاهيه أحد، وترددت أصداء هذه الشهرة في كل من العاصمتين مراكش وفاس، فقد بعث اليه السلطان أحمد المنصور وفدا لزيارته واختبار امره (31) .. في حين غار أبو المحاسن الفاسي (32) من هذه الشهرة، وتعجب لسرعة اكتسابها. «انه لا يزال يرد علينا خبر ما بسط

(29) المصدر السابق، ص 140 ـــ 141.

(30) المصدر السابق، ص 97.

(31) اليوسي : المحاضرات ص 79.
ـــ الافراني : الصفوة، ص 25.
ـــ العروسي : المرقى، ص 201.

(32) هو ابو المحاسن يوسف بن محمد بن يوسف الفهري الاندلسي القصري الفاسي، من كبار علماء ومتصوفة القرن 10هـ. استوطن فاس وأسس بها زاوية .. شارك في معركة وادي المخازن 986/1578.
توفي في 18 ربيع الأول 1013هـ/14 غشت 1604.

الله من النعم عليكم، وما جد من كثرة المنح حولكم، ولا يخفى عليكم اعزكم الله، ان الله تعالى وتقدس أجرى عادته ببديع حكمته أن يحمي الدنيا ويدفعها عمن استخلصه من عباده ..» (33) بل أن احد كبار علماء وفقهاء العصر، وهو الامام أحمد المنجور (34) لم يجد حرجا في أن يخاطبه في كتاب أرسله إليه :

«الحمد لله .. عالم الوقت، احتاج إلى ولي الوقت ..» (35) وبالرغم من هذه الشهرة التي عرفتها الزاوية في عهد مؤسسها محمد الشرقي، فإن هذا لم يمنعه من الرحيل والتنقل مرة اخرى .. غير أن ظروف هذا الانتقال ومداه، تختلف كل الاختلاف عن ظروف ومدى الانتقال الأول، الذي كان من الدير إلى أبي الجعد، إذ لا يعدو هذه المرة أن يكون تبديل مكان بمكان آخر في نفس منطقة أبي الجعد.

ثالثا : اخلاء الزاوية إلى مكان قريب منها.

يقول صاحب اليتيمة : «ثم عرض له بعد ذلك عارض رباني، ووارد رحماني، بالانتقال منه، فانتقل وفر إلى مولاه من سكناه، ورحل فنزل منه في هذا المحل السعيد الذي فيه سكن وبه استقر واستوطن (36)».

(33) الفاسي م : الممتع، ص 125، 126.
ـــ العروسي : المرقى، ص 55.

(34) هو ابو العباس أحمد بن علي بن عبد الله المنجور، ولد بفاس عام 928هـ ودرس بها على علماء أجلاء. وتخرج عليه كثير من العلماء والفقهاء، اشهرهم : ابن القاضي (المؤرخ) وأحمد بابا السوداني، وكذلك السلطان أحمد المنصور الذهبي .. الف عدة كتب منها «الفهرس» الذي نشره وحققه د. محمد حجي ضمن سلسلة الفهارس. توفي أحمد المنجور بفاس عام 995هـ ـــ 1587م.

(35) الأفراني : الصفوة، ص 26.
ـــ العروسي : المرقي، ص 212.

(36) العبدوني : اليتيمة، ص 141.



موقع زاوية أبي الجعد الأول قرب رجال الميعاد

لقد كان بالفعل آخر انتقال له، فلم تمض سنة أو سنتين على ذلك حتى فارق الحياة، عن عمر تجاوز الثمانين .. وهذا المحل الجديد الذي نزح إليه، يبعد بمسافة قليلة عن الزاوية الأصلية (حوالي 1،5 كلم) وهو المكان الذي يقع فيه أبو الجعد الحالي حيث يوجد ضريحه واضرحة جملة من أبنائه وحفدته .. في حين أن أبا الجعد القديم أصبح يحمل اسم «رجال الميعاد» نسبة إلى أبنائه الخمسة المدفونين هناك وسط مقبرة قديمة تحتوي عشرات القبور .. وغير بعيد عن هذه القباب، في المنخفض المجاور ؛ وجدت مع مطلع القرن الحالي بقايا آثار مندرسة (37)، لم يبق منها اليوم إلا الأساس، وبعض الخطوط المستقيمة من الأحجار المتراكمة، لإخلاء المجال لعمليات الاستغلال الزراعي، وقريبا منها بعض معالم تنظيم سقوى من نوع «الخطارات»، وكذلك بئر عتيقة لازالت تستعمل وتحمل اسم «بئر الجامع» (38)..

ان اسم البئر يمثل الاشارة الطوبونيمية الوحيدة المتبقية إلى جانب آثار تصميم عمراني ضاعت جل معالمه بسبب النشاط البشري المتعاقب وكذا الاهمال (39) .. مما يجعل المرء يتصور أنه حقا أمام صورة نابضة

---

(37) Cimetière; op.cit. p : 279, 281.

(38) تقول رواية شفوية : «انه من توضأ من ماء البئر (بئر الجامع) وصلى في الجامع القريب منه، حقق الله رجاءه ومبتغاه.»

(39) انظر حول هذا الرسم التوضيحي المرافق. ص : 87 وقد قمت بزيارات ميدانية متوالية لموقع ابي الجعد القديم، فتبينت مجموعة من المعالم والاثار المتبقية أهمها :
— بقايا آبار قديمة، ونظام للري من نوع الخطارات.
— بقايا سور أو جدران بنايات في الجهة الشمالية الغربية
— ركام أحجار في خطوط مستقيمة متوازية تقسم الحقل إلى مستطيلات طويلة، وتوافق هذه الخطوط في معظمها أساس البناء، بسبب تعذر اقتلاع احجاره بعد أن تهدم ما فوقه.
— أكد مستغل الحقل عدم قيامه بأي تصفيف للأحجار لكونها منغرسة في الأرض، وانه فقط مستغل للأرض وليس مالكا لها.

بالحياة والحركة، ولكنه سرعان ما يكتشف زيف أحلامه عندما يتلمس حوله وأمامه وتحت قدميه، ركام الأحجار المتدني جدا من الأرض والذي لا يكاد يرفع رأسه ليثبت وجوده، وانه قد وجد فعلا فيما قبل، من شدة ما تعرض له من تدمير، وما توالت عليه من عواد الزمن ...

فلماذا انتقل محمد الشرقي من محله هذا في وقت لم يعد فيه سنه، وربما حتى مرضه، يسمحان له بالانتقال والابتعاد أكثر ؟

واذا كانت تبريرات المصادر غامضة، فإن هذا لا يعني خلوها من كل ما يساعد على الوصول إلى الحقيقة، ان لم تكن كلها فبعضها .. خاصة اذا تم توظيف إشارات أخرى، واحداث تاريخية متزامنة مع هذا الحدث.

ان أول ما يستفاد من النص السابق، هو أن دافع النزوح والانتقال ليس عارضا بشريا ناتجا عن ظلم أو ضغط من سلطة أو من قوة منافسة، كما وقع له في السابق .. بل هو حادث رباني من جملة العوارض التي يختبر الله بها عباده الصالحين.

ويقترب هذا التبرير من مغزى أسطورة شعبية محلية شائعة (40) تجعل سبب الانتقال ؛ وفاة أحد أبناء الشرقي، وهو سيدي الحاج المكناسي المدفون ب «رجال الميعاد». فعندما اخبر الشيخ الشرقي زوجته «الخُلفية» بفقد فلذة كبدهما، لم تستطع صبرا ولم تفتر عن البكاء، مما دفع به إلى النزوح بها إلى مكان آخر غير بعيد عن مدفن الابن، لعله

= (انظر الرسم التوضيحي المرافق بالصفحة رقم : 87.

(40) نقل «ايكلمان» هذه الأسطورة مع أساطير اخرى بأسلوبها العامي الشعبي والمحلي في إطار مشروعه الانتروبولوجي ــ الاجتماعي لدراسة المعتقدات والتدين الشعبي بالمنطقة الوسطى والغربية من المغرب، دون أدنى التفات إلى ما يمكن أن تطرحه من معلومات تاريخية. انظر : Eickelman and Draioui Islamic myths..., in Hesp. T. vol. xiv, (1973); pp : 195-225.

يخفف عنها مضاضة وشدة الرزء، فكان ذلك سبب الانتقال إلى أبي الجعد الحالي.

إلا أن معاينة مكان دفن الأبناء الخمسة ومنهم الحاج المكناسي، بالاضافة إلى المقبرة الموجودة من حولهم، تجعلنا نستفيد الاهمية البشرية والتعميرية للزاوية القديمة (41)، كما تشهدنا أيضا على مستوى التخريب الذي تعرضت له فيما بعد، علما بأن هناك مقبرة صغيرة أكثر قربا من (الزاوية ــ الاثار) تحوي عدة مقابر وتحمل اسم «مقبرة سيدي الزعيمي» (انظر الرسم التوضيحي) والتي نرجح أنها المقبرة الطبيعية الأولى في حين نستبعد أن يكون حجم المقبرة الثانية (رجال الميعاد) ناتجا عن وفيات طبيعية تمت في مدة تناهز الأربعين سنة، وهي الفترة التي قضاها الشرقي في زاويته هاته، قبل أن ينتقل منها قبيل وفاته بقليل.

فهل كانت وفاة المكناسي والاسطورة التي صاغتها الذاكرة الشعبية الشفوية حولها، بأسلوب ينم عن حسرة متزايدة وشدة لوعة وكمد ؛ ما هي في الحقيقة إلا تعبير عن مأساة جماعية، اتخذت كرمز لها احد أبناء محمد الشرقي ؟

وعند استقصاء المصادر عن تاريخ وفاة الشرقي ومكانه، نجدها تجمع على أن الوفاة حدثت بعد الانتقال بسنة أو سنتين (توفي عام 1010هـ/ أي ان نزوحه تم خلال الفترة ما بين 1008هـ/1009هـ.

ولهذا التاريخ أهميته وظرفيته كما سنرى.

جاء في كتاب «*النزهة*»، في معرض حديثه عن وفاة *السلطان السعدي* أحمد المنصور الذهبي عام 1012هـ/1603م.

«وكانت وفاته بالوباء. قال الشيخ سيدي عبد الرحمن بن يعقوب السملالي : .. كان بالمغرب وباء استطال وطال من عام سبعة وألف إلى

(41) Cimetière (J); op.cit. p : 281.

عام ستة عشر وألف، وعم سهل المغرب وجباله حتى افنى أكثر الناس، ومات جمع من الأعيان، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور عام اثنى عشر وألف.» (42).

لاشك أن هذا النص وغيره من الاشارات السالفة يجعلنا نطمئن إلى أبعاد ومغزى ما ذهب إليه صاحب اليتيمة من أن سبب الانتقال وإخلاء الزاوية هو حقا «عارض رباني ودافع رحماني» يتمثل في وباء مستطير افنى العديد من سكان البلاد وخربها من اقصاها ألى أقصاها، وذهب بجملة من خيرة رجالات العصر (43)، من بينهم محمد الشرقي. واحمد المنصور الذهبي.

كما أن سياق الحادث وصياغته عند صاحب المرقى لا تخلو من دلالة (44) .. فقد ضاقت الزاوية بكثرة الاصابات وعدد المتوافدين والملتجئين إليها التماسا للعافية ودفعا للضرر، مما زاد من حدة المرض ووطأته، مما جعل عمليات الدفن تتحول من مقبرة «سيدي الزعمي» لبضع مئات الامتار إلى محل مقبرة «رجال الميعاد»، كحل وقائي أولي، أرغم بعده الشرقي على الانتقال أبعد من ذلك، مع ما تبقى من عشيرته وأفراد زاويته «فضرب بعصاه التي كان يتكيء عليها في محل قريب هنالك، وتفجرت عين ماء بأمر الله» (45) حملت اسم «عين الشيخ»

---

(42) الافراني : النزهة، ص 188.

(43) Rosenberger et Trikı; Famines et epidemıes au Maroc au 16è et 17è S; in Hesp.T. vol : xiv, (1973). pp : 157-174.

(44) جاء في المرقي : ص 54 «ويقال أن سبب انتقاله منه ان جواره لم يحسنوا الجورة مع الشيخ، فدعا عليه بالخلا والخراب، فكان الأمر كذلك .. فانتقل منه إلى ابي الجعد الذي به ضريحه الان وبقي به إلى أن توفي رحمة الله عليه وكانت وفاته ليلة أو محرم سنة عشر والف، وسنه اربع وثمانون سنة». ولاشك أن لكلمتي «الخلا والخراب» دلالتهما فيما ذهبنا إليه.

(45) عن الرواية الشفوية الشعبية العامية. نقلا عن ابناء الزاوية خاصة بواب الصريح.
— انظر أيضا : Eickelman (1973); op.cit. p : 204.

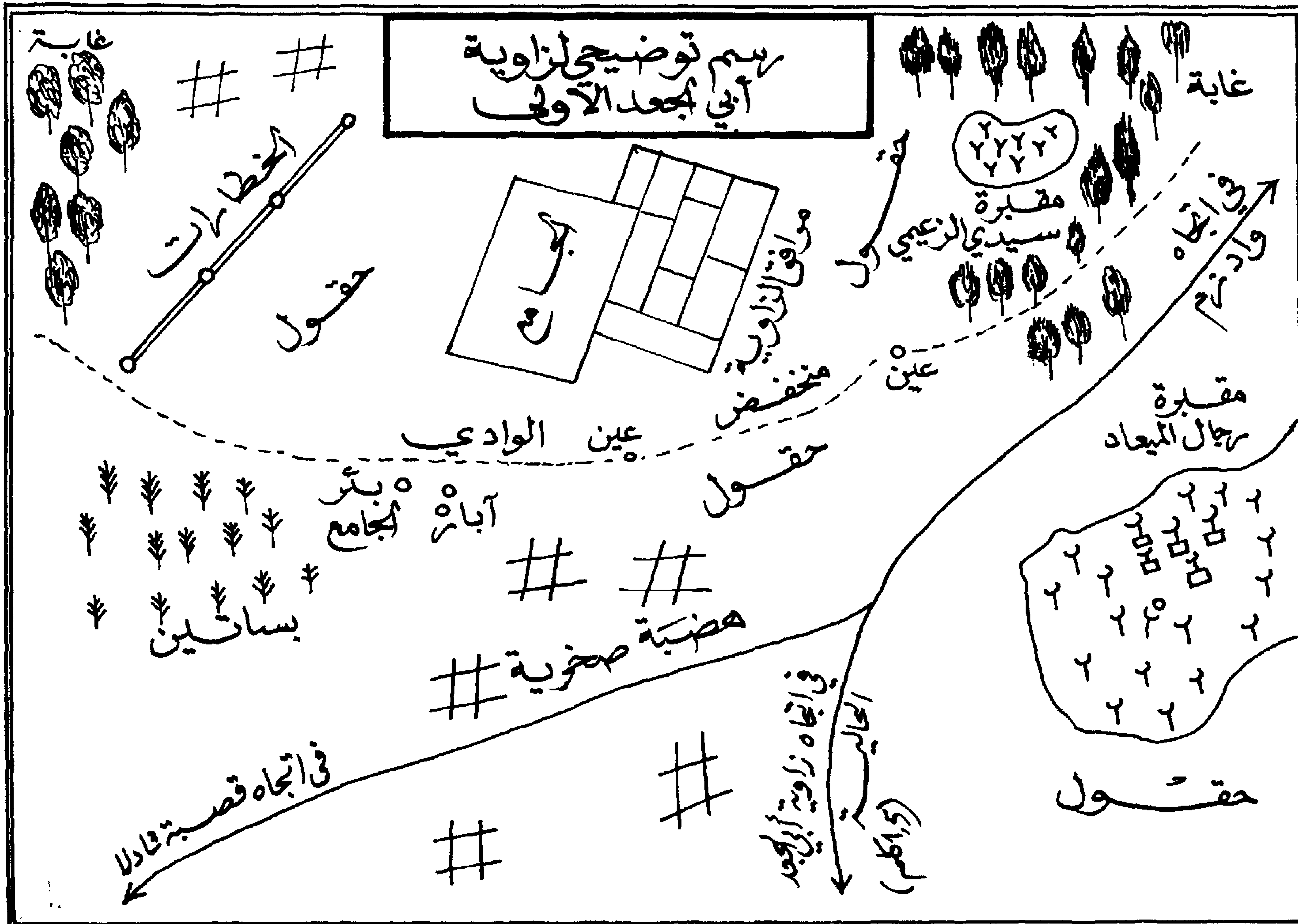
إلى اليوم، وقال :

«هذا المحل، انشاء الله، محل يمن وبركة، لعله يستقيم لنا فيه السكون بعد الحركة، وسماه أبو السعد .. ثم مكث .. ما يقرب من السنة وتوفى .. (46)»؛ متاثرا بعوارض شيخوخته من جهة وبالوباء الذي لم يقو على مقاومته ودفعه من جهة ثانية، ليتشكل من الحادثين معا، حتفه ونهاية أجله، واضعا بذلك حدا لتجربة طويلة وغنية، وفي نفس الوقت واضعا حجر الأساس، لقيام زاوية وقرية ابى الجعد الجديدة، والتي سيكون لابنائه وحفدته من بعده مهمة تتبيث دعائمها، وإقامة أركانها عمرانيا ودينيا وعلميا.

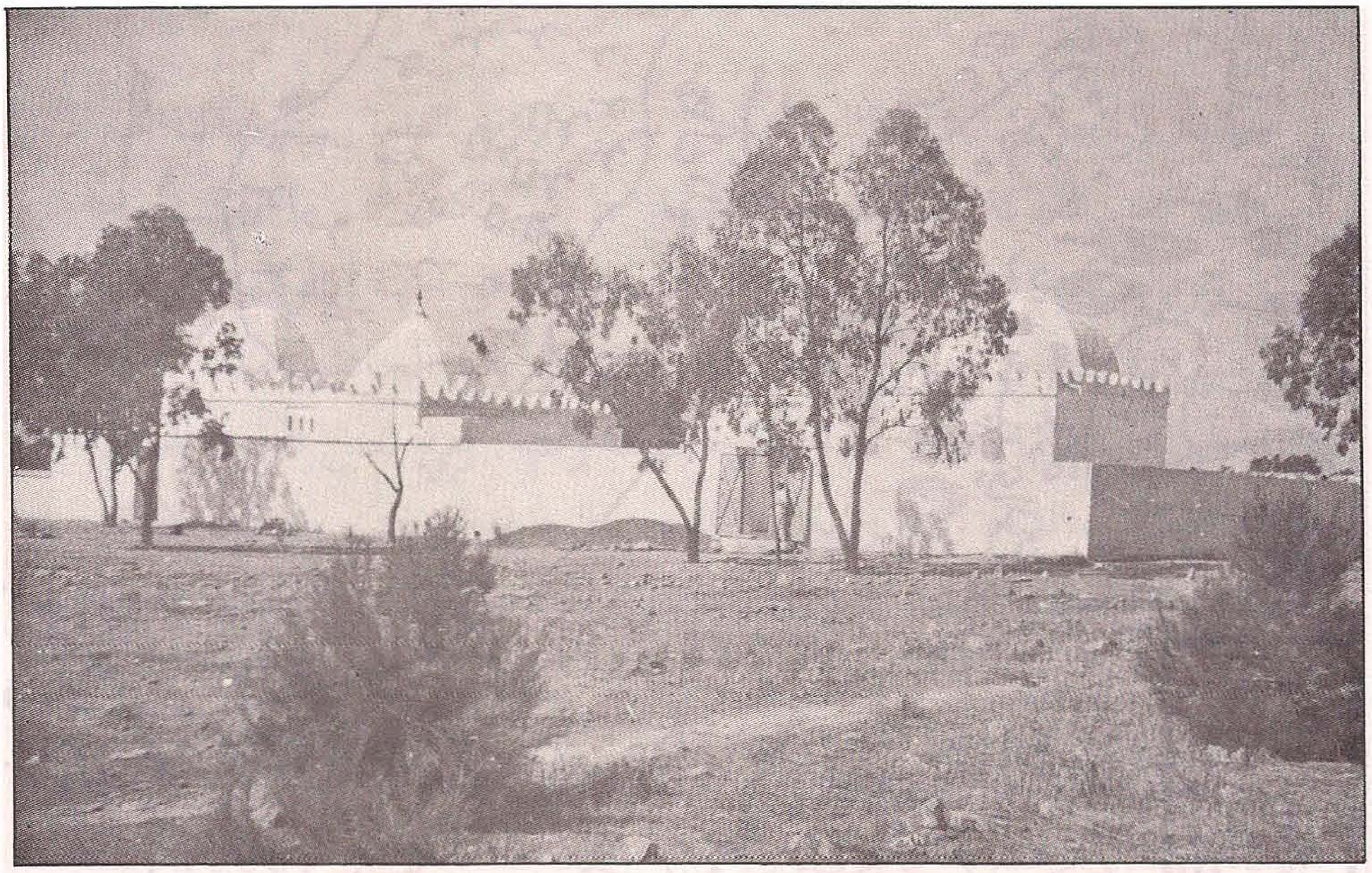
وبذلك يكون تأسيس زاوية أبي الجعد الثانية والحالية يعود إلى مطلع القرن الحادي عشر الهجري (17م) وبالضبط ما بين (1008 — 1009هـ/موافق 1599 — 1600م)، في حين كان تأسيس زاوية أبي الجعد الأولى يرجع إلى بداية النصف الثاني من القرن 10هـ/16م.

---

(46) العبدوني : اليتيمة، ص 141.



رسم توضيحي لزاوية
أبي الجعد الأولى
غابة
غابة
الخطارات
حقول
حقول
حقول
حقول
حقول
الجامع
مرافق الزاوية
مقبرة
سيدي الزعيمي
في اتجاه
واد أم
منخفض
عين
عين الوادي
مقبرة
رجال الميعاد
بئر
آبار
الجامع
بساتين
هضبة صخرية
في اتجاه قصبة تادلا
في اتجاه زاوية أبي الجعد
الحالية
(7 كلم)





«رجال الميعاد» المدفونين بمقبرة زاوية أبي الجعد الأولى. وهم : سيدي الغزواني، سيدي عبد السلام، سيدي الطنجي (الأعلى) وسيدي الحارثي، وسيدي المكناسي.

الباب الثاني

○ ○ ○

الدور الديني للزاوية

كان هدف ابي عبيد الله مّحمد الشرقي من تأسيس زاوية ابي الجعد، مد الاشعاع الديني والصوفي والعلمي إلى مناطق جديدة من البلاد، وفاء لتعاليم الطريقة الجزولية وسيرا على نهج شيوخها ..

وقد كتب لهذا الانجاز أن يستمر بعده لمئات السنين، بالرغم من بعض الكبوات والأزمات العابرة، التي لم تفت في عضد الخلف، الذي ظل يستمد من شخص مؤسس الزاوية القوة والعزيمة.

الدور الديني للزاوية

الفصل الأول :

- خلفاء ابي عبيد الله الشرقي.

الفصل الثاني :

- الطريقة الصوفية للزاوية.

الفصل الثالث :

- تربية المريدين

الفصل الرابع :

- علاقة الزاوية بالزوايا الاخرى.

الفصل الأول

○ ○ ○

خلفاء ابي عبيد الله الشرقي.

أولا : أبو عبد الله محمد المعطي بن عبد الخالق المتوفى 1092 = 1631.

ثانيا : أبو عبد الله محمد الصالح. المتوفى 1139 = 1727،26.

ثالثا : ابو عبد الله محمد المعطي بن محمد الصالح. المتوفى 1180 = 1766.

رابعا : أبو عبد الله محمد العربي بن محمد المعطي المتوفى 1234 = 1819.

خلفاء ابي عبيد الله الشرقي

عرفت زاوية ابي الجعد مباشرة بعد اختفاء مؤسسها محمد الشرقي في مطلع القرن 11هـ/17م، أكبر امتحان لها، ويتمثل في مشكل الوراثة والخلافة (1).

فقد أكد أبو عبيد الله الشرقي في حياته على ضرورة استمرار الزاوية في مهامها بعد وفاته بقوله :

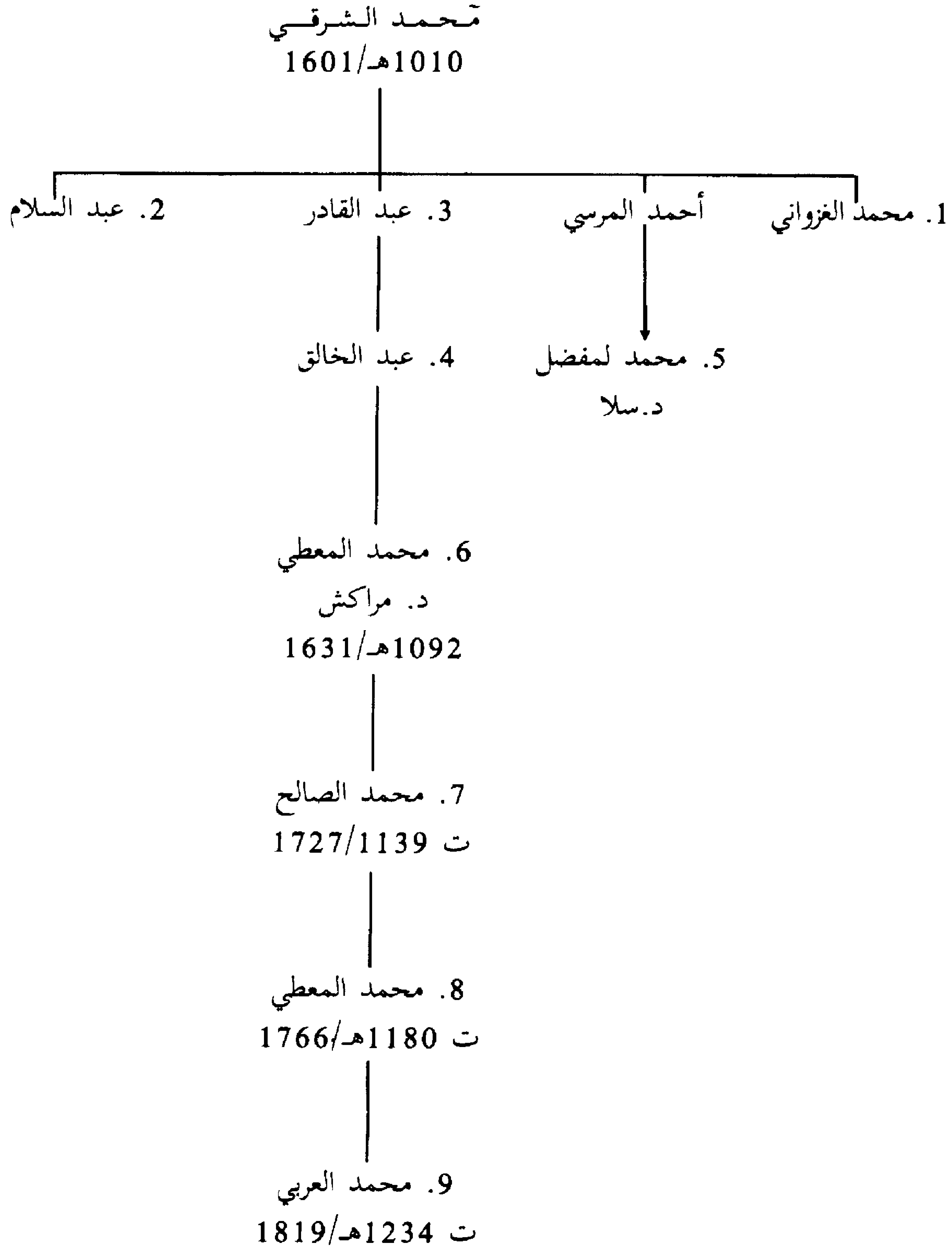
«لايزال اثنان من أولادي في داري، داعين إلى الله، ودالين عليه، إلى أن تقوم الساعة..» (2).

إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يأذن لأحد من أبنائه دون الاخر، أو يخص أحدهم بالأحقية والأسبقية دون اخوته، إذ أن معظمهم نال نصيبا كبيرا من العلم الظاهر والباطن، وتتلمذ على كبار شيوخ العصر، بحيث لا

(1) مثل هذا وقع عند وفاة الشيخ عبد العزيز التباع، اذ اختلف أخص أصحابه في من هو احق بوراثته (صُوفيا)، وهؤلاء هم : عبد الكريم الفلاح، علي بن إبراهيم، محمد بن داوود، رحال الكوش، سعيد ابن عبد المنعم، وأبو عبد الله الغزواني، وهذا الأخير واجههم بقوله : «أنا سلطانكم وصاحب سكتكم عندي تضرب ..»
— الفاسي : المرآة، الورقة 148/أ.
— العروسي : المرقى، ص : 113، 114.

(2) العروسي : المرقى، ص :261.
— العبدوني : اليتيمة، ص : 27.

خلفاء ابي عبيد الله الشرقي خلال القرنين 11، 17/12، 18



نجد إلا إشارات مبهمة وغامضة تمني الجميع، وتشحد هممهم، وتزكي في آن واحد، روح المنافسة بينهم.

فقد اجتمع عليه أولاده صبيحة يوم، «فنظروا إليه ورأوه في حالة لم يعهدوها من السرور .. فقال لهم : خوطبت فيكم البارحة»

قال صاحب المرقى : «هذا هو الذي تعني الصوفية بالاذن والمحادثة والمكالمة. (3).

وعلى ذلك بات واضحا أن الزاوية، ستواجه مشكل الوراثة والخلافة مباشرة بعد اختفاء شيخها الشرقي.

تمحور الصراع والتنافس داخل البيت الشرقاوي بين شخصيتين صوفيتين بارزتين من أبناء الشرقي، كانا يتمتعان بالتقدير والاحترام والنفوذ حتى قبل وفاة والدهما، واعنى بهما : ابا محمد الغزواني، وابا محمد عبد السلام. ولاشك أن والدهما أحس بشيء من طموحاتهما وتطلعاتهما فأقدم على ما يشبه القسمة بينهما لبعض من «سره وبركته».

«اما الغزواني، فاعطيته الشاقور، يعني أن لا يقدر أحد أن يترامى عليه أو يطوف بساحته .. وأما عبد السلام، فأعطيته الفخار، يريد بذلك كونه يطعم الطعام للزوار ..» (4).

ويبدو أن هذا الحل كان وقتيا ليس الا .. اذ سرعان ما ادعى الشيخ عبد السلام بعد اختفاء والده مباشرة، أنه أحق بالخلافة والوراثة، وهو ما أنكره عليه الشيخ الغزواني، متهما إياه، بأن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد أحلام، كما عبرت عن ذلك المحاورة التالية بالكلام الملحون (5) :

أَدَّاعِ بالْمعَالجَا من جَاهْ عْليلْ   صِفْ قَلب لَا يصيبْ الّا بادْوَاهْ

(3) العروسي : المرقى، ص : 263.

(4) العروسي : المرقى، ص : 262.

(5) المصدر السابق، ص : 281، 181.

اعْشابْ الطّب كمْ هُمَا يامَسكِينْ الْوَارَثْ فِي مْقَامْ سِيدِي مَارِنَاهْ
فأجابه سيدي عبد السلام قائلا :
إِذَا قُلْتْ نَاقْتِي مَا تَلْقَحْشْ حَتَّى التَّلْبْ اَلكْبِيرْ عَادَمْ تَلْقَاحْ
غِيرْ انْتَ بَبْصِيرْتَكْ مَا شُفْتِيش بِيتَكْ مَغْلُوقْ وَلَا وْجَدْتِ مَفْتَاحْ
اَعْمَى مَنْ لَا يْشُوفْ الَانْوَارْ تْلُوحْ

فرد عليه سيدي الغزواني :
آعْمَى مَنْ لَايْشُوفْ مَنْ مَدْرَارْ رْقِيقْ لَاشْ يقُولْ أنَا اوْرِيثْ أهْلْ ازْمَانِ
لَاشْ ايقُولْ بِدِي مَفْتَاحْ سَبْعَ اطْبَاقْ لَاشْ ايقُولْ أنَا مْخَمَّرْ رُوحَانِ
آبْعَيْنِي شَفْتَكْ فَى الرْدِيفْ الْوَرَّانِي

وتؤكد المصادر على أن النزاع قد حسم لصالح الغزواني، بعد أن توسط في الأمر عدة شخصيات صوفية؛ خاصة سيدي محمد بن سليمان الشاوي أحد كبار المتتلمذين والمتخرجين على يد محمد الشرقي (6).

ويؤكد هذا التفوق ما هو شائع حول شخص الغزواني من حكايات وأساطير وكرامات تنعته أحيانا بالبطولة الأسطورية الخارقة (7)، وأخرى بأنه تمكن دون أخيه من فك رموز أسرار كتاب تركه والده عند أحد اخص اصحابه (8)

وان استقراء لمصادر الزاوية، يجعلنا نعثر على بعض المبررات الموضوعية التي أعطت للغزواني أحقية الخلافة.

ـــ ان الغزواني بعد أن تتلمذ لوالده بزاويته، رحل إلى فاس ليأخذ على أحد كبار علمائها وفقهائها وهو الامام أحمد المنجور (9).

---

(6) المصدر السابق، ص : 282، 301.

(7) Eickelman and Draioui, Islamic myths..., H.T, (1973), pp : 206-215.

(8) العروسي : المرقى، ص : 301.

(9) المصدر السابق، ص : 281.

ـــ وبعد ان اتم تكوينه في علم الظاهر (علم الشريعة)، رجع ليأخذ طريقة القوم على يد والده، إلا أن ظروفا ما .. أحدثت ما يشبه الوحشة أو النفور بين الأب الشيخ والابن السالك. «وكأنه لم يكتف بوالده وأراد أن يجمع بينه وبين غيره ..» (10)، فراح يطوف على صلحاء الوقت، إلا أنه كلما وصل إلى احدهم امتنع من ذلك ورده بقوله : «حاجتك عند أبيك (11)»، ومن هؤلاء : سيدي عبد الله بن حسون دفين سلا، مما جعله يقفل راجعا إلى والده، طالبا عفوه وصفحه، ظمئا إلى المنبع الأصيل الفياض، مخاطبا والده (12).

لَوْ آجْبَرْتْ مَنْ يَسْقِينِي هَيَا حْنِينِي   مَارَاحْ قَلْبِي مَيَّتْ يَبَابَــا
مَنْ عَلْتِي تَبْرِينِي هَيَا حْنِينِي   كَلْبِ عْلِيكْ إِهَيَّتْ يَبَابَا

فلبى والده وشيخه نداءه مرحبا بعودته ومشفقا لحاله :

آلْغَابَا الْعَطْشَانَا صَبْحَتْ مْعَانَا   صَابَتْ الْغْدِيرَ امْلَانَا يَبَابَا
شَرْبَتْ مْيَــاهْ صَفْيَانَــــا   رَبِّ اعْطَانَا والْخَيْرْ مَنْهَا جَانَا يَبَابَا

ان المعلومات حول وضع الزاوية في عهد هذه الشخصية تكاد تكون منعدمة، بل ان وفاته بعد مدة قصيرة وما يمكن أن يكون قد ترتب عن ذلك من نزاعات داخلية، وكذا الظل الثقيل الذي أسدله على الناحية سطوع زاوية «دلاء» المجاورة، خلال الثلث الأول من القرن 11هـ/17م .. كلها عناصر ساهمت بشكل كبير في خفوت ذكر زاوية ابي الجعد ولو إلى حين.

استأنفت الزاوية نشاطها من جديد وبشكل أكثر تنظيما ووضوحا، بعد

(10) العروسي : المرقي، ص : 281.

(11) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(12) المصدر السابق، نفس الصفحة.

فترة من الغموض والاضطراب خلال معضم القرن 11هـ، ليستمر دورها بعد ذلك على الأقل حتى مطلع القرن الحالي.

تعاقب على تسيير شؤون الزاوية خلال هذه المدة عدد من الشيوخ ينحدر جميعهم من نسل ابي محمد عبد القادر أحد أبناء الشرقي، ويظهر أن أهمية هذا الابن الدينية تزايدت بعد اختفاء الاخوة الاخرين، بدليل وجود ضريحه ملاصقا لضريح والده دون سائر اخوته .. إلا أن ابنه عبد الخالق، من بعده اضطر لمغادرة الزاوية في اتجاه مراكش، واتخاذها كمقر لاقامته، وهنا أحيط بكل مظاهر الاحترام والرعاية من طرف السلطان المولى اسماعيل (1082 ــ 1139هـ/1672 ــ 1727).

وتشير المصادر، إلى أنه كان من اغنياء القوم ووجهائهم، دون الاشارة ان كان له باع في العلم أو تردد على مجالسه. وهذا لم يمنع عبد الخالق من الاهتمام بتعليم وتكوين ابنه محمد المعطي، الذي يعتبر بحق نقطة البداية في تحول تاريخ الزاوية في محاولة لاعادة تجديدها وبعث معالمها، كما كانت في عهد مؤسسها.

أولا : أبو عبد الله محمد المعطي (13) : (المتوفى 1092هـ/ 1681م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق بن عبد القادر بن الشيخ الشرقي والملقب ب «المعطى»، لا تعرف سنة ميلاده، كان مستقرا مع

(13) ترجم له كل من :
ــ العروسي : المرقي، ص : 263، 279.
ــ العبدوني : اليتيمة، ص : 83، 93.
ــ القاذري : النشر (المحقق) ج II، ص : 301 وقد جعل وفاته ودفنه بأبي الجعد ؛ وهذا غير صحيح.
ــ محمد بن الموقت : السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية. (فاس)، ج 1، ص : 141 ــ 143ــ.

والده بمراكش بعد أن هاجر إليها .. وقد وفر له وسطه العائلي كل الأسباب للانصراف إلى العلوم والتردد على مجالس كبار علماء وأشياخ العاصمة مراكش، أمثال سيدي ابى بكر السكتاني والقاضي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني .. كما رحل إلى الشيخ مولاي عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي (14) الذي قال عنه : «صحبته سنتين غير ربع ولو طالت صحبتي إياه لرجعت من عنده بعلم عظيم».

ومن أشهر أشياخه أيضا، سيدي محمد بن سعيد المرغتي السوسي (15) الذي أجازه فيما اخذ عنه، ووقعت بينهما مكاتبات في مسائل التصوف، واما شيخه الذي اعتمد عليه وانتسب إليه فهو الفقيه الصوفي الكبير سيدي محمد بن ابراهيم التاملي (16)، فقد كان محمد المعطي من أخص أصحابه وأجلهم عنده حتى أن سيدي احمد العطار الاندلسي، كان يقول :

«سيدي محمد المعطي صُبغت أنا و هو في يوم واحد، فجاءت

= — عباس بن إبراهيم المراكشي : الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام (فاس)، ج 4، ص : 328.

(14) ذكره محمد بن أبي بكر الدلائي ضمن حفاظ المغرب الثلاثة في زمانه، إلى جانب أحمد بن يوسف الفاسي، وأحمد المقري. توفي عام 1044هـ/1634م ودفن في بلاد مدغرة ببلاد سحلماسة.

(15) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغتي، اشتهر بمؤلفه «المقنع» في التوقيت، إلى جانب مشاركته في سائر العلوم. وقد عمل إماما ومدرسا بجامع المواسين بمراكش كما انتقل إلى زاوية «دلاء» للتدريس بها، ومن أشهر الاخذين عليه العالم الحسن اليوسي. توفي بمراكش 1089هـ/78، 1679.

(16) قال عنه صاحب الاعلام : «كان عالما عارفا وليا مكاشفا..» تقلد امامة جامع الكتبيين وخطبته والتدريس به، وتتلمذ عليه عدد من العلماء والصلحاء وأمثال محمد المرغتي السوسي وأحمد العطار الاندلسي. لا تعرف سنة وفاته بالضبط، إلا أنه عاش واشتهر في النصف الثاني من القرن 11هـ. (الاعلام، ج 4، ص : 2، 6 و، ج 2، ص : 329.

صبغته انظر وأحسن من صبغتي» (17).

قضى محمد المعطي معظم حياته منتقلا بين عواصم البلاد للتردد على مجالسها العلمية، فقد رحل إلى فاس واتصل بالشيخ عبد القادر الفاسي (18) الذي سمع عليه التفسير والاحياء والحديث والتصوف وأوائل الكتب الستة واجازة في جميع ذلك .. ومنها رحل إلى رباط سلا حيث مكث بها حوالي سنتين، إلى أن زاره وفد من أتباع الزاوية يضم فقهاء ووجهاء من بلاد تادلا، طالبين منه الرجوع إلى وطنه وتعمير زاوية اجداده، شاكين إليه ما آلت إليه الأمور ببلادهم، فلم يجد بدا أمام إلحاحهم من العودة إلى زاوية ابي الجعد، صارفا معظم وقته إلى الاعتناء بشؤونها وتدبير أمورها وإحياء معالمها، دون أن تنقطع اتصالاته ومراسلاته مع أشياخه. وقبل وفاته ببضع سنوات نجده يرحل من جديد إلى مراكش، ويقيم بها مع أسرته إلى أن توفي ودفن بها في مقبرة «جنان العفو» خارج باب الدباغ، قرب شيخه التاملي عام 1092هـ/1681م ولاتزال إلى اليوم تنتصب على قبره قبة بيضاء وسط المقبرة المذكورة.

اشتهر محمد المعطي بزهده وكثرة تصدقه وسعة علمه وقد حاول أن يؤلف كتابا أسماه «الموائد السنية والاسانيد السنية» نقل صاحب «الروض» ورقات منه، إلا أنه لم يكتب لمؤلفه أن يتمه. تتلمذ عليه بمراكش، محمد بن محمد بن سعيد المرغتي (19) والحسن بن رحال المعداني (20).

---

(17) العروسي : المرقي، ص : 264.

(18) انظر ترجمته بتفصيل مع مصادرها في :
ــ محمد الأخضر : الحياة الأدبية في المغرب في عصر العلويين، (البيضاء) ص 102.

(19) المعداني : الروض، ص : 448، وهو ولد محمد المرغتي السالف الذكر.

(20) المصدر السابق، ص : 450.

وتعتبر المصادر محمد المعطي وارث الشيخ الشرقي وخليفته ومجدد رسمه وطريقته. وقد أكد ذلك شيخه التاملي الذي قال عنه : «انت المعنى بقول الشرقي، ياتي من أولادي من جريي هو مشيه» (21)، وقد دافع محمد المعطي عن هذا الارث الصوفي بقوله : «وان ذلك ليس على عمومه، حتى يطمع فيه كل منحرف جاهل مقصر كاسل خالد في الهفوات، مايل إلى الرعونات من السعي الصالح ... مغتر بظواهر الالفاظ، مكتفي بها عن البحث..» (22).

ثانيا : ابو عبد الله محمد الصالح (23) : المتوفى 1139هـ/ 26-1727م

نشأ أبو عبد الله محمد المدعو ب «الصالح» في بيئة دينية وعلمية، تتمثل على الخصوص في مظاهر الاهتمام والرعاية التي خصه بها والده باعتباره أحد كبار فقهاء ومتصوفة العصر.

«فرباه بالصيانة والعفاف والطاعة والديانة وجميل الأوصاف ..» (24) بالاضافة إلى جو العاصمة مراكش، التي بدأت تعرف حركة علمية وفكرية اقترنت بعودة الاستقرار السياسي والوحدة الداخلية مع الحكم العلوي الناشيء (25)

---

(21) المصدر السابق، ص : 391.

(22) العروسي، ص : 262.

(23) ترجم له :

ــ العبدوني : اليتيمة، في عدة مواضع.

ــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص : 114.

ــ ابن براهيم : الاعلام، ج 5، ص : 41، 45.

(24) العبدوني : اليتيمة، ص : 4.

(25) الأخضر : الحياة الأدبية، ص : 73 وما بعدها.

قاسم محمد الصالح والده حياة الغربة والترحال والتنقل بعيداً عن بلده وعشيرته، إلا أنه وجد سلوته وضالته في مجالس العلم حيث كان يلازم حلقات دروس كبار فقهاء وعلماء العصر، سواء بمراكش أو فاس أمثال الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي (26)، الذي اخذ عنه «علم التشريح وعلم الهيولة وعلم الطب وعلم التوقيت وعلم الحساب وعلم الهندسة..» (27).

وقد اجازه بفاس، شيخها وعالمها محمد بن عبد القادر الفاسي (28) عام 1109هـ، اجازة عامة في كل ما أخذ عنه. اما من اشتهر اعتماده عليه في الطريق، فهو والده الذي اخذ عنه من جملة ما أخذ عنه «عهد الخضرية» (29). كما رحل إلى «تامكروت» بطلب من شيخ الزاوية الناصرية آنذاك، سيدي احمد بن محمد بن ناصر (30)، الذي اجازهُ في علم الظاهر، وطلب منه الانخراط في سلك الطريقة الناصرية، واذن له في تلقين اورادها ونشر تعاليمها، بل ان مصادر الزاوية تزعم أن الشيخ محمد الصالح، هو الذي ورث «القطبانية» من بعده، وعنه اخذها الشيخ سيدي الحسن بن شرحبيل (31)

---

(26) حول ترجمة، انظر : حجي، الزاوية الدلائية، ص : 97 وما بعدها.
ـــ مجلة المناهل : (عدد خاص عن اليوسي)، عدد 15، شعبان 1399هـ يوليوز 1979م.

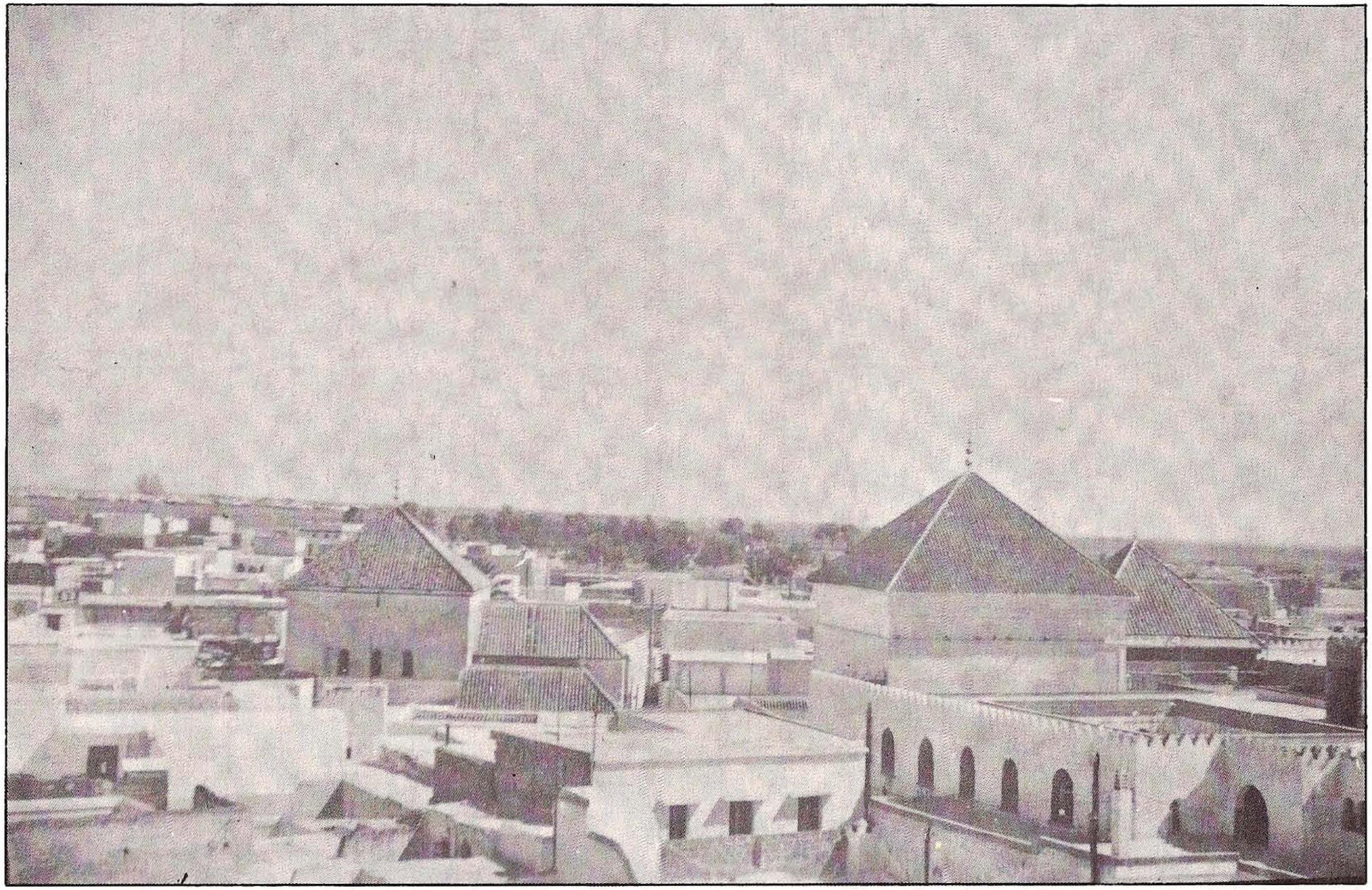
(27) العبدوني : اليتيمة، ص : 194، 195.

(28) حول ترجمته، انظر : السلطان المولى سليمان : عناية اولي المجد .. (فاس) ص : 48 ـــ 50.

(29) نسبة إلى سيدنا الخضر عليه السلام. (الاعلام، ج 5، ص : 3).

(30) انظر ترجمته مع مصادرها : الأخضر : الحياة الأدبية، ص : 172 وما بعدها.

(31) العبدوني : اليتيمة، ص : 211. حول ترجمته، انظر :
ـــ الناصري م المكي : الدرر المرصعة : م.خ.ع. الرباط، رقم 265 ك، ص : 159.



أشياخ الزاوية الذين عاصروا فترة الاشعاع العلمي للزاوية وهم : (من اليسار) :
الشيخ محمد الصالح، الشيخ محمد المعطي، الشيخ محمد العربي.

ولم تتوقف همة الشيخ محمد الصالح العلمية والصوفية عند هذا، بل نجده يسعى لطلب الانخراط في طريقة الشيخ سيدي محمد بن سعيد الهبري الطرابلسي بواسطة أحد أخص اتباعه وأصحابه الذي نزل إلى المغرب وألقى عصا الترحال بزاوية ابى الجعد، وهو سيدي أحمد بن الطالب.

إن الشيخ محمد الصالح بقدر ما يمثل في شخصه جانبا مهما من ثقافة عصره كما حفل بذلك كتاب «الروض الفائح» فإنه في نفس الوقت يعطينا نموذجا لكبار شيوخ التصوف آنذاك، الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن (علم الشريعة وعلم الحقيقة)، فقد تشرب بثقافة العصر وعلومه وتأثر بها وأثر فيها، قدوته في ذلك كبار الاشياخ أمثال : الحسن اليوسي، محمد بن ناصر (32)، وأبو سالم العياشي (33) وغيرهم ..

كما أن محمد الصالح إلى جانب ذلك، يمثل منعطفا حاسما في تاريخ الزاوية، فبعد محاولات لم يكتب لها النجاح التام في حياة والده لاحياء معالم الزاوية، تهيأت لهذه الشخصية من الأسباب ما جعل زاوية ابى الجعد تصبح موطن اشعاع ديني وعلمي يعم وسط البلاد برمتها، وبذلك تستعيد الزاوية ماضيها التليد، بفضل ما بذله من جهد جهيد لتعميرها، وتسيير أسباب العيش والمقام والتعلم بها، فتوافدت عليه جموع الطلبة والمريدين، كما تردد على مجالسها العلمية كبار علماء العصر أمثال : الحسن بن رحال المعداني (34) والحسن اليوسي، والطبيب عبد القادر بن شقرون (35) وغيرهم .. بل وجد بعضهم بزاوية ابى الجعد من

---

(32) انظر ترجمته مع مصادرها عند :
ـــ الأخضر : الحياة الأدبية، ص : 86 وما بعدها.

(33) المرجع السابق، ص : 90 وما بعدها.

(34) المرجع السابق، ص : 205، 206.

(35) المرجع السابق، ص : 207، وما بعدها.

العناية والاكرام، والرعاية والاهتمام، ما لم يتوفر له في العاصمتين مراكش ومكناس. كما أن الفقيه والمؤرخ الافراني لم يجد مندوحة من الالتجاء إلى الشيخ محمد الصالح طالبا مساعدته، وإليه يرجع الفضل في ظهور مؤلف من انفس المصادر التاريخية، الا وهو كتاب «نزهة الحادي» (36).

وقد عبر الأفراني (37) عن امتنانه واعترافه لشيخ الزاوية في نهاية المؤلف المذكور بقوله : «ثم تكرر الطلب إلي وأكد في جمع ذلك التأليف على من لا استطيع مقابلة أمره بالاهمال .. وهو عين الاعيان وصدر أرباب البلاغة والبيان .. الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمله .. الولي الصالح أبو عبد الله سيدي محمد الصالح .. فهو الذي أعاد لفكري قوة النشاط ونشر عليه بساط الانبساط فانقشع عني سحاب الكسل وانجاب، وناديت فكري مع ضعفه للتأليف فأجاب...» (38).

توفي الشيخ أبو عبد الله محمد الصالح عام 1139هـ/1727م بزاويته، حيث تحول منزله إلى ضريح يضم رفاته، ويبعد ببضع عشرات الامتار عن ضريح جده محمد الشرقي.

وقد تركت هذه الشخصية، بالاضافة إلى جليل اعمالها، تراثا فكريا يغلب عليه الطابع الصوفي والديني، حفل به كتاب «الروض الفائح» الذي اختص بترجمته، وهو من تأليف أحد تلامذته ومريديه «الحسن بن محمد المعداني»، كما ترك من بعده، خلفه الذي ورث ثقافته وتصوفه، وأمن الاستمرار لنشاط الزاوية.

---

(36) ل. برفنصال : مؤرخو الشرفاء : تعريب ع.القادر الخلادي، الرباط، ص : 93.

(37) المرجع السابق، ص : 89 ــ 96 في التعريف بالأفراني ومؤلفه النزهة، انظر كذلك، ــ الأخضر : الحياة الأدبية ص : 229 ــ 236.

(38) الأفراني : النزهة، ص : 310، 311.

ثالثا : أبو عبد الله محمد المعطي بن الصالح (39) : (المتوفى 1766/1180م.

هو أبو عبد الله محمد المعطي بن الصالح بن المعطي بن عبد الخالق بن عبد القادر بن الشرقي. نشأ وترعرع وتعلم في زاوية والده وهي يومئذ تعج بالعلم والعلماء، كما كان والده يصحبه معه في أسفاره ويعرضه على متصوفة وأشياخ العصر، التماسا لنفحاتهم «إلى أن صارت سيرته مستقيمة، وسريرته طاهرة .. وأسراره جليلة جسيمة ..» (40).

وقد اشتغل تحت رعاية والده، بالتفقه في جميع العلوم حفظاً وفهما، فقرأ النحو والتوحيد والفقه على أبيه وعمه سيدي محمد بن المعطي، والأصول والبيان والمنطق على الفقيه أحمد بن زكور الفاسي (41) وعلم التصريف واللغة والحساب على الفقيه محمد بن الطيب الفلالي والحديث والتفسير والسير على الفقيه العافية الصومعي، وقرأ الطب على الفقيه عبد القادر بن شقرون، والتصوف على سيدي أحمد بن محمد السريفي، بإذن من أبيه .. «وما دخل في طريق القوم حتى تفقه وقرأ هذه العلوم وعلوما اخرى رقيقة فائقة جليلة دقيقة رائقة ..» (42).

وقد ظهرت أبعاد تاثير وسطه، ونتائج تكوينه المتكامل، ومدى

(39) ترجم له المعداني : الروض. في عدة مواضع.
ــ القادري : النشر، ج 2، (فاس)، ص : 277، 278.
ــ ابن براهيم : الاعلام، ج 2، ص : 165 و، ج 5، ص : 46 وكذلك،
ــ محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس (فاس)، ج 1، ص : 193
ــ الأخضر : الحياة الأدبية، ص : 288، 289، 290.

(40) العبدوني : اليتيمة، ص : 3.

(41) ترجم له، الكتاني : السلوة، ج 3، ص : 353.

(42) العبدوني : اليتيمة، ص : 35.

استعداده للاكتساب والتشرب بثقافة وعلوم العصر في مؤلفه الضخم «ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج» (43)، والذي بلغت اجزاؤه ستين سفرا، وقد شهد له معاصروه من المغاربة والمشارقة بالتفوق والنبوغ والابداع. قال عنه محمد بن عبد الحي الكتاني :

«الامام العارف الكبير، فخر المغرب، أبو الذخائر محمد المعطي بن الصالح الشرقي .. صاحب كتاب الذخيرة في السيرة النبوية، وهي من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة على غيرهم .. بانشاء بديع وبلاغة فائقة ..» (44).

عاصر هذا الشيخ الفتنة الكبرى التي عرفها المغرب عقب وفاة السلطان المولى إسماعيل (ت 1139/2727) فساهم بمجهود كبير في إقرار الأمن والاستقرار بالقطر التادلي وخارجه .. كما حافظ على ارث اجداده، وساهم في استمرار اشعاع الزاوية وتوسيع مجال عملها في مختلف المجالات الاجتماعية والدينية والعلمية دون أن تجرفه الأحداث والمغامرات من حوله (45).

وقد ترجمت حياته الصوفية خلاصة ما انتجته أسرته من علم وحلم وصلاح وزهد، بحيث مثل ارثها الصوفي وتمثله، ولا شك أن هذا يذكرنا بأسر مغربية مشابهة توارثت العلم والصلاح عبر أحقاب وأجيال، مثل الأسرة الفاسية والأسرة القادرية (46) ..، وكونت صوامع شامخة تحتضن العلم والدين وتصونه وتذود عنه.

توفي الشيخ محمد المعطي بن الصالح عام 1180هـ/1766م،

(43) الذخيرة : م.خ.ع. الرباط، رقم 2770 ك (بدون ترقيم)، (وسيأتي تفصيل ذلك في الباب الثالث).

(44) الكتاني : فهرس الفهارس، ج 2، ص : 196.

(45) سنتعرض لهذه الأحداث، ودور الزاوية فيها في الباب الخامس.

(46) بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، في مواضع متعددة.

ليتولى شؤون الزاوية من بعده نجله سيدي العربي بن المعطي. وقد اختص بترجمة محمد المعطي تلميذه وكاتبه محمد بن عبد الكريم العبدوني في مؤلفه «يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ محمد المعطي».

رابعا : أبو عبد الله محمد العربي بن محمد المعطي (47) : المتوفى 1234هـ/18-1819

هو الشيخ محمد العربي بن الشيخ محمد المعطي، عندما توفي والده، تركه صغير السن، مما يجعلنا نرجح أن ولادته كانت في أواخر العقد السادس من القرن 12هـ. اهتم برعايته وتعليمه من بعد والده، أحد اساتذة الزاوية ومريديها، الفقيه سيدي المحجوب المساوي، فقد اخذ عنه علم الرسوم كالقرآن والتوحيد، كما تتلمذ بالزاوية أيضا، على الفقيه المشارك الزاهد سيدي محمد بن القاسم الفلالي (48) الذي اجازه اجازة عامة، كما أجازه في دلائل الخيرات والمسبعات (49) وذلك بتاريخ أواسط ذي القعدة عام 1183هـ. ثم رحل إلى فاس ليأخذ على كبار علمائها أمثال، شيخ الجماعة بها الفقيه سيدي التاودي (50) الذي أجازه في الفقه، كما اجازه بالمشرق، أثناء رحلته للحج والعلم عام 1190هـ عدد من أشياخ

---

(47) ترجم له كل من :
— الكتاني : فهرس الفهارس، ج 2، ص : 167، 168، 169
— ابن ابراهيم : الاعلام، ج 5، ص : 180 وما بعدها.

(48) العربي بن داوود الشرقاوي : الفتح الوهبي .. ص : 214، 242.

(49) المسبعات عشر جمل من الاذكار الصوفية، تتلى كل منها سبع مرات، وهناك المعشرات التسع من اذكار اتباع الشيخ الجزولي تتلى كل جملة فيها عشر مرات.

(50) ونعني به الفقيه العالم أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة المري الفاسي، من كبار علماء مدينة فاس والمغرب، حتى لقب بشيخ الجماعة لورعه وعلمه، توفي عام 1209هـ/1795م.
— انظر ترجمته في الباب الثالث، وكذلك عند
الأخضر : الحياة الأدبية، ص 322 وما بعدها.

الأزهر كالحافظ مرتضى الزبيدي (51) واحمد جاد الله الخناني الازهري (52) والشهاب أحمد الدمنهوري (53)، ولعله أعلا من لقيي وغيرهم. وقد ضم كتاب «الفتح الوهبي» في مناقب الشيخ أبي المواهب مولانا العربي» معظم هذه الاجازات، كما جمعت في كتاب خاص حمل اسم «سفر الاجازات».

أما من اعتمد عليه في طريق القوم، فوالده بواسطة محمد بن أبي القاسم الفلالي الذي لقنه اوراد وسند طريقة والده، كما اخذ بمصر الطريقة «الخلوتية» عن شيخها آنذاك سيدي محمد الحفناوي الشافعي الخلوتي (54)، «وقد اجزته بما تضمنه ثبت الاسناد من مشابكه ومصافحة ودلائل الخيرات وكتب الحديث والمسلسل بالأولية والضيافة بالاسودين الماء والتمر، واجزته كما اجازني باوراد الطريق، وأن يلقنها من شاء ويجيز من شاء في الطريق والاوراد جميعا.

كتب المرتجي غفر المساوي محمد الحفناوي الشافعي، يوم الجمعة

---

(51) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضي الحسيني الزبيدي، ولد عام 1145هـ، وهو من كبار علماء ومتصوفة القطر المصري يقول عنه الجبرتي «.. وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة، ومنزلة كبيرة، حتى أن أحدهم اذا ورد إلى مصر حاجا ولم يزره، ولم يصله بشيء لا يكون حجه كاملا ..» توفي عام 1205هـ.
ــ عبد الرحمان الجبرتي : تاريخ عجائب الاثار في التراجم والأخبار. بيروت، ج 2، ص : 103 وما بعدها.

(52) من علماء الأزهر المتصدرين لتدريس الحديث به .. وقد سمع عليه كثير من علماء المغرب، وكان لهم اعتقاد كبير في صلاحه. توفي 1207هـ.
ــ الجبرتي، ج 2، ص : 152.

(53) ولد بدمنهور الغربية عام 1101هـ، وتعلم بالأزهر، حيث أجازه علماء المذاهب الأربعة، يقول عنه الجبرتي : «ولكن لم ينتفع بعلمه .. لبخله في بذله ..» ولى مشيخة الأزهر. وتوفي عام 1177 (الجبرتي، ج 1، ص : 525).

(54) الجبرتي : ج 1، ص : 339.

المبارك يوم خمسة وعشرين خلت من شهر جمادى الثانية عام 1190هـ (55).

شهد للشيخ محمد العربي المعاصرون والمتأخرون بتفوقه في العلم الظاهر خاصة التفسير والحديث، فوصف بأنه «فقيه وحافظ وعالم صالح»، وكتب عنه أبو العباس أحمد بن عبد المالك العلوي قاضي مكناس :

«السيد العربي هذا آية في الحفظ واستحضار الحديث والتفسير وسرد الصيام وأحياء الليل دائم في القيام واطعام الطعام» (56).

اشتهرت زاوية ابي الجعد في عهده لتصبح من اعظم الزاويا العامرة بالمغرب «لايصد عنها وارد، ولا يخيب فيها قاصد ..» (57).

ومع ذلك فقد عرفت الزواية في عهده أكبر اصطدام لها مع السلطات الرسمية، اذ قام السلطان محمد بن عبد الله العلوي (1171 ــ 1757/1204 ــ 1789) بتخريبها، ونفي شيخها محمد العربي وتغريبه مع أسرته وأفراد عائلته إلى مراكش (58).

وبعد وفاة السلطان سيدي محمد، رجع الشيخ العربي إلى زاويته ؛ إلا أنه ما كاد يحط عصا الترحال، حتى أرسل في طلبه المولى سليمان العلوي (1206 ــ 1792/1238 ــ 1823) وامره بالاقامة بفاس، إلا أن عفا عنه وأرجعه لزاويته مكرما معززا.

---

(55) العربي الشرقاوي : الفتح الوهبي، ص 223، 224.

(56) الكتاني : فهرس الفهارس، ج 2، ص : 163.

(57) الشرقاوي ع : الفتح، ص 203.

(58) سنتعرض بتفصيل لعلاقات الزاوية بملوك الدولة العلوية في الباب الخامس.

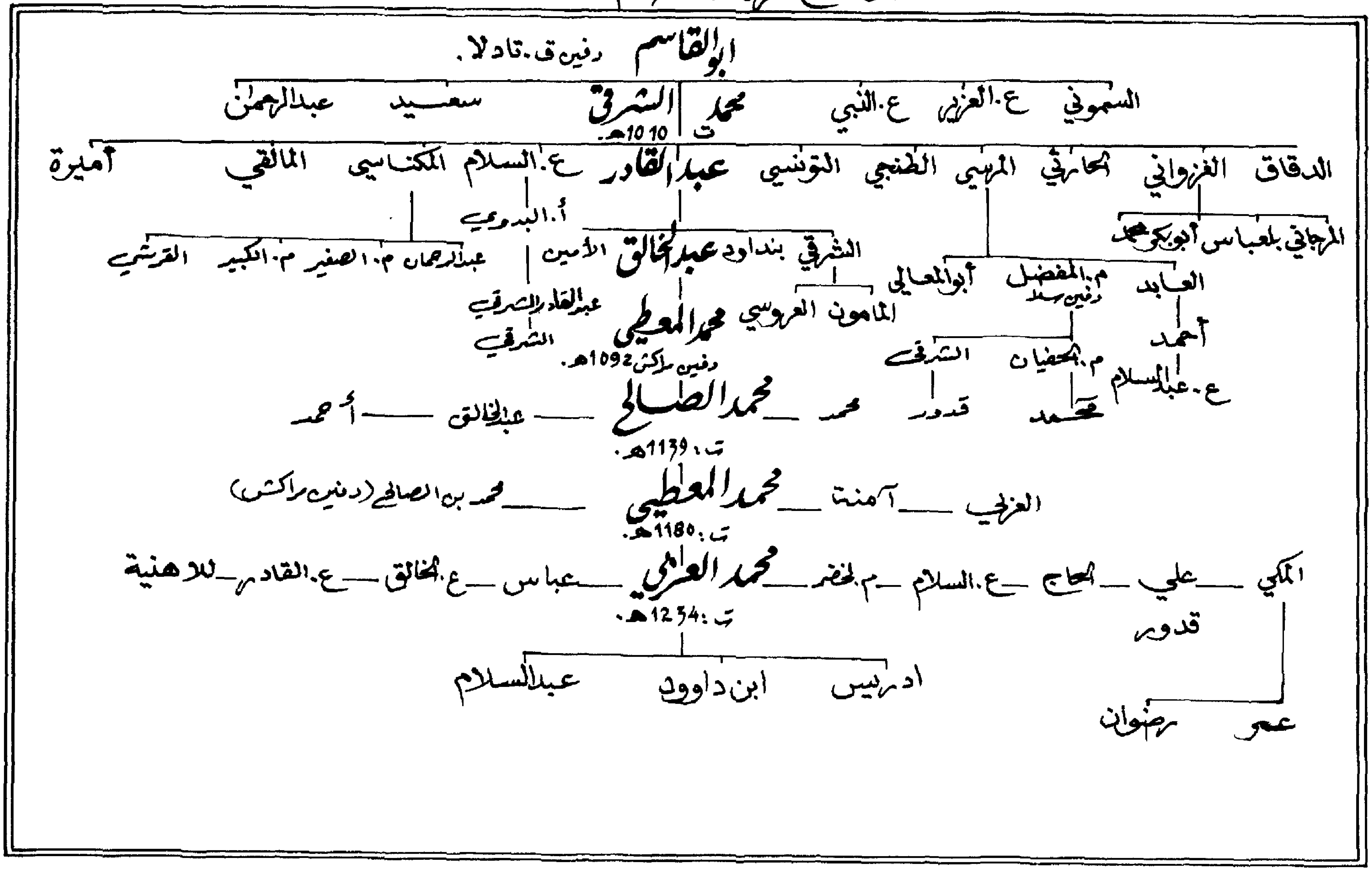
الا ان هذا الامتحان الثاني (59)، لم ينقص من نفوذ الزاوية وشيخها في شيء، بل كان الأمر على عكس ما كان يتوقع، فقد ازدادت أهميتها لدى القبائل والسلطات المخزنية، فتمتنت علاقات الجانبين.

توفي أبو عبد الله محمد العربي عام 1234هـ/18-1819م عن سن تتجاوز الستين، متأثرا بعوارض وباء الطاعون الذي ضرب البلاد والعباد في نفس التاريخ، وتوفي من جرائه كذلك خلق كثير من أهل الزاوية ومن بينهم بعض أفراد أسرة الشيخ. وبوفاته دخل تاريخ الزاوية في مرحلة جديدة على المستوى الجهوي والوطني.

(59) نقصد بالامتحان الأول، مشكل الوراثة والخلافة الذي نتج عن وفاة أبي عبيد الله محمد الشرقي وما تلا ذلك من غموض في تاريخ الزاوية.

شجرة الأسرة المرابطية الشرقاوية

إلى مطلع القرن 13هـ/19م.



الفصل الثاني

○ ○ ○

الطريقة الصوفية للزاوية

أولا : طريقة الشرقي تباعية جزولية.

ثانيا : سند خلفائه في الشاذلية.

ثالثا : الأذكـــار.

الطريقة الصوفية للزاوية

أولا : طريقة الشرقي تباعية جزولية :

يعتبر سند الزاوية الشرقاوية في الجزولية ــ الشاذلية من أعلى الأسانيد، كما أوضحنا ذلك من خلال سلسلة أشياخ أبي عبد الله الشرقي، خاصة بواسطة والده أبي القاسم الذي أخذ أخْذ إرادة وانتساب مباشرة عن الشيخ التباع وهذا عن الشيخ الجزولي.

«أعلم أن طريقة الشيخ سيدي مَحمد الشرقي تباعية جزولية، وطريقة الشيخ سيدي محمد الجزولي شاذلية وهي الشائعة بالمغرب»(1).

وترجع أهمية الطريقة الجزولية، إلى كونها أكثر ترسخا في المجتمع المغربي بسبب التزامها، وقربها من الكتاب والسنة، وابتعادها عن مظاهر الغلو والتفلسف (2)، إذ أنها تستمد أصولها ومنابعها من مدرسة وتصوف أبي القاسم الجنيد (المتوفي 277 هـ) احد أعلام التصوف الاسلامي السني البارزين، وقد نقل عنه :

---

(1) العروسي : المرقى، ص 106.

(2) محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية...، (الرباط) ص 236.

«الطرق كلها مسدودة على الخلق، الا على من اقتفى اثر الرسول عليه الصلاة والسلام.»(3)

لقد كان للجزولي فضل احياء الطريقة الشاذلية بالمغرب خلال القرن 9 هـ/15 م، كما عمل اتباعه على بثها ونشرها في الفترات اللاحقة، حتى أنها كادت تكون الطريقة الوحيدة بالبلاد، هذا إلى جانب المذهب المالكي في الفقهيات، والمذهب الاشعري في المعتقدات (4).

وعلى ذلك كانت طريقة الشرقي نتاجا للجو الديني والروحي العام الذي ساد مغرب القرن العاشر الهجري، إذ نجده يؤكد في إحدى ملحوناته على استمراره في نهج طريقة أشياخه السنية فيقول :

اللي بغى اتعنَّى ويكون منَّا   اتبع طريق السُّنا يبابـا

وحسب مصادر الزاوية، فإن مّحمد الشرقي لم يكن شيخا عاديا في الطريقة، بل كان قطب زمانه وعصره (5)، ومن تم تورد له مجموعة من «الكرامات» والصفات تبرز هذه المكانة، من ذلك :

ــ إنه كان لا يقبل أحدا أن يضاهيه أو يساميه (6) : وتلك أبرز

(3) أبو بكر محمد الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف (بيروت) ص 30، هامش رقم 1.

(4) محمد المنوني : ورقات...، ص 213 وكذلك محمد حجي : الزاوية الدلائية، ص 48.

(5) حسب المرقي (ص 60) ان الشرقي مكث في القطبانية 16 سنة، ومنه انتقلت الى سيدى أحمد بن بلقاسم الصومعي.

(6) تتفق معظم المصادر الخاصة أو العامة حول أبرز صفات الشرقي التي أوردناها أعلاه، في حين تسكت بعضها عن منصب قطبا نيته دون أن تنفيه أو تؤكده.
انظر : الفاسي في الممتع ص 128 ــ الأفراني في الصفوة، 25.
ــ العروسي : المرقى، ص 54.

صفات القطب، بسبب علو مرتبته على سائر الأشياخ، وأنه لا مقام فوق مقامه ولا يقبل أحدا أن يشاركه فيه (7).

ــ إنه يعاقب بالسلب : ذلك أن قوة همته تجعله يسلب نور وسر أشياخ آخرين، كعقاب لهم على عدم تقديرهم لمرتبته ومنصبه.

ــ له حق التصرف التام في زمانه : «قيل إنه وقع بينه وبين ولده سيدي الغزواني يوما كلام وعتاب، إلى أن قال له الولد : أنت ترزقني ؟ فقال الشيخ : نعم أنا أرزقك، فأعظم الناس هذا الكلام، فقال لهم سيدي محمد بن أبي بكر المجاطي (الدلائـي) : لاشيء في هذا، فإن الشيخ هو القطب في الوقت، والقطب تجرى الأرزاق على يده... (8)»

ــ المكاشفـــة : (9)

«حدثوا عن صلحاء تادلا انه لما قام على السلطان أحمد المنصور، ابن أخيه الناصر : قال الشيخ أبو العباس أحمد ابن أبي القاسم الصومعي : ان الناصر يدخل تادلا، يعني دخول الملك، فلما بلغ الخبر إلى الشيخ أبي عبد الله الشرقي التادلي، قال : مسكين بابا أحمد، رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها، فكان الأمر كذلك، فإنه هزم في نواحي تازا، ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش فدخل تادلا في طريقه (10)».

(7) تعتبر القطبانية قمة السلم الصوفي المتكون من النقباء ــ النجباء ــ الابدال ــ الاوتاد إلامام ثم الاقطاب، وقد اختلف في عددهم كما اختلف في أماكن تواجدهم ومهامهم وأيضا في تعريفهم.

(8) العروسي : المرق ص 210.

(9) تدخل في باب التجلي والاستتار. انظر : الكلاباذي : التعرف، 121.

(10) العروسي : المرق، ص 205.

ــ الناصري : الاستقصا، ج 5. ص 146.

وقعت هذه الأحداث في عهد أحمد المنصور الذهبي السلطان السعدي.

ويعلل صاحب المرقى ذلك بثلاثة أمور :

1) تفاوت مقام الرجال وتفاضلهم، وأن بعضهم أعلا من بعض وأبلغ...

2) إن ما يقع للأولياء من المخالفة لما أخبروا به لا يظن بهم الكذب.

3) إن ما يقع من الاختلال والنقصان لاهل الفراسة.. إنما يقع لهم من أجل عدم تمام التجلي، لأن الشيء قد يتجلى بتمامه وقد ينقص...(11).

ومن المكاشفة أيضا، الاطلاع على ما في الخواطر (12).

ــ كان من أهل السماع (13) والوجد (14) :

«وتحرك سماع فلم يشعروا به الا وهو وسطهم، فتواجد، وليس عليه الا القميص. فقال بعض الجالسين لآخر : هذا رجل خفيف، فإذا هو على الفور تكلم على خاطرهم، فقال :

اللــــه اللــــه يالــــــه اللــــه اللــه يالطيــــف

---

(11) العروسي : المرقي، ص 206 ، 207.

(12) الكلاباذي : التعرف، ص 151 (تنبيهه إياهم بالفراسات).

وقد وردت في كتاب المحاضرات لليوسي، و«المرقي» قصص في هذا الباب.

(13) السماع : استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال.. قال الجنيد : الرحمة تنزل على «الفقير» (بمعناه الصوفي) في ثلاثة مواضع : عند الأكل، فإنه لا يأكل الا عند الحاجة، وعند الكلام، فإنه لا يتكلم إلا للضرورة، وعند السماع، فإنه لا يسمع إلا عند الوجد.

ــ الكلاباذي : التعرف، ص 160، 161.

(14) ومعنى الوجد : هو ما صادف القلب من فزع أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل.

ــ المصدر السابق، ص *112 ــ 113*.

الحبْ يهزْ الرجـــــالْ لا والله مَانِي خْفيفْ (15)

وانشدهم أيضا :

إذا اشتـــــاقَتْ الأرواحْ سلَّم كَانْ ابْغِيتْ تَرْبَحْ
مَـــا عْلِينَـــا جُنَـــاح كَانْ قُمنَ بالوَجدْ نَشْطَح

وبعد أن أشار صاحب المرقى إلى اختلاف اراء المتصوفة والفقهاء حول السماع قال :

«قال الشيخ زروق : ... ومن قال بجواز السماع فعند توفر شروطه الثلاثة، التي هي وجود الزيادة في الايمان والنشاط في العبادة. الثاني السلامة مما ينكره ظاهر الشرع، كالاجتماع مع النساء، وسماعهن مما يوجب تحريك الشهوة وكذلك الأحداث. والثالث، الا يكون مقصودا من غير صراخ ولا رقص ولا اساءة ادب في الذكر أو غيره، مع كون ذلك مرة ولا يحضر مقتدى به الا مختفيا (16).

ـــ كان مجذوبا سالكا :

«المجذوب من اصطفاه الحق لنفسه، واصطفاه بحضرة انسه، وأطلعه بجناب قدسه، ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب» (17).

وهو حالة من حالات الشهود، وهي عكس السالك الذي عليه أن يسلك مختلف المراتب الصوفية بمختلف أنواع المجاهدة، قبل أن يصل إلى حالات المشاهدة، وقد يسلك الصوفي الطريق قبل أن يجذبه الله اليه، وقد يجذبه اليه ثم بعد ذلك يسلك طريقه إليه. ومن هنا كان التمييز بين، مجذوب سالك وسالك مجذوب.

---

(15) العروسي : المرقي، ص 166.

(16) المصدر السابق، ص 170.

(17) على زيعور : العقلية الصوفية ونفسانية التصوف. (بيروت) ص 177.

ـ كان يلبس أَحْسَن الثياب :

فعندما زاره وفد أحمد المنصور الذهبي، أبدى بعضهم الدهشة لما شاهد عليه من ثياب رفيعة رقيقة.. فأجابهم : «أنا قطب وقتي وهذا هو الثوب الذي يليق بي.. (18) كما اشتهر بغناه وثروته، ولذلك لقب بـ «لخواجة»، وعن هذا قال :

أنــا رَجَــلْ دَنْيَــوِي نَصْلَـحْ دِينـي بالدُّنيــا
نَكْتُــم سِر مَعنــوي مَنْ سَادَتنا الصُّوفِيا (19)

وإذا كان المقام لا يسمح بتقويم لهذه الصفات والظواهر، على اعتبار أنها تشكل في حد ذاتها بحثا آخر، فإنه وجبت الاشارة إلى أن معظم المصطلحات السالفة الذكر، لاتخرج عن إطار معجم التصوف الاسلامي الجنيدي الشاذلي منه على الخصوص، الا أن تطور توظيفاتها واستعمالاتها هي التي تستحق الاهتمام في محاولة لدراسة التصوف المغربي على الأقل منذ القرن 10 هـ في إطاره الديني والاجتماعي وأحيانا النفسي... أما ما يهمنا في إطار بحثنا هذا، فهو إلى أي حد شكلت هذه الصفات صورة شيخ التصوف خلال القرن 10 هـ / 16 م ؟ وما هو تأثير مدرسة محمد الشرقي في الأجيال اللاحقة من أبناء وأشياخ الزاوية ؟ ذلك أن عهده وعصره يعتبر بحق من أخصب فترات التصوف المغربي، وقد عبر عن ذلك قول أحدهم :

---

(18) العروسي : المرقي، ص 166.
المعداني : الفتح، ص 112.
ويظهران عادة لبس اللباس الحسن كانت شائعة عند شيوخ التصوف في القرن 10 هـ كما يظهر من إشارة تتعلق بالشيخ أحمد بن حسين العبدلي المعروف بـ «أبي الروايِن» (المتوفي 963 هـ / 1556 م) فبينما هو «مار عليه ثياب رفيعة...»
ـ الفاسي م م : الممتع، ص 107.
(19) العروسي : المرقي، ص 166.

«بعد أحمد لا سلطان وبعد محمد لا فقر» (20).

ووصف أبو الحسن اليوسى ــ فيما بعد ــ طريقة الشرقي بقوله :

«وطريقة هذا الولي الكبير... من أنفس الطرق التي تتنافس فيها الفحول وترد صفوة مائها أهل الأصول والفضول، وتلقى بشراب مدامها أهل المعقول والمنقول... وهي مبنية على السماع وما فيه من الجذبات والشطحات الربانية والأحوال الصادقة والمعارف الصمدانية...» (21).

ثانيا : سند خلفائه في الشاذلية :

نهج الخلف من الأبناء والأحفاد طريقة جدهم الشرقي من حيث انتسابهم إلى المدرسة الجزولية الشاذلية.

1 ــ اعتبر الشيخ المعطى بن عبد الخالق نفسه الوارث الحقيقي لطريقة جده والمجدد لها بشهادة أشياخه واعترافهم له، حجتهم في ذلك سعة علمه وصفاء سريرته إذ كان «آية في المحبة... له القدم الراسخ في الطريق وحجة في علم التصوف...» (22) الا أن هذا لم يمنعه من تجديد عهده واسانيده، بالانتساب إلى كبار شيوخ التصوف في عهده أمثال محمد التاملي.

فقد كانت طريقة هذا الشيخ تقوم على العزلة (23) والاحسان (24)

(20) نعني بأحمد : السلطان السعدي أحمد المنصور ؛ وبمحمد : محمد الشرقي.

(21) العبدوني : اليتيمة، ص 30.

(22) الشرقاوي ع : الفتح، ص 136.

(23) يرى ذو النون المصري وأبو القاسم الجنيد وغيرهما، أن الخلوة واعتزال الناس أهون على تصحيح الارادة وصفاء العبادة والبعد عن الرياء والنفاق.

فإن من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم.

ــ عفيفي أبو العلاء : التصوف : الثورة الروحية في الاسلام (بيروت) ص 136.

(24) أبرز شخصية صوفية مغربية اشتهرت بالاحسان ومواساة الضعفاء والمساكين=

«فهذه العزلة التي انفرد بها.. في طريقته وجعلها أصل سيرته وسريرته فيها راحة للقلب وسلامة للنفس..» (25).

هذا إلى جانب اعتكافه على كتاب «الاحياء» للغزالي اذا دخل رمضان، مع المواظبة خلال شهري رجب وشعبان على قراءة المصحف وعلى الصلاة على النبي ﷺ وعلى كتاب الشفا للقاض عياض.. (26).

كما كان كثير الصدقة، لايستقر لديه مال.. «وكان أناس من أهل المدينة يعيشون ولايدرون أين معاشهم.. وبعد موته وجدوه أنه كان ينفق في حياته على أهل مائة بيت..» (27).

وعندما زاره وفد تادلا شاكين إليه شوءم الزمان وأهله، الذي لم تبق فيه ولايه ولا سلطان، أجابهم : لاتقولوا ذلك.. فما زالت فحول الرجال من الصالحين في الدينا.. ومازالت الملوك كذلك.. ولعله كان يشير إلى مقامه ومنصبه واحقيته في وراثة الشيخ محمد الشرقي إلا أنه لم يبلغ مرتبته، إذ صنف من «الأوتاد» داخل التراتبية الصوفية (28).

2 ـــ أما نجله محمد الصالح «فقد اجتمعت فيه الطريقتان الجزولية التباعية والناصرية الغازية» الأولى بواسطة والده وكذلك بواسطة سيدي أحمد التستاوتي، عن الشرقي بن المفضل، عن والده، عن أحمد المرسى أحد ابناء الشرقي، وأما اتصاله بالزروقية الشاذلية، فبواسطة شيخه سيدي أحمد بن ناصر، عن أبيه سيدي محمد الكبير، عن أحمد بن ابراهيم عن سيدي

= والاعتناء بالمرضى والمعوزين، الشيخ العارف بالله أبي العباس السبتي دفين مراكش (ت 601 هـ).

(25) العبدوني : اليتيمة، ص 86.

(26) المصدر السابق، ص 92.

(27) المعداني : الروض، ص 424.

(28) هناك من يجعل عدد الأوتاد أربعة، منازلهم على منازل أركان العالم الأربعة شرق وغرب وشمال وجنوب. وهم ياتون في المرتبة الثالثة بعد القطب والامام.

الغازي، عن سيدي علي بن عبد الله السجلماسي عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني، عن سيدي أحمد زروق ومنه إلى الشاذلي. (29)

هذا إلى جانب انتسابه إلى «الطريقة الهبرية» التي اخذها بالمراسلة وبواسطة سيدي أحمد بن الطالب، أحد اتباع سيدي محمد بن الهبري الطرابلسي، الذي زار المغرب آنذاك، فطلب منه الشيخ محمد الصالح أن يلقن طريقة شيخه لابنه سيدي محمد العطى كذلك.

«وكانت طريقته (ر) صعبة المرام ولذلك لم يلقنها سيدي صالح كثيرا لأصحابه مثل هذه الطرق الأخرى الناصرية والتباعية.» (30).

وقد كتب إليه الشيخ الهبري في إحدى مراسلاته :

«..فاهجر أهل البغي والهوى والطغيان، طريقتهم السمعة والهوى ولقمة يأكلها عند الأغنياء، لهم غلمان بدلوا طريق الحق، وهدموا بنيانها، فامامهم الهوى والشيطان.. وبدلوا وغيروا ما أوصاهم به الرحمن، قوم ظمئوا لا شراب لهم ولا طعام إلا من حميم النيران..» (31).

في حين تمتاز الطريقة الناصرية ببساطة تعاليمها ومراعاتها حالة المريدين ومستواهم الفكري مع التحري التام للكتاب والسنة.

3 ــ إن أبا عبد الله محمد المعطى بن الصالح بقدر ما يمثل خلاصة طريقة والده المتعددة الأسانيد في الشاذلية، فإننا نجده في مرحلة لاحقة يسعى إلى الابداع والتجديد، ليس على مستوى أشياخ عصره فقط، بل على مستوى الطريقة الجزولية الشاذلية برمتها، ويتمثل ذلك في مؤلفه الجليل «ذخيرة المحتاج» الذي أراد به تجاوز كتاب «دلائل الخيرات» ليكون

(29) العبدوني : اليتيمة، ص 211، 212، 213. انظر أيضا :
ــ رسم الأسانيد بالصفحة رقم 126.
(30) المصدر السابق، ص 192.
(31) الشرقاوي ع : الفتح، ص 252، 253.

سند الشيخ محمد الصالح في الشاذلية
(الجزولية والزروقية)

أبو الحسن الشاذلي

أبو عبد الله المغربي	أبو العباس المرسي
أحمد القرافي	ابن عطاء الله
أحمد البدوي	داوود الباخلي
أبو الفضل الهندي	محمد بن وفا
عبد الرحمان الرجراجي	علي بن وفا
سعيد الهرنتاني	أبو زكريا القادري
محمد أمغار	أحمد بن عقبة
أبي محمد بن سليمان الجزولي	**وأحمد زروق**
عبد العزيز التباع	أحمد بن يوسف الملياني
محمد الزعري	علي بن عبد الله السجلماسي
أبو عبد الله الشرقي	أبو القاسم الغازي
أحمد المرسي	أحمد بن علي الحاجي
محمد المفضل	عبد الله بن حسين الرقي
الشرقي بن المفضل	أحمد بن إبراهيم
أحمد بن عبد القادر التستاوتي	محمد الكبير
	أحمد بن محمد بن ناصر

محمد الصالح بن المعطي الشرقاوي

في مستوى التآليف الاسلامية الكبرى في هذا المضمار.. هذا إلى جانب تأليفه وابتكاره لمجموعة من الأحزاب أمر أصحابه بقراءتها والمواظبة عليها، مما جعله ينشىء لنفسه ولأصحابه طريقة خاصة بهم يمكن تسميتها بـ «الطريقة المعطاوية» حيث اسست زوايا تابعة له عرفت فيما بعد بنفس التسمية ؛ في كل من تادلا، خنيفرة، فاس إلخ...

4 ـــ وإذا كانت طريقة ابنه الشيخ العربي في بداية تحمله لمسؤوليات الزاوية، تعتبر استمرارا لطريقة جده الشيخ محمد الصالح (32) فإن سفره للمشرق، وانخراطه في الطريقة الخلوتية، لم يكن أكثر من توسيع دائرة اشياخه، إلا أنه بعد حين يتحول عن كل هذا وذاك لتصبح طريقته تقوم على تلاوة القرآن وشرحه والتمعن فيه.

«وكان التفسير ذو الجلالين (33) محمولا معه.. لايفارقه.. وكان ملازما مع الطلبة لقراءة الحزب.. قال عليه السلام : إذا احب أحدكم أن يحدث ربه فليقرأ القرآن... (34).

وقد أنشأ لذلك زوايا قرآنية في مختلف أنحاء القطر التادلي وخارجه.

من خلال ما سبق، يمكن استنتاج ما يلي :

ـــ إن طريقة الشرقي بقدر ما مثلت التصوف الجزولي الشاذلي في اعلى صوره كما عرف خلال القرن 10 هـ، والذي يقوم أساسا على المحبة الصادقة للنبي الكريم (35) والاكثار من الصلاة عليه والتسليم والمواظبة

---

(32) الشرقاوي ع : الفتح، ص 242.

(33) الجلالان المشتركان في تفسير القرآن الكريم هما : جلال الدين محمد ابن أحمد المحلي المتوفي 864 / 1459، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي 911 / 5 ـــ 1506 م.

(34) الشرقاوي ع : الفتح، ص 194.

(35) انظر ملحونات الشرقي في هذا المجال وكذلك نماذج من الذخيرة، بالملحق رقم : 4.

على قراءة دلائل الخيرات ؛ فإنها في نفس الوقت تعكس شخصية الشرقي القوية التي لم ترض عن منصب «القطبانية» بديلا، أو على الأقل أحد أبرز رجالات التصوف المغربي خلال النصف الثاني من القرن المذكور وحتى مطلع القرن 11 هـ / 17 م (36) ؛ وهو نفس الانطباع الذي تأكد لدى مؤرخي الطريقة وكتاب تراجم أشياخها فيما بعد، بحيث إذا كان البعض سكت عن قطبانيته مكتفيا بالتأكيد على صفاته المميزة، فإن البعض الآخر سلك مسلكا وسطا فاعتبره «أحد الامامين».(37)

ــ وتعطينا شخصية محمد الصالح صورة جديدة لأشياخ التصوف خلال القرن 12 هـ / 18 م، الذين جمعوا بين التكوين المتين في مختلف شعب العلوم المتداولة، إلى جانب السلوك الرصين والزهد التام وقوة اليقين أيمانا وعملا ؛ فقد جاء في نصيحته لأبنه :

«وعليك بالعلم، فالعلم زينة الفقر وعماده وفراشه وغطاؤه ووساده، وفقر بلا علم، فضيحة ومكر وخديعة.. وهو ظلمة بلا سراج» (38).

مع الابتعاد عن كل إدعاء يتجاوز أوصاف البشر أو تبرير وصول إلى مقام من المقامات الصوفية، أو نهج سلوك مغاير لما هو معتاد، وهو الاتجاه السني الذي دافع عنه أشياخه ؛ مثل الحسن اليوسى، فقد تأثر بهم، وتمثل منهجهم وخطهم كما عبر عن ذلك صاحب اليتيمة، باعتباره أحد ابرز تلاميذة الشيخ محمد الصالح بقوله :

«أعلم أن التصوف علم شريف لمن أكرمه الله بمعرفته، وحال منيف لمن تفضل الله عليه بكمال أوصافه وحسن سيرته، وليس هو كما

---

(36) جاء في النزهة، ص 47 «وكان في عصره (عصر السلطان عبد الله الغالب السعدي) أحمد بن موسى... وابن حسين والشرقي و... وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم...».

(37) الفاسي م م : الممتع، ص 129.

(38) العبدوني : اليتيمة، ص 35.

يزعمون.. بلبس المرقعات والمشي حافيا في الطرقات، وتعرية الرأس وانزعاج النفس وتقشف الثياب وتغير الحالات والشطح والرقص والتصفيق والتغاشي في الطرقات ؛ بل التصوف كما قال أبو علي سيدي الحسن اليوسي : هو صفاء القلوب من الأكدار.. (39)

وهو نفس النهج الذي سار عليه محمد المعطى بن الصالح الذي بلغ في اذكاره وأشعاره الصوفية واستعطافاته واستغفاراته وأمداحه النبوية شأوا بعيدا (40).

— في حين تثير شخصية العربي بن المعطي الصوفية أكثر من سؤال : ذلك أن عزوفه عن الطريقة الجزولية الشاذلية والطرقية بصفة عامة في أواخر حياته يظل جوهر التساؤل ؛ فقد اعتبر تلاوة القرآن وتدارسه أفضل وسيلة للتقرب من الله (41). وهذا التغير الجذري لا يمكن فهمه إلا في إطار الظرفية الدينية والعقائدية لمغرب مطلع القرن 13 هـ، الذي عرف وصول بعض الأفكار الاصلاحية المشرقية والمتمثلة في «الدعوة الوهابية» وما أثارته من لجاج ونقاش على مستوى العلماء والمتصوفة، وعلى مستوى السلطة الرسمية آنذاك والمتمثلة في شخص السلطان المولى سليمان، الذي احتك به الشيخ العربي احتكاكه بالأوساط العلمية والدينية بفاس.

لقد اتضح — مما سبق — حرص أشياخ الزاوية على التمسك بالطريقة الشاذلية السنية مع اختلاف وتنوع في أساليب وأسباب الرقى الروحي،

---

(39) العبدوني : اليتيمة، ص 92، 93.

(40) قال عنه الشهاب الجوهري : «امتزجت محبة النبي ﷺ بلحمه وعظمه وشعره وعروقه ودمه».

— الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، 170. وكدلك.

— نماذج من أسفار الذخيرة : ملحق رقم 4.

(41) الشرقاوي ع : الفتح، ص 194.

كتعبير عن الهاجس القوى والمستمر الذي ظل يدفع بأشياخها إلى البحث الدائم عن أقرب السبل وأضمنها وأقومها من أجل الوصول ؛ دون انزواء أو تطرف، بل بانسجام تام مع الشرع كدين تبتل ومعاملة مع الاستعداد الدائم لتصحيح المسار واغنائه، وبذلك تعددت الروافد التي ظلت تغذى أجواء الزاوية وتطهرها، بل ان انزواءها المكاني لم يحل دون حضورها الزمني كنقطة التقاء للعديد من التيارات داخلية كانت أم خارجية.

ثالثا : الأوراد والأذكار

1 ــ سأل الفقيه محمد بن عبد الكريم العبدوني شيخه محمد الصالح ؛ عن ورد الشيخ الشرقي، الذي تركه لاصحابه بقصد أن يأخذه عنه فأجابه : «ياولدي ما ترك لهم الا حزب الفلاح (42) يقرؤونه صباح مساء وزيادات عليه من عند الشيخ الشرقي، فصار مجموع ذلك حزبا، وهو حزب الشيخ الشرقي» (43).

إلا أن المصادر لم تورد شيئا عن هذه الزيادات التي أضافها الشرقي، ويؤكد صاحب اليتيمة على أن بعض الأشياخ أدخلوا عليه بعض التغييرات والتحويرات، فجعلوا أوله :

«توكلت على الحي الدائم الذي لا يموت...» كما أن بعض الخواص كانوا يقرأونه على الشكل التالي :

«الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا. إلى آخر السورة، ويقول بعدها : الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر (ثلاثا) لا إلاه إلا الله والله أكبر ولله الحمد أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، سبحان الله والحمد لله ولا إلاه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

(42) انظر نصه في الملحق رقم 1.

(43) العبدوني : اليتيمة، ص 257.

العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، نال حالا كثيرا من العز والقبول ورفعة الجاه». (44)

كما كان مريدو الزاوية يواظبون على قراءة وتلاوة كتاب «دلائل الخيرات» للامام الجزولي، باعتباره حجر الأساس في اذكار الزاوية، مرفوقا بعدد من الأدعية والابتهالات والاستغفارات بعضها من إنشاء أشياخ الزاوية.

وكانت طريقة قراءته زمن الشيخ محمد الصالح وفق البرنامج التالي :

«تقسم قراءته على ثلاثة أيام، ابتداء من السبت ثم يختم يوم الاثنين، وتستأنف يوم الثلاثاء ليختم يوم الخميس، بينما يخصص يوم الجمعة لختمه كله». وهذه الطريقة هي سنة المشايخ من الجزولي الى وقتنا هذا وهكذا اخذته... (45).

إلا أن أوراد الزاوية وإذكارها لم تقف عند هذا، بل تعددت بتعدد أسانيدها في الطريقة الشاذلية وتبعا لاختلاف مستويات الاتباع والمردين، فقد كان الشيخ محمد الصالح يلقن أصحابه ورد الشيخ التأملي كما أخذه عن والده محمد المعطي بن عبد الخالق الذي مطلعه :

«رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم (مائة مرة) وبعدها، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (مائة مرة) ولا إلاه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير (مائة مرة) وسبحانة الله وبحمده، سبحان الله العظيم (مائة مرة)، وكذلك وظيفته المعلومة المشتملة على أحاديث نبوية وادعية مصطفوية..» (46).

---

(44) المصدر السابق، ص 258.

(45) المصدر السابق، ونفس المكان.

(46) العبدوني : اليتيمة، ص 187.

وأشار «صاحب الاعلام» إلى أنه عثر ضمن مجموعة بخط سيدي محمد الصالح على حزب الشيخ محمد بن إبراهيم التاملي، وهو يختلف في مضمونه وطوله عن الورد السابق، مما يجعلنا .نرجح أن الورد الأول كان يخص به مريديه، بينما الحزب الكبير يقرؤه في وحدته بعد صلاة الصبح. (47)

وقد خص العامة من أصحابه واتباعه بالورد الناصري، بسبب بساطته ومراعاته أحوال المريدين مع التفريق بين المرأة والرجل.

«وإذا فرغتم من الاذكار المأثورة بعد صلاة الصبح، فقولوا : استغفر الله (مائة مرة)، اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، كذلك لا إلاه إلا الله (ألف مرة)، هذا إذا كان ممن يعاني القراءة وكان ذكرا، وأما المرأة فحسبها من الهيللة مائة مرة، وإن كان عاميا فليذكر الهيللة سبعة آلاف مرة، ويزاد عند تمام كل مائة، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا هو الورد بين الصبح والصبح.» (48)

أما تلقينه للطريقة الهبرية وأورادها فقد كان قليلا، لكونها صعبة المرام، وتحتوي أورادها على أسماء من أسماء الله الحسنى (49).

2 ــ أعطى الشيخ محمد المعطي بن الصالح لطريقته المعطاوية كل مقوماتها، فقد وضع لاصحابه ومريديه أحزابا جديدة خاصة بهم أمرهم بقراءتها دون سواها (50) على نسق أحزاب الشاذلي، وكان عددها سبعة

(47) حول حزب التملي كاملا انظر :

ــ ابن براهيم : الأعلام، ج 5، ص 7 إلى 10.

(48) العبدوني : اليتيمة، ص 197.

ــ أحمد بن خالد الناصري : طلعت المشتري في النسب الجعفري (فاس) ج 1، ص 148.

(49) العبدوني : اليتيمة، ص 192.

(50) المصدر السابق : ص 323 ــ 324.

أحزاب بعدد أيام الأسبوع، وما عرف منها خمسة وهي :

البسملة ــ اللطف والفرج ــ النصر والتأييد ــ الاستعطافات النورانية والفتح والنور.

إلا أن الحزب الذي شاعت قراءته في الزاوية في عهده على الأقل هو «حزب الفتح والنور».

«وقد ألفه (ر) باصل الطبوع الملحونة والاسجاع الفائقة الموزونة.. موضوعا على طريقة الأجلة من الأولياء.. مثل، الشيخ الشهير سيدي الحسن الشاذلي (51) والامام الكبير السهروردي (52) والسيد الجليل مولانا عبد القادر الجيلاني (53)..» (54).

أما ما بقي اليوم ــ حسب ما عثرنا عليه من أحزابه، فهو إلى جانب الفتح والنور، يوجد حزب اللطف والفرج، ثم حزب اللطائف والاذكار أو (الاستعطافات النورانية)، وقد تبين من تصفح هذه الأحزاب الثلاثة انه ربما وقع دمج حزبين أو أكثر في حزب واحد ؛ مما يجعلنا نرجح أنها ــ أي الأحزاب الثلاثة ــ تشتمل على معظم الأحزاب التي تركها الشيخ محمد المعطي، بدليل طولها وتغير أساليب نظمها شكلا ومضمونا.

---

(51) ولد أبو الحسن الشاذلي بقبيلة غمارة قرب سبتة عام 593 هـ، وتتلمذ للشيخ عبد السلام ابن مشيش دفين جبل العلم بالقرب من تطوان، رحل إلى مصر وتوفى بصعيدها عام 656 هـ، له اتباع عديدون في المشرق والمغرب، كما ألف لأصحابه مجموعة من الأحزاب (اذكار) منها : حزب البر، حزب البحر، الحزب الكبير.

(52) يعتبر شهاب الدين عُمر السهورودي (المتوفى 632 هـ) من كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين، وهو مؤلف كتاب «عوارف المعارف»، وهو غير شهاب الدين السهروردي الذي قتل عام 597 هـ، وهو من المتصوفة المتطرفين أمثال أبي يزيد البسطامي.

(53) الشيخ عبد القادر الشريف الحسني المعروف بالجيلالي، صاحب الطريقة الجيلانية التي انتشرت في جميع البلاد الاسلامية، إلى أن نافستها في الغرب الاسلامي، الطريقة الشاذلية الجزولية، والشاذلية الزروقية. توفى ببغداد عام 561 هـ.

(54) العبدوني : اليتيمة، ص 321.

أ ــ حزب اللطف والفرج أو التوسل إلى الله في دفع الشدائد وأزمة الضيق ومانزل من الحرج. عدد صفحاته احدى وستين، من الحجم المتوسط (14 سطرا في كل صفحة، تحتوي 7 إلى 8 كلمات). يقرأ هذا الحزب حاليا من وقت لآخر قبل طلوع الشمس. مطلعه :

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا، هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمومنين رحيما..».

ويختمه بمنظومة شعرية، مطلعها :

يارب مس الضر قلبي وانكسر
فاجبر لكسري انت ارحم من جبر
واغث فقد امسيت منقطع الرجا
فما سواك، وما بغيرك ينتصر
ناداك في الظلمات يونس ضارعا
وكذلك أيوب وقد عظم الضرر
وكذلك إبراهيم إذ سعرت لظى
نار واسرائيل إذ عمى البصر

ب ــ حزب الفتح والنور أو البسملة (55) :

عدد صفحاته (64)، وهو من الحجم الصغير (12 سطرا في كل صفحة، تحتوي 5 إلى 7 كلمات). واسمه الكامل :

«البسملة أو حزب الفتح والنور والدخول في حضرة مولانا الحليم الغفور».

---

(55) يسر لنا الحصول على نسخ الأحزاب الثلاثة والاطلاع عليها السيد الحاج عبد اللطيف الشرقاوي، مقرىء أسفار الذخيرة وأحزاب الشيخ محمد المعطي بأبي الجعد.

مطلعه : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم وصل الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

باسم الله نور الفتح المبين
باسم الله سر الكتاب المستبين
باسم الله حصن الأمن الحصين
باسم الله ركن الدين المتين
باسم الله منة القوي المعين
باسم الله رحمة الضعيف والمسكين
باسم الله بركة الصالحين
باسم الله منحة المانحين
باسم الله نعمة الحامدين
باسم الله حلية العابدين

إلخ...

إلى أن يقول :

باسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله
باسم الله ماشاء الله لا يسوق الخير إلا الله

إلخ...

ثم يلحق ذلك بآيات قرآنية وأدعية، ويختم هذا الحزب بدوره بمنظومة منها :

يارب هب لي توبة تمحو بها
عني الذنوب فأنت ذو الغفران
يارب ثبت قلبنا أبدا على
الطاعة والتوحيد والايمان

إلـــخ...

ويقرأ هذا الحزب فجر الاثنين والجمعة، وهو أبسط وأسهل الأحزاب الثلاثة، مما يفسر شيوعه وانتشار قراءته في زمانه في مختلف أنحاء القطر التادلي.

ج ـــ حزب اللطائف والاذكار (56) :

وهو مجموعة آيات قرآنية، تتخللها أسماء الجلالة، مثل :

«باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى ولا الضالين (الفاتحة 3 مرات) والا هكم إلاه واحد لا إلاه إلا هو الرحمن الرحيم، شهد الله انه لا إلاه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إلاه إلا هو العزيز الحكيم..»

عدد صفحاته 16. ويقرأ حاليا فجر الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، السبت، الأحد.

هذا عدا أسفار الذخيرة (57) التي كانت تقرأ أجزاء منها ـــ كما هو الحال اليوم ـــ في أوقات متفرقة، إلا أن قراءتها لم تقتصر على الزاوية آنذاك، بل تعدتها إلى الزوايا التابعة، كما ان مؤلف النشر، الذي كان معاصرا للشيخ المعطي، ذكر عن مؤلفه هذا :

«وهو الآن يسرد منه نحو نصف ورقة بعد صلاة العصر بمسجد القرويين بفاس الادريسية، فسمعت منه وحضرته أياما...» (58).

3 ـــ أما في عهد نجله وخليفته الشيخ العربي، فقد نقلت عنه المصادر أسلوبا جديدا في التصوف، وتغيرا جذريا في نوعية وأسلوب اذكاره،

---

(56) وهو المشهور بحزب «والآهكم»، انظر الملحق رقم 3.

(57) سياتي الحديث عن «الذخيرة» في قسم لاحق.

(58) القادري م : النشر، ج 2، ص 278 (فاس).

كما يظهر ذلك من خلال برنامجه اليومي الذي نقله عنه حفيده أبو حامد العربي بن داوود بن الشيخ العربي (59).

«فإذا طلع الفجر صلاه ثم صلى الصبح ثم يشتغل بقراءة الحزب مع الطلبة، واقفا والبخور متصاعدة... ثم يشتغل مع الطلبة بالمذاكرة بأدب، فإذا طلعت الشمس اشتغل بما لابد منه من أمور الزوار. (60)

---

(59) احد أشاخ الزاوية في النصف الثاني من القرن 19 م وهو مؤلف كتاب «الفتح الوهبي».

(60) الشرقاوي ع : الفتح، ص 196.

الفصل الثالث

○ ○ ○

تربيـــة المـــريديـــن

أولا : معنى الحياة الصوفية.

ثانيا : أسلوب الشيخ محمد الصالح التربوي.

ثالثا : بعض مريدي الزاوية.

تربيـــة المريـــديـــن

أولا : معنى الحياة الصوفية :

تتميز الحياة الصوفية بمرحلتين من الوجهة النظرية، لكنهما متكاملتان ومرتبطتان ارتباط الأسباب بالمسببات : حياة المجاهدة، وحياة المشاهدة.

ــ فالمجاهدة تمثل الجانب العملي في الحياة الصوفية، أو الجانب الديني والاخلاقي منها، وهي مأخوذة عن الجهاد، ومعناهما بذل النفس في سبيل الله، ومحاربة اعدائه. ثم استعملت في التصوف بمعنى محاربة النفس ومخالفتها باعتبارها العدو الأول الذي يقود الانسان إلى الهلاك، ولذلك وضع الصوفية كأول خطوة للمريد في طريقه إلى الله، التأمل والنظر (التفكر) في النفس، ومحاسبتها ومراقبتها. وهي كما قال القشيري :

«فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها...»

وتبدأ بالخلوة والعزلة «وفي الخلوة بالنفس استيحاش من الخلق، واستئناس بالله...» (1).

ومن مظاهر المجاهدة أيضا : الزهد ؛ لأن المتصوف «يزهد في الحرام

---

(1) عفيفي : التصوف الثورة.. ص 133، 134.

استجابة لنهي الدين عنه، وفي الحلال استشعارا لألم الحرمان الذي هو وسيلة من وسائل تطهير النفس وتقويتها».

ويرتبط بالزهد، التوكل والرضا والقناعة والصبر والشكر والفقر... كما ان من أساليب المجاهدة، العبادة، كالصوم والصلاة والذكر والدعاء (2).

ــ المستوى الثاني : المشاهدة والاشراق (3) باعتبارهما ثمرة المجاهدة، وان من لا مجاهدة له فلا مشاهدة له : إلا أن المشاهدة لا تدرك حقيقتها حسيا، لأنها كسائر الأحوال الصوفية وقف على من يعانيها ويجربها باعتبارها تجربة روحية محضة تختلف باختلاف مراتب الوصول ودرجاته، وقد لا يرى السالك في الطريق شيئا من هذا ولا يدرك مقاما من المقامات... كما ان هناك من بينهم من يخصه الله برعايته وقربه «ويجذبه اليه» دون عناء الطريق، ولا مشقة سلوك، فيسمى بـ «المجذوب».

وقد أوجب معظم الصوفية على المريدين صحبة المشايخ، لكي يرشدوهم ويتعهدوهم، ويصححوا مسارهم الروحي. يقول أبو زيد البسطامي :

«من لم يكن له أستاذ، فأستاذه الشيطان».

إلا أن هذه القيادة الروحية لا يختص بها إلا كبار المتصوفة أصحاب البصيرة النافذة، والفراسة القوية، أمثال أبي القاسم الجنيد وأبي الحسن الشاذلي...

وتقوم هذه العلاقة بين الشيخ والمريد على شروط، عرفت بـ «شروط

---

(2) المرجع السابق، ص 136 ، 137.

(3) حول تعريف المصطلحات الصوفية الواردة اعلاه، يمكن الرجوع إلى المصادر المتخصصة مثل كتاب : «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذي.

الصحبة» وأهم هذه الشروط : الطاعة المطلقة، وأن يحفظ المريد سره الا عن شيخه، يقول القشيري :

«ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في صحبته»

ولا تبدأ صحبة المريد لشيخه الا بعد أن يصح عزمه، وهو ما يعرف بـ «مقام التوبة». وتنتهي هذه المقامات ــ أو المراحل ــ بمقام المشاهدة.

ثانيا : أسلوب الشيخ محمد الصالح التربوي :

إذا كانت المصادر لا تجيبنا عن أسلوب «الشرقي» التربوي، فإنه لن يخرج عن مسار ومنهج المدرسة الجزولية الشاذلية، التي حاولت جهدها التزام طريق السنة... كما أكد ذلك الشرقي لأصحابه :

«اللِّي بْغَى اتْعَنَّى ويكُونْ منَّا   اتْبَعْ طْرِيقْ السُّنا يَابا»

وإن استعراضا أوليا لبعض مريديه أمثال محمد بن أبي بكر الدلائي يجعلنا نتبين حقيقة وأصالة مدرسته ومنهجه.

وترجع أهمية الشيخ محمد الصالح، إلى كون المصادر الخاصة بالزاوية، احتفظتْ لنا بجملة من آرائه التربوية بحكم معاصرة أصحابها له وتتلمذهم عليه ؛ وهو نفس الأسلوب الذي سار عليه نجله الشيخ المعطي باعتباره أحد أبرز عطاءات الزاوية في هذا المجال.

فقد نقل عن الشيخ محمد الصالح قوله :

«أصحابي كلهم بين يدي كالواقفين بين يدي الطبيب، نعرف صحيحهم وسقيمهم» (4).

كما كان يرعى أصحابه بالنظر، ويقول :

«إن بعض الأولياء مع اصحابهم كالسلحفاة مع بيضها، تبيضه وتدفنه

---

(4) العبدوني : اليتيمة، ص 58.

في التراب، وفي كل يوم تتعهده بالنظرة كل يوم من البعد مرة أو مرتين، فيلقح من ذلك ويصير سلحفاة.»(5)

وكان يراعي في تربية مريديه مستواهم العقلي والفكري :

«فالطالب منهم يربيه بما يهضم نفسه ويناسب حاله، والفقيه يربيه بما يليق به أيضا كذلك والامي يربيه بما يوافق حاله.»(6)

وهذا يفسر تعدد أوراده واذكاره، وتدرجها حسب المستويات، واختلافها بالنسبة للرجال والنساء.

وكان يحض مريديه على العزلة بمعناها الصوفي الايجابي، اقتداء بوالده، وضاربا المثل بنفسه، ويأمرهم باتخاذ الكتب ومجالسة العلماء كأفضل أنيس وخير عوض، قائلا :

«عليكم بمرافقة العلماء وخدمتهم، فإنه ما أفلح من أفلح الا بمرافقتهم.» (7)

إلا أن اهتمامه بتكوينهم الروحي لم يكن ليصرفه عن تكوينهم الفكري، بل جعلهما صورتين لحياة واحدة، فالفقر بلا علم عنده مكر وخديعة.

وهذا الاهتمام والرعاية، لم يصرفه عن الالتفات لاحوالهم البدنية، بحضهم على النظافة والطهارة، بسبب وسط الزاوية القروي، قائلا لأصحابه :

«إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.. وسخ الثوب والبدن يزول بالماء ووسخ القلب يزول بالاستغفار من الذنب» (8)

وبذلك تكتمل صورة المريد، الطاهر في بدنه وقلبه وروحه، المستنير

---

(5) المصدر السابق، ص 59.

(6) المصدر السابق، نفس المكان.

(7) العبدوني : اليتيمة، ص 44.

(8) المصدر السابق، ص 47.

بفكره وعقله... إلا أن التصوف قبل كل شيء عنده، عبادة وعمل ومعاملات.. فكان يحض أصحابه على كثرة الذكر أو الصمت أو العبادة بمعناها العام كخدمته لنفسه فيما يحتاج إليه من مئونة وكسوة أو اعالة أسرة، قائلا لتلامذته :

«احترفوا ولا تجلسوا فارغين بلا شغل..» (9)

وضرب المثل بنفسه، فحفر آبار الماء، وغرس الأشجار، وأقام أرحاء لطحن الحبوب...

وضع الشيخ محمد الصالح لمريديه عددا من المنظومات والأشعار التربوية إلى جانب الأوراد والأذكار، حتى تعينهم على تهذيب النفس والقيام بالفرائض في وقتها، وتحبب لهم الخلق الحسن، اقتداء بأخلاق وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه جل تعالى :

«وإنك لعلى خلق عظيم».

ــ من ذلك قوله في الحض على سلوك الطريقة ومدحه :

وبعـــد فاعلـــم أيها الفـــقير
إن الطريق كوكب منير (10)

ــ أو حين يؤنب بعض المتهاونين في أمور دينهم :

تجلس لا تبـــال بــــالأذان
للبيـــع والشراء في الـــدكان
تظهـر انك مـن أهـل الديـن
ولست منهم على اليـقين (11)

---

(9) المصدر السابق، نفس المكان.

(10) المعداني : الروض، ص 321.

(11) المصدر السابق، ص 322.

ـ أو حين ينكر على بعضهم صلاحه وتقواه الزائفين :

ايـن القناعـة وأيـن الزهـد
أيـن التهجـد وأيـن الجد
أيـن التـواضع وأيـن الحلـم
ما فيك من سيما الصلاح وسم(12)

ـ كما كان يأمر أصحابه بالأعراض عن الدنيا الزائفة والزهد فيها :

اعرض عن الدنيا فهي قبيحة
فباتفـاق انها فضيحـة
ونـغص العـيش بذكـر الموت
وما تلاقيه بذلك الوقت (13)

ـ هذا إلى جانب نهيه عن سيء الأعمال والأقوال مثل الغيبة والنميمة والحسد.

لا تغتب الناس ودع عنك الحسد
ذم النميمة بلا شك ورد (14)

ـ وبعد أن يستعرض أوصاف المومنين الصالحين، يقارن بين هذا، وما هو عليه الحال في عصره، ليخلص إلى القول :

هـذي الطريـق أيـن نحن منها
لاشك أنا قد عدلنا عنها (15)

إن دور زاوية أبي الجعد التربوي والديني ليبرز أكثر وضوحا عند استعراضنا لبعض الشخصيات الصوفية والعلمية التي تتلمذت على أشياخ

(12) المعداني : الروض، ص 322.
(13) المصدر السابق، ص 323.
(14) المصدر السابق، ص 324.
(15) المصدر السابق، نفس المكان.

الزاوية، أو جمعت بينهم وبين أشياخ آخرين في حين وجد البعض منهم في الزاوية وأجوائها ملجأه ومنقذه من الغفلة والضلال، بعد حياة اللهو والعبث...

ثالثا : بعض مريدي الزاوية :

تتلمذ لاشياخ الزاوية العديد من المريدين : وتحتفظ لنا المصادر بعدد وافر منهم، وردت أسماؤهم بصفة مباشرة أو بطريقة عفوية، مع التأكيد على بعض الشخصيات الصوفية الشهيرة ذات النفوذ الجهوي أو الوطني، علما بأن هذه المصادر، تزعم ان عدد الزوايا التابعة لزاوية أبي الجعد في عهد شيخها ومؤسسها محمد الشرقي وحده، بلغت أربعمائة (400) زاوية في مختلف أنحاء تادلا وخارجها..

وإذا كان من الصعب تأكيد وحصر هذا العدد ؛ فإن أبعاد ودلالات ذلك تتجلى بوضوح في المجال الجغرافي والبشري الذي شمله نفوذ الزاوية في عهد مؤسسها كمرحلة أولى، وهو عمل لم تكن أحداث القرن 11 هـ / 17 م لتطمسه، إذ ان أبناءه وأحفاده من بعده عملوا على استمرار وتمثين العلاقة الدينية بين الزاوية واتباعها، بل ان هجرة بعضهم خارج الزاوية، دفع بهذا النفوذ لمسافات أبعد.. وسنقتصر هنا على ذكر بعض المريدين ذوي النفوذ الوطني، على أننا سنتطرق إلى نوع آخر من هؤلاء المتخرجين والمنتسبين للزاوية في قسم آخر، نظرا لارتباطهم القوي بالزاوية ــ الأم، كزوايا تابعة، وتمركز معظمهم في مناطق نفوذها واشعاعها.

1 ــ محمد بن أبي بكر بن محمد بن سعيد الدلائـي :

واسطة عقد الأسرة الدلائية وعالمها الكبير (16)، ولد حوالي 967 / 1559، وقرأ على والده أبي بكر مؤسس الزاوية الدلائية، ثم

(16) جحى م : الزاوية الدلائية، ص 76.

توسع في علومه بتوسع دائرة أشياخه سواء الذين رحل إليهم أو الذين توافدوا على الزاوية آنذاك أمثال : أحمد بن القاضي وأبي علي الحسن الدرعي.. وبعد ذلك رحل للتطواف على صلحاء العصر وأشياخ التصوف في عهده لسلوك طريق القوم عليهم، أمثال : عبد الله بن حسون دفين سلا ومحمد ابن امبارك بتاستاوت ومحمد الشرقي بأبي الجعد.

رجع محمد بن أبي بكر إلى زاوية والده عام 1012 / 1604، أي بعد وفاة الشرقي بسنتين، ليصبح أحد أركانها ودعائمها علما وعملا.

وعند وفاة والده 1021 / 1612 خلفه في الاشراف على تسيير شؤون زاوية «دلاء»، التي أصبحت في عهده منارة شامخة للعلم والتقوى تعم بنورها وإشعاعها سائر بلاد المغرب.

تعتبر المصادر الخاصة بالزاوية محمد بن أبي بكر الدلائـي من اخص تلاميذة الشرقي المقربين إليه، إذ كان لايسافر إلى زيارة أو يعتزم القيام بعمل ما. الا بعد استشارة شيخه واخذ اذنه.. (17) بل ان الشرقي اعتبره بمنزلة أحد أبنائه، ولذلك عندما قربت وفاته خاطبه في جملة من خاطب من أبنائه :

«أما الغزواني فاعطيته الشاقور، يعني أن لايقدر أحد أن يترامى عليه أو يطوف بساحته بقصد التعرض والاذاية. وأما عبد السلام فأعطيته الفخار يريد بذلك كونه يطعم الطعام للزوار، وأما محمد بن أبي بكر المجاطي فأعطيته العصا، يريد بذلك الامارة في بنيه.. !» (18)

ويبدو أن من مظاهر تأثر محمد الدلائـي بشيخه الشرقي، ما عرف به طبعه في أواخر حياته من رقة ورهافة احساس، إذ أخذ يكثر من

(17) العروسي : المرق، ص 292.

(18) المصدر السابق، ص 282.

الانصات إلى السماع ويتأثر به غاية التأثر، وعندما استفسره شيخه أحمد بن القاضي عن ذلك بقوله :

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة
فمالك بعد الشيب أصبحت صابيا

فأجابه محمد بن أبي بكر بقوله :

نعم لاح برق الحسن فاختطف الحشا
فلبيته من بعد ما كنت آبيا (19)

توفي محمد بن أبي بكر الدلائـي يوم الأربعاء 11 رجب عام 1046 / 10 دجنبر 1936 عن سن تناهز الثمانين.

2 ــ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد السجلماسي :

ويعرف بـ «أبي محلي» كما كان يزعم أنه من نسل العباسيين، انتقل في بداية حياته إلى فاس لطلب العلم فتخرج منها عالما متبحرا في اللغة والمسائل الدينية بالخصوص (20) وقد وضع تآليف عديدة، تدور مواضعها حول البدَع والمنكرات. وتزعم أبو محلي ــ بصفته أحد أشياخ التصوف بزاويته بوادي الساورة في الجنوب الشرقي ــ حركة دينية سياسية ضد السلطان المأمون السعدي، عندما سلم هذا الأخير مدينة العرائش للاسبانيين عام 1019 / 1610، فتقدم من سجلماسة إلى مراكش التي اقتحمها وطرد زيدان منها، إلا أن حركته بآت بالفشل، وانتهت بمقتله عام 1022 / 1614 (21).

---

(19) حجى م : الزاوية الدلائـي، ص 80.

(20) المرجع السابق، ص 132.

(21) حول حركة أبي محلى انظر :

ــ الافراني : النزهة، الصفحات 200 ــ 209.

ــ الناصري : الاستقصا، ج 6 الصفحات 26 ــ 34.

ــ حجى م : الزاوية الدلائية، الصفحات 132 ــ 136.

يعتبر صاحب المرقي أبا محلي من أكبر أصحاب الشيخ الشرقي (22) ذلك أن أبا محلى لم يكن غريبا عن الوسط التادلي الصوفي منه على الخصوص فقد بدأ حياته الصوفية بين ظهرانه، ابتداء بشيخه ابن امبارك التستاوتي «الذي لولا هو من فضل الله لهلكت ولولا هدايته بإذن الله لضللت.. (23) فقد لازمه حوالي ثمانية عشر عاما، وقضى مدة بالزاوية الدلائية.. وخلال هذه الفترة كان يتردد على كبار أشياخ وعلماء المنطقة أمثال أحمد بن أبي القاسم الصومعي (24) ومحمد الشرقي الذي كان يزوره من وقت لآخر، بل وقع له معه كما وقع لرجلين،

«ضرب احدهما الآخر، فذهب الضارب وأفاق المضروب فوجد انسانا آخر عند رأسه غير الضارب، فتعلق به وقال : انت ضربتني» (25)

ويعلق صاحب المرقي على قوله الشرقي هاته، على أن اصل ما ناله أبو محلي وما حصل عليه من مدد انما كان على يد شيخه الشرقي. «إذ كم من واحد يكون أصل مدده من شيخ وينتسب لآخر ويصرح بأخذه عنه..» (26)

---

(22) العروسي : المرقى، ص 297. إلا أن أبا محلي لم يذكر الشرقي من جملة شيوخه، رغم إشارته إليه كأحد الأشياخ المعصرين لأستاذه ابن امبارك الزعري. انظر :
ــ أبو محلي : اصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت، م خ م (الرباط) رقم 100، ص 7.

(23) الافراني : النزهة ص 202.

(24) المصدر السابق، 201.

(25) العروسي ؛ المرقى، ص 297.

(26) المصدر السابق، نفس المكان. إن المهم هنا ؛ هو محاولة «صاحب المرقي» التأكيد على علاقة الصحبة الغير العادية بين أبي محلي المريد والشرقي الشيخ... رغم ما نلاحظه

اشتهر أبو محلي بما كان يصدر عنه من أقوال وأفعال تنم عن تطلعاته القيادية، من ذلك ادعاؤه المهدوية، وقولته في حضرة شيخه التستاوتي : «أنا سلطان. أنا سلطان.» فأجابه شيخه : «انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا».

وحدث أن سافر مرة من زاوية أبي الجعد مع عبد القادر أحد أبناء الشرقي لزيارة الأمير زيدان خليفة والده أحمد المنصور بتادلا، فوجدا عنده أحمد بن أبي القاسم الصومعي، فشرعوا في المذاكرة في مسألة علمية فلما اختلفوا فيها، «دخل السلطان لياتي بكتاب لينظروا فيه..» فقام أبو العباس أحمد بن أبي محلي، واشتغل يقول : «أنا أجلس على الأرض وزيدان يجلس على الكرسي» (27).

3 ــ أبو عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماسي :

من أشهر أصحاب الشيخ الشرقي، كما كان من خاصة السلطان أحمد المنصور السعدي، ومن لهم المكانة عنده، وان سبب صحبته للشيخ، «إنهم نقصوا له من خراجه الذي كانوا يعطونه ؛ فأتى لسيدي محمد الشرقي ليكتب له لمن هو متولي ذلك الا ينقص له شيئا، فكتب له، ثم بعد ذلك قال له سيدي محمد الشرقي : رأيتك في زحام الصالحين. فأمره بفراق السلطان.. وبارسال حوائج المخزن فأرسلها وبقي مع الشيخ.. (28).

وقد كان صاحب الترجمة يحج مرارا عديدة، وكلما رجع حمل للشيخ أنواع الهدايا من كل ما يحتاج إليه هو وأهل داره.. ولا يعرف تاريخ

= من حرج لذى كتاب آخرين أثناء الترجمة لأبي محلي.. وفي نفس الوقت نتساءل عن مغزى تأكيد أبي محلي على شخصية التستاوتي، باعتباره الشيخ أصل «المدد» دون سواه.

(27) المصدر السابق، 298.

(28) العروسي : المرقى، ص 300.

ولا محل وفاة ودفن هذه الشخصية، خاصة بعد أن ثبت أن ضريح «سيدي الحفيان الشهير بأبي الجعد»، هو لأحد حفدة الشيخ الشرقي. إلا أن أهمية محمد الحفيان السجلماسي في تاريخ الزاوية الصوفي، تبرز أكثر إذا علمنا أنه أصبح واسطة بين محمد الشرقي وبين بعض أحفاده الذين اشتهروا بعلمهم وصلاحهم ونعني به سيدي محمد المفضل بن أحمد المرسي بن الشيخ الشرقي دفين سلا وأحد أعلامها. (29)

4 ــ أبو العباس سيدي أحمد بن بلعيد المدعو : «ابن خضراء» :

من الصلحاء المشهورين و«أحد المجاذيب الذين لاحت عليهم أنوار الخصوصية، وظهرت عليهم الأحوال الربانية، كان من أهل الملامتية دائم الغيبة..» (30)

تتلمذ ابن خضراء وسلك طريق القوم على يد أحد أبناء الزاوية البارزين، وهو الشيخ سيدي عبد السلام بن الشرقي (31)، فيكون أخذ عن الشرقي بواسطة. وكان لهذا الصوفي اتباع كثيرون يبالغون في تعظيمه، كما تؤثر عنه عدة كرامات.. توفي عن سن عالية عام 1075 هـ ودفن داخل مدينة مكناس وضريحه بها مشهور، وهو من المزارات الكبرى بها (32).

---

(29) المصدر السابق، ص 286.
ــ العبدوني : اليتيمة، ص 142.
ــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص 103.

(30) الافراني : الصفوة، 157.

(31) العروسي : المرق، ص 232. وذكر القادري أنه من آلاخذين عن الشيخ محمد الشرقي مباشرة.

(32) عبد الرحمن : بن زيدان العلوي : اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس «(الرباط)» ج 1، ص 329.
إلا أننا نرجح الرأي الأول ؛ وهو ما يتفق مع زمن ابن خضراء.

5 ـــ سيدي قاسم بن أحمد بن عيسى السفياني المعروف «بابن للوشة»

كما عرف أيضا بـ «بوعسرية» من مشاهير الصلحاء و«أحد كبار مرابطي الغرب والأزغار..» (33). وتختلف الروايات حول الشيخ الذي تتلمذ عليه، إلا أنها لا تخرج عن إطار أشياخ زاوية أبي الجعد، فالبعض يجعله من تلامذة أو مريدي الشيخ الشرقي (34) والبعض الآخر يجعله من أصحاب إبنه الغزواني «وغالب من أخذ عنه مجاذيب، منهم العارف المجذوب.. سيدي قاسم بن للوشى» (35).

توفي في 18 رجب عام 1077 هـ، كما أنه لم يتزوج ولم يعقب وله اتباع وطوائف تنتسب إليه، وتشد الرحال لزيارته.

6 ـــ علي بن محمد المدعو حمدوش :

هو علي بن محمد بن عمران الشريف العلمي العروسي، من الشخصيات الصوفية المشهورة (36)، كان في ابتداء أمره بفاس، ثم انتقل إلى زرهون حيث انشأ زاويته هناك.

«وكان من أهل الجذب ساقط التكليف قوى الحال يحب السماع والأمداح ويرتاح للطرب ويصبو لسماع آلته (37)..»

ـــ القادري : النشر (المحقق). ج II ؛ 147.

(33) M. Bellaire ; Le Charb, (AR. MAR.), 1913, p : 245, 257-263.

(34) القادري م : النشر، ج II، ص 161 (المحقق).

(35) الشرقاوي ع : الفتح، ص 131. وهو الرأي الذي نرجحه لأن التاريخ يقبله.

(36) القادري م : النشر، ج 2 ص ؛ 124 مكرر (فاس).

(37) ابن زيدان : الاتحاف، ج 5، ص 459.

سلك طريق التصوف على يد شيخه محمد المدعو الحفيان (38) بن لمفضل أحد حفدة الشرقي، وهو واسطته وسنده في الطريقة الجزولية الشاذلية (39).

ولسيدي علي الحمدوش اتباع كثيرون، كما كان له ورد يشتمل على ثمانية عشر ألف من الهيللة. وقد استبعد صاحب «الاتحاف» أي علاقة بين سلوك وتصوف هذه الشخصية وبين تصرف العديد من الأتباع والطوائف المنتسبة إليه، الذين عرفوا بأعمالهم المشينة.

«فيجلبون على رؤوسهم بالمعاول والفئوس.. فهم عن عهد الهوى بمعزل، بل أنهم اتخذوا من مسالك الضلالة والعمى أردى منزل..»(40).

---

(38) العبدوني : اليتيمة، ص 143. وهو غير محمد الحفيان دفين سلا، والذي ترجم له.
— محمد بوجندار الرباطي : الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، م.خ.ع. الرباط رقم 1287 د، ص 199.
— ابن ابراهيم : الاعلام، ج 5، ص 185، 186، 187.
وهو من نفس الأسرة الشرقاوية.

(39) ابن زيدان : الاتحاف، ج 5، ص 474.

(40) المصدر السابق، ص 459.

الفصل الرابع

○ ○ ○

علاقة الزاوية بالزوايا الأخرى

أولا : علاقاتها بصلحاء تادلا.

أ ــ زاوية الصومعة.

ب ــ الزاوية الدلائية.

ثانيا : الزاوية الناصرية.

ثالثا : الزاوية الفاسيــة.

علاقة الزاوية بالزوايا الأخرى

تعددت علاقات زاوية أبي الجعد الدينية باتساع مهامها المختلفة وبازدياد أهميتها على المستوى الجهوي والوطني، إلا أنها في مجملها لا تخرج عن إطار طبيعة وخصائص التصوف المغربي الذي حرص أشياخه كل الحرص على التواصل المستمر، سواء بين الشيخ ومريديه أو بين أشياخ الزوايا بعضهم البعض لتمتين علاقاتهم الدينية (الأخوة في الله وفي الطريق) بل وأحيانا التآزر لدفع ضرر ما. أو من أجل التناصح أو المشورة أو لطلب الانخراط والانتساب لطريقة صوفية اثبتت تفوقها وعلو مكانتها ورسوخها.. إلا أن هذا لم يمنع أحيانا من حدوث ما يشبه التنافر والتنافس بسبب اختلاف في الرأي أو التصور، حول أمر من أمور الدين أو الدينا.

وفي هذا الاطار، سنحاول بحث علاقات زاوية أبي الجعد ببعض الزوايا الجهوية أو الوطنية.

أولا : علاقاتها بصلحاء تادلا

تعتبر منطقة تادلا من المناطق المغربية، التي شهدت نشاطا صوفيا مكثفا منذ وقت بعيد.

«إن أبا جعفر الحداد (ر) قال : دخلت تادلة سنة نيف وثلاثمائة..

فوجدت فيها ما يزيد على أربعين زاوية أهلها كلهم دالون على الله بعلم وولاية.. وفيها أيضا سيدي محمد بن عبد الله النفادي شيخ سيدي علي بن حرزهم..(1)».

فقد عاش بها ودفن عدد من الصلحاء أورد «ابن الزيات» منهم ما يزيد على العشرة، عاشوا خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري وحده. (2) وان من بين هؤلاء من تتلمذ على كبار أشياخ التصوف بالمغرب أمثال : عبد الحميد بن صالح الهسكوري، الذي سلك طريقه على يد أبي الحسن علي بن حرزهم (3). إلا أن أكبر صلحاء تادلا شهرة، هو الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون (4) (المتوفي 572 هـ).

وتعود أهمية تادلا من جهة أخرى، إلى كونها الوطن الذي نزل به واستقر أجداد محمد الشرقي فشهد أول نشاط صوفي لهذه الأسرة، كما تدل على ذلك قبابهم المنبثة عبر ربوعه... (5).

ذلك ان أبا القاسم والد الشرقي أنشأ أول زاوية له قريبا من «القصبة التادلية على ضفة أم الربيع في مطلع ق 10 هـ / 16 م، كما عرفت منطقة الدير المجاورة أول محاولة لتأسيس زاوية الشرقي.. اضطر بعدها إلى الانتقال إلى مكان آخر، كما اسلفنا في ذلك القول، مما يفسر أهمية إنشاء

---

(1) العبدوني : اليتيمة، ص 136.

(2) يوسف التادلي (ابن الزيات) : التشوف إلى رجال التصوف، (نشره أ. فور بالرباط) ص، 393، 415، 465.

(3) المصدر السابق، ص 176. وترجع أهمية كل من محمد بن حرزهم وعمه ابي الحسن (عاشا في النصف الأول من ق 6 هـ) إلى كونهما عملا على ادخال أفكار وكتب الغزالي الصوفية إلى المغرب، ونشرها بين عدد من الفقهاء.. إلى أن تدخلت السلطة إلى جانب الفقهاء المعارضين لآراء الغزالي، فأمرت باحراق كتبه.

(4) وهو المعروف اليوم بـ «مولاي بوعزة» دفين قرية تاغيا — كما كانت معروفة تاريخيا — وهي تقع شمال مدينة وادي الزم قريبا من «ولماس».

(5) العبدوني : اليتيمة، ص 138، 139.

زاوية جديدة في هذا الوسط الذي عرف ممارسات دينية وصوفية قديمة، وان نجاح الشرقي فيما يشبه غزوه لهذا الوسط وفرض شخصيته ونفوذه لم يكن بالأمر الهين، بل كان وليد مجهودات جبارة تنم عن قوة شخصيته وما امتاز به من عزيمة واصرار، وهو ما أكدته معظم المصادر، وما توضح من خلال مواقفه إزاء بعض الصلحاء والشيوخ سواء بالقطر التادلي أو خارجه.

أ ــ زاوية الصومعة.

الصومعة قرية صغيرة بنيت قريبا من مدينة «داي» التاريخية (بنى ملال حاليا)، وترجع كتب التاريخ شهرتها إلى شهرة أحد الأسر الدينية والعلمية التي استقرت بها وهي أسرة الشيخ أحمد بن أبي القاسم الصومعي التادلي، الذي عاش في النصف الثاني من القرن 10 هـ (6).

إلا أن زاوية الصومعة ــ أو مدينة داي ــ كانت عامرة قبل هذا التاريخ، إذ أنها عرفت نشاطاً دينيا وعلميا على الأقل منذ القرن 6 هـ حيث عاشت بها شخصيات مشهورة، أمثال يعقوب بن هارون الصديني «كان كبير الشأن من أهل العلم ومات عام 559 هـ (7)، وكذلك

---

(6) يرجع كل من الاستاذين ل. بروفنصال وم. حجي شهرة زاوية الصومعة إلى القرن 9 أو 10 هـ، حيث اشتهرت بها شخصيات دينية وعلمية مثل عبد الرحمن بن اسماعيل التادلي الصومعي مؤلف كتاب «التشوف في معرفة أهل التصوف»، والمعروف بإسم (التشوف الصغير)، إلا أن الكتاب المذكور يتضمن تراجم لشخصيات عاشت خلال القرن 10 هـ والقرن 11 هـ. مما يجعلنا نفترض أن محمد بن عبد الرحمن الصومعي تلميذ الزاوية الدلائية والمتوفي في 1123 / 1712 ابنا له. حول هذا، انظر :

ــ الصومعي : التشوف الصغير، م. خ. ع 1103 د (الرباط).

ــ ل. بروفنصال : الشرفاء ص 153.

ــ حجي م : الزاوية الدلائية، ص 121.

(7) ابن الزيات : التشوف، ص 145.

يوسف بن علي المؤذن (المتوفى في رمضان 557 هـ)» وكان عبدا صالحا ورعا، كثير البكاء والاجتهاد... (8).

مثلت زاوية الصومعة مع مطلع القرن 10 هـ محجا دينيا وعلميا لطلاب العلم والمعرفة، فقد تتلمذ بها أحمد بن أبي القاسم الصومعي ومحمد الشرقي على يد شيخها سعيد امسناو، الذي عرف بحزمه في تعليمه وتربية مريديه، وعندما توفى هذا الأخير، ورثه أحمد بن أبي القاسم في الاشراف على شؤون الزاوية، في حين أنشأ الشرقي زاوية له خاصة به...

إلا أن علاقات الشخصيتين عرفت تبدلات وتغيرات، بسبب حساسية تقارب مجال نفوذهما.

«فقد اختلفت أحوالهما وصار كل واحد منهما ينكر حال صاحبه (9)» وإذا كانت كتب الزاوية تشير في أكثر من مناسبة إلى تفوق الشرقي واسبقيته، فإن لهذا ما يبرره من عدة أوجه :

ــ إن شهرة أحمد بن أبي القاسم، كانت شهرة رجل علم وتصنيف، أكثر من شهرته كرجل تصوف (10).

ــ ترتب عن بعض مواقف ابن أبي القاسم السياسية، خاصة ابان ثورة الناصر على عمه أحمد المنصور الذهبي، ان استدعاه هذا الأخير للعاصمة مراكش في شبه إقامة إجبارية إلى أن تتوضح الأمور في شأنه (11).

ــ في حين تأكدت شهرة الشرقي الصوفية بتادلا وخارجها سواء

---

(8) المصدر السابق، ص : 146.

(9) العروسي : المرقي، : ص 53.

(10) الكتاني م : فهرس الفهارس، ج 2، ص 116.

ــ حجي م : الزاوية.. ص 121.

(11) العبدوني : اليتيمة، 26.

لدى الأوساط المخزنية أو الدينية في المدن الكبرى أو خارجها (12)، بدليل تتابع زيارات بعثات أحمد المنصور له أو وصول بعثات الشرقي إلى السلطان السعدي ترأس أحداها ابنه الغزواني.

ــ ولا شك ان أبعاد هذه الشهرة وهذا التفوق الروحي في المنطقة، تتبدى معالمه وآثاره بشكل واضح حتى يومنا هذا..

ــ وتزعم مصادر الزاوية أن القطبانية انتقلت بعد وفاة الشرقي، من هذا الأخير إلى أحمد الصومعي (13)، علما أن وفاة الأول كانت عام 1010 هـ / 1601 م والثاني عام 1013 هـ / 1604 م.

ويكتنف الغموض علاقات الزاويتين خلال معظم القــرن 11 هـ / 17 م الى أن برزت في مطلع القرن 12 هـ شخصية محمد ابن عبد الرحمان الصومعي العلمية والدينية (14)، إذ نقل عنه مؤلف كتاب المرقى بعضا من معلوماته (15).

وحدث ان عاد محمد الصومعي من حجته (عام 1100 هـ)، ولم يمر على أبي الجعد لزيارة شيخها محمد الصالح، كما كان متوقعا، إذ جعل طريقه على «قيشر (16)» قرب مدفن الصالح سيدي محمد النفادي حيث سبقته إليه وفود كثيرة من تادلا والصومعة لاستقباله والاحتفاء به، مما أثار غضب وغيرة محمد الصالح، الذي بادر إلى تعريفه بحقيقة قدره قائلا له :

---

(12) الافراني : النزهة ص 47.

(13) العروسي : المرقي، ص 60.

(14) حول ترجمته انظر : القادري م : النشر (فاس) ج 2، ص 108، 109.
ــ ابن براهيم : الاعلام، ج 5، ص 50.
ــ حجي م : الزاوية.. ص 121، 122.

(15) العروسي : المرقي، ص 23، 210.

(16) لازالت إلى اليوم تعرف بها عين ماء تسقي عددا من البساتين إلى الجنوب الشرقي من مدينة وادي الزم على طريق بني ملال عبر مدينة «الفقيه ابن الصالح».

«تادلة مملوكة للشيخ الشرقي من واد العبيد إلى تاقبالت» (17).

توفى محمد بن عبد الرحمان الصومعي عام 1123 / 1712، في حين تأخرت وفاة محمد الصالح إلى سنة 1139 هـ، وخلال هذه الفترة اكتسب هذا الشيخ نفوذا جهويا هاما خاصة بعد انخراطه في الطريقة الناصرية، وما أضفاه عليه السلطان العلوي المولى إسماعيل من مظاهر الرعاية والاحترام، مما اضطر محمد بن محمد بن عبد الرحمان الصومعي ابن الشخصية السالفة، إلى خطب وده والالتجاء اليه للتوسط بينه و بين المخزن لحل بعض مشاكله المالية (18) مع خليفة البلد القائد موسى الجرارى (19).

و بوفاة محمد الصالح تتوقف معلوماتنا عن العلاقة بين الزاويتين، الا ما كان من ورود اسم احدى الشخصيات الصومعية العلمية المقيمة بزاوية ابي الجعد، و التي تتلمذ عليها محمد المعطى بن الصالح زمن والده، وهو الشيخ العافية الصومعي (20).

ب ــ الزاوية الدلائية.

تأسست زاوية دلاء حوالي 974 هـ / 1566 على يد أبي بكر بن

---

(17) المعداني : الروض، ص 221. وتاقبالت في البربرية معناها منطقة «رجع الصدى»، وتطلق على عدة مناطق من الدير، ونعني بها هنا المنطقة الشمالية الشرقية لأبي الجعد في مقدمة مرتفعات الأطلس المتوسط على بعد حوال 50 كلم.

(18) المعداني : الروض، ص 264.

(19) توفى القائد موسى الجراري مقتولا عام 1134 هـ مع جماعة من أصحابه على يد السلطان عبد الله بن اسماعيل العلوي، وقد كان من قواد المولى اسماعيل، كما كان يخلف ابنه المولى أحمد عامله على تادلا، أثناء وجود هذا الأخير خارج منطقة ولايته.

ــ المعداني : الروض، ص 187.

ــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص 134.

(20) العبدوني : اليتيمة، ص 35.

محمد بن سعيد الدلائـي بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي (21)، وقد برزت أهمية هذه الزاوية إبان الأزمة الشاملة التي عرفها المغرب خلال النصف الأول من القرن 11 هـ / 17 م بسبب تنازع أبناء أحمد المنصور الذهبي من بعده على الحكم وما صاحب ذلك من فواجع طبيعية وكوارث تمثلت في المجاعات والأوبئة، وانفصام وحدة البلاد وتكالب القوات الأجنبية عليها...

إلا أن زاوية دلاء انتصبت في هذا الظرف الدقيق كملاد للعلم والدين «فاعتصم الاسلام منه بحصن حصين..» (22).

وترجع أهمية الزاوية الدلائية أيضا إلى كونها إحدى الزوايا الهامة التي نشأت وتطورت بالقطر التادلي، كما كانت بداية انطلاقتها متزامنة مع تأسيس زاوية الشرقي بالمنطقة، ومن تم كان لزاما أن يقع الاتصال والتماس بين الزاويتين وبين أشياخهما، خاصة وأنهما ينتسبان معا إلى مدرسة صوفية واحدة : الجزولية الشاذلية.

بدأت بوادر هذا الاتصال في عهد أبي بكر الدلائـي، فعندما كان هذا الأخير يتردد على شيخه بمراكش، حدث أن اشتكى اليه ما يحس به من «نقص» كلما مر في طريقه إليه، قريبا من زاوية الشرقي (23)، مما جعل شيخه القسطلي ينصحه بتجنب الاقتراب منه «فعاد يتجنب طريقه، ويأتي على الجبل (24)».

وقد عاود هذا «النقص» شيخ دلاء من جديد بعد وفاة شيخه القسطلي عام 974 هـ / 1566 إذ «فقد ما كان يالفه في نفسه ولم تقله أرض

---

(21) حجي م : الزاوية الدلائية، ص 30، 33، 44.

(22) الافراني : النزهة، ص 275، 276.

(23) العروسي : المرقي، ص 293.

(24) المصدر السابق، نفس المكان.

ولم تظله سماء وهام على وجهه في البرية.. (25) إلى أن وفد على الشيخ الشرقي، فتلقاه بالترحيب ودعا له بالتأييد والفتح القريب، عندها صلحت أحواله، وسار له ذكر وصيت في مختلف المحافل والأوطان (26).

وبعد أن اكتسب ابنه ووارثه محمد بن أبي بكر قدرا كبيرا من العلم الظاهر، تاقت همته إلى سلوك طريق القوم، فراح يطوف على صلحاء المغرب آنذاك دون أن يلتفت إلى شيخ زاوية أبي الجعد، فلم يدرك مطلبه ولا نال قصده إلا بعد أن تتلمذ على الشيخ الشرقي وصحبه. (27)

تنبه الشرقي قبيل وفاته بقليل إلى ما يمكن أن يحدث من اختلال في التوازن بالمنطقة بعد اختفاء شيخي الزاويتين الدلائية والشرقاوية، فاقدم على ما يشبه توزيع النفوذ والمهام بين اثنين من أبنائه وواحد من أخص مريديه ونعني به محمد بن أبي بكر الدلائي (28) إلا أن هذه القسمة كانت تتضمن في حد ذاتها عناصر التنافس والصراع، ولذلك أوصاهم بقوله :

«ياصاحب العصا احذر من صاحب الشقور، وياصاحب القدرة احذر من صاحب العصا..» (29)

ولذلك لم تتيسر الأمور للزاوية الدلائية بتادلا إلا بعد وفاة كل من عبد السلام والغزواني أشهر أبناء الشرقي. (30)

---

(25) الافراني : النزهة، ص 275.

(26) العروسي : المرقي، ص 293.

(27) العروسي : المرقي، ص 292.

ـــ الافراني : النزهة، ص 276.

ـــ حجي م : الزاوية الدلائية، ص 77، 81.

(28) حول هذه القسمة، انظر : مريدو الزاوية، وكذلك المرقي، ص : 282.

(29) العروسي : المرقي، ص 292.

(30) المصدر السابق، نفس المكان.

وبوفاة محمد بن أبي بكر الدلائـي 1046 / 1636 أظهر ابنه محمد الحاج نزوعا إلى الملك والرئاسة مما أثر في جو التفاهم بين الزاويتين بسبب علاقات زاوية أبي الجعد الطيبة مع الأسرة السعدية، خاصة بعد انهزام محمد الشيخ السعدي في واقعة أبي عقبة عام 1050 هـ. وامتداد نفوذ محمد الحاج إلى كل من فاس ومكناس انطلاقا من بلاد تادلا، مركز نفوذ الزاوية الشرقاوية.

وقد ترددت أصداء هذا التحول في احدى المكاتبات التي وقعت بين محمد الحاج وسيدي محمد المفضل أحد أحفاد الشرقي (31)، الذي اضطر إلى النزوح من زاوية جده إلى ناحية سلا في هذا الظرف.. فكتب إليه مذكرا اياه إن الدنيا لا تصفو لاحد مشاربها، وان من سره زمن ساءته أزمان (32).

أَمَنْ شَرَح الزْمَانِ وانْسَا كَلّ اغْيَارْ
يَامَن يَحْسَبْ مَنْزَلْ مَالُ تَبْدِيلْ
السَّطْو والْعَزْ كَمقَام أَهَلْ الدَّوَارْ
يَرْحَلْ لَوْ يقِيمْ سَانَ أو قْلِيلْ (33)

وبالفعل فقد كانت دورة الدهر سريعة، ففي عام 1079 / 1663 م هزم السلطان العلوي المولى الرشيد قوات الدلائيين في معركة بطن الرمان ؛ ترتب على إثرها سقوط الامارة الدلائية، وتخريب دار ملكهم وقرارهم واجلاء جموعهم.

إن هذه الأحداث لم تكن لتضع حدا فاصلا لاتصال أفراد

---

(31) سترد ترجمته في ما بعد.

(32) المصدر السابق، ص 287.
ـ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص 103.

(33) العروسي : المرقي، ص 287. وهي بالكلام الملحون.
ـ الشرقاوي ع : الفتح، ص 135.

الزاويتين، فقد أوردت مصادر الزاوية إسم محمد بن يوسف الدلائـي كاخص أصحاب الشيخ محمد الصالح، فقد كان فقيها وعالما ووليا صالحا، ضم جهوده إلى جهود شيخه في إعادة تجديد زاوية أبي الجعد وتعميرها، كما كان أحد أطر الزاوية العاملة بها (34)، وعندما توفى شيخه وتولى بعده محمد المعطي أمور زاوية أبي الجعد، دعا الفقيه الصالح محمد بن يوسف الدلائـي أهل تادلة إلى الاسراع والتسابق في محبته والتكتل حوله، إذا أرادوا لأنفسهم السلامة في الدنيا والآخرة. (35) وقد واصل أبناء هذه الشخصية الدلائية العيش من بعده في كنف الزاوية على الأقل حتى أواخر القرن 12 هـ (36).

ثانيا : الزاوية الناصرية :

تأسست الزاوية الناصرية بتامگروت على ضفاف وادي درعة جنوب الأطلس الكبير، على يد أبي حفص عمر بن أحمد الانصاري عام 938 / 75 ــ 1576، وقد واصلت نشاطها الديني في عهد حفيده أحمد بن إبراهيم الانصاري. (37) مع شيخه عبد الله بن حسين الرقى ؛ والى هذا التاريخ يعود اتصال أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي بزاوية تامكروت، حيث نزل بها عام 1040 هـ / 30 ــ 1631 للتلميذ على شيخها وأخذ الطريقة الشاذلية عنه، فأصبح من أبرز مريديها وأطرها التعليمية.

تــوفي عبد الله بن حسين عــام (1045 / 35 ــ 1636) وخلفه

---

(34) العبدوني : اليتيمة، الصفحات : 56، 61، 347.
ــ المعداني : الروض، الصفحات : 189، 246، 317.

(35) العبدوني : اليتيمة، ص 173.

(36) المعداني : الروض، ص 257.

(37) ترجم له : محمد المكي الناصري : «الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة» م. خ. ع. الرباط رقم 265 ك، ص 11.

في مشيخة الزاوية أحمد الأنصاري، إلا أنه سرعان ما قتل من طرف أحد زعماء درعة عام 1052 / 1642، فآلت أمور الزاوية للشيخ محمد ابن ناصر الذي تنسب الزاوية إليه. فبذل جهده وراحته في سبيل نشر العلم بها وهداية الناس إلى سواء السبيل، وتحمل في سبيل ذلك أنواعا من المحن... (38)

تتلمذ للزاوية الناصرية كثير من رجالات المغرب أمثال الامام الحسن اليوسي والرحالة أبي سالم العياشي.. كما تجاوزت شهرتها حدود البلاد إلى المشرق العربي، فكثر اتباعها والأخذون عليها، مما جعلها تصبح معلما من معالم العلم والهداية في مغرب والنصف الأول من القرن 11 هـ / 17 م إلى جانب كل من الزاوية الدلائية وزاوية عبد القادر الفاسي (39).

خلف أحمد بن محمد بن ناصر (40) والده في تسيير شؤون الزاوية بعد وفاة هذا الأخير عام 1085 / 74 ــ 1675، وفي عهده انتشرت الزوايا الناصرية التابعة لها في مختلف بلاد المغرب سهوله وجباله.. ويرجع سبب هذا الانتشار الواسع للطريقة الناصرية إلى بساطة تعاليمها، التي تراعي أحوال المريدين ومستواهم الفكري؛ فتعددت اذكارها مع حرصها التام على إلتزام الكتاب والسنة (41).

وقد كتب الامام أبو محمد عبد القادر الفاسي إلى الشيخ بن ناصر يقول :

«نعتقد ان الطائفة المشار لها في حديث الصحيح، لا تزال طائفة من

---

(38) حجي م : الزاوية الدلائية، ص 58.

(39) المرجع السابق، ص 56.

(40) حول ترجمته مع مصادرها انظر : الأخضر : الحياة الأدبية، ص 172 وما بعدها.

(41) حجي م : الزاوية الدلائية، ص 58.

أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة عندكم (42)».

وإذا كان تأسيس الزاوية الناصرية قد تم في نفس الفترة التاريخية التي تأسست فيها زاوية أبي الجعد، إلا أن الاتصال بينهما قد تأخر إلى ما بعد هذا التاريخ أي إلى عهد الشيخ محمد المعطي بن عبد الخالق حفيد أبي عبد الله الشرقي (المتوفى 1092 هـ)، ذلك أن شيخ الزاوية الناصرية آنذاك أرسل إلى ابن عبد الخالق يدعوه لصحبته والانخراط في سلك طريقته، فأجابه هذا الأخير، بأنه قد ادرك غايته في طريق القوم، ولم يعد يحتاج إلى أحد.. (43).

إلا أن علاقات الزاويتين بعد ذلك توطدت وتدعمت في عهد الشيخين أحمد بن ناصر ومحمد الصالح الشرقاوي، فقد بعث هذا الأخير إلى شيخ الزاوية الناصرية كتابا يطلب منه فيه الاذن بالانخراط في طريقته، «فقد ورد علينا كتابك فتلقيناه بالقبول والاقبال.. وما ذكرت انك اردت الدخول في الزمرة الناصرية مرحبا بك وأهلا وسهلا، صحح التوبة بشروطها وقل كل يوم استغفر الله مائة مرة..» (44).

تعددت بعد ذلك مكاتبات الشخصيتين، إلى أن عزم شيخ زاوية أبي الجعد في نهاية المطاف على زيارة شيخه بتامكروت متحملا في ذلك كل المشاق والمتاعب، لينهل من منبع الزاوية العلمي والصوفي ثم رجع بعد ذلك لزاويته لنشر تعاليم الطريقة، التي لاقت قبولا وصدى بعيدا في أوساط المجتمع التادلي لقربها من اذهانهم وفطرتهم البدوية، وخلوها من كل تعقيد.

---

(42) الكتاني : فهرس الفهارس، ج : 2، 89، 90.

(43) الشرقاوي ع : الفتح الوهبي، ص 136.

(44) المعداني : الروض، ص، 95 إلى 98.

— العبدوني : اليتيمة، ص 197 وما بعدها.

توفي الشيخ أحمد بن ناصر في عام 1129 / 1717، وتزعم المصادر الخاصة بالزاوية، أن الشيخ محمد الصالح هو الذي ورث القطبانية من بعده (45)، كما ورث مسؤولية نشر طريقته في مختلف أنحاء البلاد. فوفدت عليه جموع من العلماء المنقطعين للعبادة بزاويته، ومن بينهم سيدي الحسين بن محمد شرحبيل الذي يعتبر من خاصة أصحاب أحمد ابن ناصر، فأقام مدة بزاوية أبي الجعد بإحدى الغرف المعدة لضيوفها قرب ضريح الشيخ محمد الشرقي. وعندما عزم على الرحيل،

«أخرج له سيدي محمد الصالح من تحت أبطه عمامة وشدها له على رأسه.. وقال له : هذه العمامة لولدنا المعطي، ولابد أن تردها له إذا قضيت مرادك منها، وصرفه إلى مكانه الذي استقر فيه (46)».

وعندما قربت وفاة الشيخ محمد الصالح، دعا ابنه المعطي إليه وقال له :

«هذه الطريقة الناصرية دقت ورقت وقل أربابها حتى كادت ان تنقطع و لم توجد إلا في هذا المكان فأبذل جهدك في تحصيل شروطها.. ولقنه ورد جده.. والورد الناصري واذن له في تلقين جميع ذلك كله.. (47)».

وإذا كان الشيخ المعطي قد ورث الطريقة الناصرية وقطبانيتها عن والده وبواسطة ابن شرحبيل، فإنه لم يخص بأورادها إلا العامة من اتباعه ومريديه (48).. في حين كان انتساب محمد العربي لنفس الطريقة بواسطة محمد بن أبي القاسم الفيلالي في بداية حياته الصوفية والعلمية. (49)

---

(45) العبدوني : اليتيمة، ص 211.

(46) العبدوني : اليتيمة، ص 73.

(47) المصدر السابق، ص 182.

(48) القادري م : النشر، ج 2، ص 116 (فاس).

(49) الشرقاوي ع : الفتح الوهبي، ص 256.

ثالثا : الزاوية الفاسية.

تنسب هذه الزاوية إلى مؤسسها الشيخ أبي المحاسن يوسف بن محمد ابن يوسف الفهري الأندلسي، وهو «أحد جدود أسرة من أعرق أسر حاضرة فاس وأمضاها نفوذا، امدت المغرب منذ القرن 16 م بعدد عظيم من العلماء والقضاة ورجال السياسة (50)».

ولد أبو المحاسن بالقصر 938 هـ / 40 — 1541 م، وتردد أثناء تعلمه على فاس لحضور حلقات العلم بها إلى أن انتقل إليها بصفة نهائية عام 988 هـ / 80 — 1581 م، وأسس زاوية بمنزله بحي المخفية بعدوة الأندلس، كما شارك في معركة وادي المخازن إلى جانب بقية المجاهدين عام 986 / 1578. (51). وكانت وفاته في 18 ربيع الأول 1013 / 14 غشت 1604 ودفن بفاس خارج باب الفتوح.

وقد تأسست زاوية فاسية أخرى من طرف أفراد أسرة الشيخ أبي المحاسن بحي القلقليين، وهي التي عرفت إزدهارا وتوسعا في عهد الشيخ عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن الفاسي على عهد المولى إسماعيل، كمركز علمي وديني استفاد وتخرج منه العديد من العلماء والصلحاء.

وترجع علاقة الزاوية الفاسية بالزاوية الشرقاوية إلى عهد التأسيس على اعتبار أن تأسيسهما معا كان في النصف الثاني من القرن 10 هـ / 16 م.

وقد تأكد هذا الاتصال في أواخر حياة مؤسيسهما في وقت بلغت فيه الزاويتان شهرة كبيرة، ذلك أن أصداء نفوذ الشرقي تجاوز تادلا إلى العاصمة العلمية فاس مما اثار فضول وتساؤل بعض خاصتها وهو ما يمكن

---

(50) ل، بروفنصال : م. الشرفاء، ص 168.

(51) الافراني : النزهة، ص 75.

استنتاجه من مكاتبات الشخصيتين (52) التي احتفظ لنا بقسم منها كل من صاحب الممتع ومؤلف المرقي (53). وبذلك شكلت هذه المراسلة المهمة (54) محور ومصدر معلوماتنا عن العلاقة بين الزاويتين أواخر القرن 10 هـ أي قبيل وفاة الشيخين بقليل.

يقدم أبو المحاسن لرسالته بملحونة على وزن وقافية ملحونة الشرقي (55) التي قدم بها لخطابه، في شكل معارضة أدبية وصوفية في آن واحد.. بعدها ينوه بمكانة وخصال الشرقي ورسوخه في طريق القوم.. لينتقل بعد ذلك إلى ذكر دواعي المكاتبة :

فقد نقل إلى الشرقي عن أبي المحاسن كلام، «قد حمل على غير وجهه» ووقع سوء في فهمه وتدبره، وترتب عن ذلك أن جاء جواب الشرقي ورد فعله مسايرا لسياق ظاهر الكلام..

برر أبو المحاسن دواعي قولته : «ما عليكم إلا بركة والدكم» بسبب اختلاف الناس حول حقيقة ما بلغته زاوية الشرقي من ثراء وجاه ونفوذ.. هل من بركة شيخها ؟ أم من مصدر آخر. ؟، خاصة أن العادة جرت بعزوف صالحي الأمة وزهادهم في الدنيا ومتاعها.. وحتى يدفع كل التباس عن الناس، بَرَّرَ ذلك بما كان لوالد الشرقي، وما اشتهر به من خير

(52) اشار مؤلف (مرآة المحاسن) إلى هذه المكاتبات باقتضاب دون أن يفصل فيها الحديث، كما تجنب الخوض فيها، الافراني في الصفوة.
— الفاسي : م. ع : المرآة، الورقة 146/ب.
— الافراني : الصفوة، ص 26.

(53) نظرا لأهمية المراسلة وقع ادراجها في الملحق رقم 2.

(54) بقي من هذه المراسلات : ملحونة للشرقي يظهر أنه قدم بها لخطابه لأبي المحاسن، وإذا كان خطاب الشرقي لا نعرف عنه أي شيء ما عدا الملحونة، فإن جواب أبي المحاسن يتضمن بعض الأفكار الرئيسية التي حملها خطاب الشرقي إليه، والتي دار حولها النقاش.

(55) انظر ملحونة الشرقي في القسم المتعلق بانتاج الزاوية الفكري (الملحونات) في الباب الثالث.

عميم وصلاح متفق عليه، وان ظهور آثار ذلك كله على الشرقي دون اخوته، معناه سريان سره فيه وبركته عليه، وهذا لا يعني نفي الخصوصية عليه باعتباره واحدا من كبار أشياخ أهل الطريقة الذين يهتدى بصحبتهم.

ينتقل أبو المحاسن بعد هذا لاستعراض ما جاء في خطاب الشرقي ثم انتقاده بطريقة مؤذبة، فهو يستبعد ما صدر عن الشرقي في حقه من تجريح وتنقيص، وأن ذلك ربما يكون قد صدر عنه، وهو في شبه غفلة من أمره أو بسبب سنة جرت عليه «والنسيان ليس ببدع في الانسان» فإذا كان الشارع قد نهى عن التباهي والتفاخر والمماراة بين عباده المومنين العالمين باحكام الكتاب والسنة، فإن أبا المحاسن، يستبعد أن يكون مثل ذلك قد صدر عمن اصطفاهم الله إلى جواره، وآنسهم بقربه ومحبته «فهي قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع.»

وعلى اعتبار صحة أو عدم صحة ما قاله الشرقي في حقه :

«إن أهل الظاهر رضوه وأهل الباطن لم يرضوه»

يعرض أبو المحاسن على الشرقي بعضا من خصائص تجربته الروحية والصوفية وما عاناه خلالها من حالات الشهود، وأنه على ذلك ممن «جذبهم» الله إليه واختارهم لمحبته.

ويختم خطابه ملحا كل الالحاح على الشرقي في أن يقول رأيه في مقامه ومكانته الصوفية، بعد أن باح له بأسراره، لأن ذلك غايته من خطابه، وبذلك يزول كل لبس أو خلاف بينهما. إلا أننا مع الأسف لم نعثر على جواب الشرقي ورده بل ورأيه النهائـي في مخاطبه.

وهذا لا يمنع من ابداء بعض الملاحظات حول مضمون المراسلة.

ــ فبغظ النظر عما يمكن أن نبديه من تحفظ أولي إزاء ما ورد في الرسالة، على اعتبار أنها وردت في كتاب ممتع الاسماع من تأليف أحد أفراد الأسرة والزاوية الفاسية البارزين، وأن موضوعها يتعلق بمؤسس

الزاوية، إلا انه وجب الاقرار بامانته التاريخية التي أبت عليه إلا أن يسوقها دون تبديل أو تغيير أو تحريف، مع أنه قدم لها وختمها بآراء شخصية توضح أن هواه مع أبي المحاسن، وهذا هو عنصر الخلاف الرئيسي بينه وبين مؤلف المرقي، وليس مضمون الخطاب الذي يتفق عليه المؤلفان.

— إن المراسلة تطرح وتؤكد ما عرفت به شخصية الشرقي من طموح وغيرة، خاصة إذا وصل الأمر إلى حد الطعن في منصبه ومكانته، حتى ولو كان الأمر لا يعدو أن يكون مجرد وشاية كاذبة.. ففي الوقت الذي يعترف لأبي المحاسن بتفوقه العلمي (العلم الظاهر)، ينكر عليه كل ادعاء أو انتساب إلى زمرة أهل التصوف والصلاح، ومن تم يجرده من كل إمكانية إصدار الاحكام أو إعطاء رأيه في موضوع ليس من اختصاصه.. ومع ذلك، فهو لا يرى مانعا في أن يقترح عليه سلوك الطريق على يديه حتى لا تفوته فرصته، باعتباره أحد كبار شيوخ التصوف إن لم يكن قطبهم،»

«بَادْرَكْ يِفُوتْ عَنَّكْ وَقْتْنَا (56)»

— حرص أبو المحاسن على تصنيف نفسه، من خلال تجربته الروحية ضمن جماعة «المجاذيب»

«ذلك أن المجذوب المتدارك بالسلوك أعلى وأمكن لكون عبوره على المقامات، والتحقق بها على بصيرة وبينة من ربه، مصحوبا بالنور الكاشف..» (57)

ومن تم يضع نفسه في موضع الند للند بالنسبة للشرقي أو أقرب إلى

---

(56) الفاسي م م : الممتع، ص 124.
— العروسي : المرقي، ص 54.

(57) عبد الرحمان الفاسي : (ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب) م. خ. ع. (الرباط) رقم 326 ك، ص 96.

ذلك، على اعتبار أن الوصول إلى مرتبة المشيخة الصوفية يتطلب الجمع بينهما..

وهذا يوضح ما أصبحت تطرحه الزعامة الصوفية من اشكال في مغرب القرن 10 هـ، وان ادعاء أحدهم المشيخة أو القطبانية يؤدي إلى إثارة حساسيات أشخاص آخرين لهم نفس التطلعات، بيد أن هذا التفوق الروحي أصبح له من النفوذ الاجتماعي المادي والمعنوي ما يبرره ويزكيه.

ــ أثار كل من مؤلف «الممتع» و«المرقي» مشكلة الأحقية والأسبقية أي من له التقدم على الآخر : الشرقي أم أبو المحاسن ؟

فقد زعم محمد المهدي الفاسي، أنه بعد هذا الخطاب اعترف أبو عبيد الله الشرقي لأبي المحاسن بالتقدم عليه، قائلا :

«هذا صاحب الوقت وشيخ الطريقة ورأسي تحت قدميه» (58)

وحتى يكسب لرأيه مزيدا من التدعيم استعان بآراء أخرى لبعض أفراد الأسرة الفاسية.

فقد «قيل للشيخ العارف بالله سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي» (ر) : ما بال سيدي يوسف عرف سيدي محمد الشرقي، وسيدي محمد الشرقي لم يعرف سيدي يوسف، فقال :

«هؤلاء الناس كأهل الجنة، الأعلى يرى مقام الأدنى والأدنى لا يرى مقام الأعلى» (59).

وهذا الادعاء انكره بالمرة «صاحب المرقى»، وعزاه إلى تحيزه وتجنيه على الحقيقة مفندا أقواله واحدا واحدا (60) على اعتبار أن ذلك يناقض بالمرة منصب الشرقي كقطب في عصره.

---

(58) الفاسي م م : الممتع، ص 128.

(59) المصدر السابق، ص 128.

(60) العروسي : المرقي، ص، 58 إلى 65.

في حين وقف كتاب آخرون من ذلك موقف المحايد، ففي الوقت الذي يقتصر فيه بعضهم على إبراز خصائص وصفات ومنصب أبي المحاسن كما وضح ذلك نفسه من خلال رسالته (61)، اكتفى البعض الآخر بالاشارة إلى ما كان بين الشخصيتين الصوفيتين البارزتين من مراسلات ومحاورات (62).

ــ وبالرجوع إلى مضمون الراسلة بمعزل عن تدخلات وآراء مؤلفي الممتع والمرقى، فإننا نلاحظ ونستبعد أن يكون موضوعها قد بحث بشكل مباشر قضية الاسبقية والتقدم، وان ذلك من تبعات وذيول الحادث، حيث استؤنف النقاش في عهد الخلف حول أبعاد ومرامي ما كان بين الشخصيتين من مراسلات، بدليل ما أقر به أبو المحاسن للشرقي من تقدم ورسوخ في طريق القوم والحاحه عليه الأكيد في معرفة رأيه فيه ونصيحته له،

«عسى أن يكون ذلك فتحا للباب وسببا للمعرفة..» (63)

ولا شك أن هذا الواقع الذي تطرحه الرسالة قد أربك صاحب الممتع وجعله يلتمس لاستنتاجاته مخرجا بعيدا كل البعد عن الاقناع مثل ذلك قوله : «ويقال إنه وجه إليه (ويعني الشرقي إلى أبي المحاسن) جماعة من أعيان أصحابه لزيارته نائبين عنه.. والله أعلم، ولا يمكن أن يكون لم يجاوبه عن كتابه، لا بكتاب ولا مع رسول..»

وقد برر هذا التشكك والنقص في معلوماته إلى عدم اطلاعه على كل ما كتب سيدي يوسف، «وانما دخلت بأيدينا منها ورقات من وراء

---

(61) الفاسي ع : الابتهاج، ص 93 إلى 96.
(62) الفاسي م ع : المرآة، الورقة 146 / ب.
ــ الافراني : الصفوة، ص 26.
(63) الفاسي م م : الممتع، ص 128.
ــ العروسي : المرقي، ص 58.

وراء.. (64)». إلا أنه في نهاية المطاف لم يجد حرجا في تعليل موقف الشرقي وما صدر عنه بكونه :

«كان في ذلك الوقت أحد الامامين وان من كان كذلك ربما ظن أنه القطب..» (65).

ويظهر أن أهم ما يستخلص من الحادث هو، تأكيد مكانة وأهمية الشرقي كأحد أبرز صلحاء منطقة تادلا، وأن هذه الشهرة تجاوزت اطارها الجهوي إلى عواصم المملكة الكبرى، بل كان للشرقي من الغيرة والثقة بالنفس ما جعله يتصدى بقوة وبسرعة لكل محاولة تريد التقليل من أهميته مهما كان حجم ومصدر هذه المحاولة.

لكن هل أثر الحادث في علاقات الزاويتين فيما بعد ؟ أي بعد اختفاء كل من الشرقي وأبي المحاسن.. ان ما سبقت الاشارة إليه حول حياة خلفاء الشرقي من أحفاده، يؤكد زوال أي أثر لذلك ؛ فقد تتلمذ أبو عبد الله محمد المعطي بن عبد الخالق بفاس على عالمها وشيخها عبد القادر الفاسي، كما درس محمد الصالح مجدد الزاوية الشرقاوية على ابنه محمد بن عبد القادر الفاسي (المتوفى 1116 هـ) وتبودلت بين الشيخين فيما بعد مراسلات وخطابات سأله الشيخ محمد الصالح في إحداها من جملة ماسأله، عن التصوف عامة، ووضع التصوف والمتصوفة في عصرهما (66).. كما ان مؤلف المرقي الذي يعتبر أول مؤلف حول تاريخ الزاوية ؛ نقل قسماً هاما من تراجمه عن كتابي الممتع والمرآة.

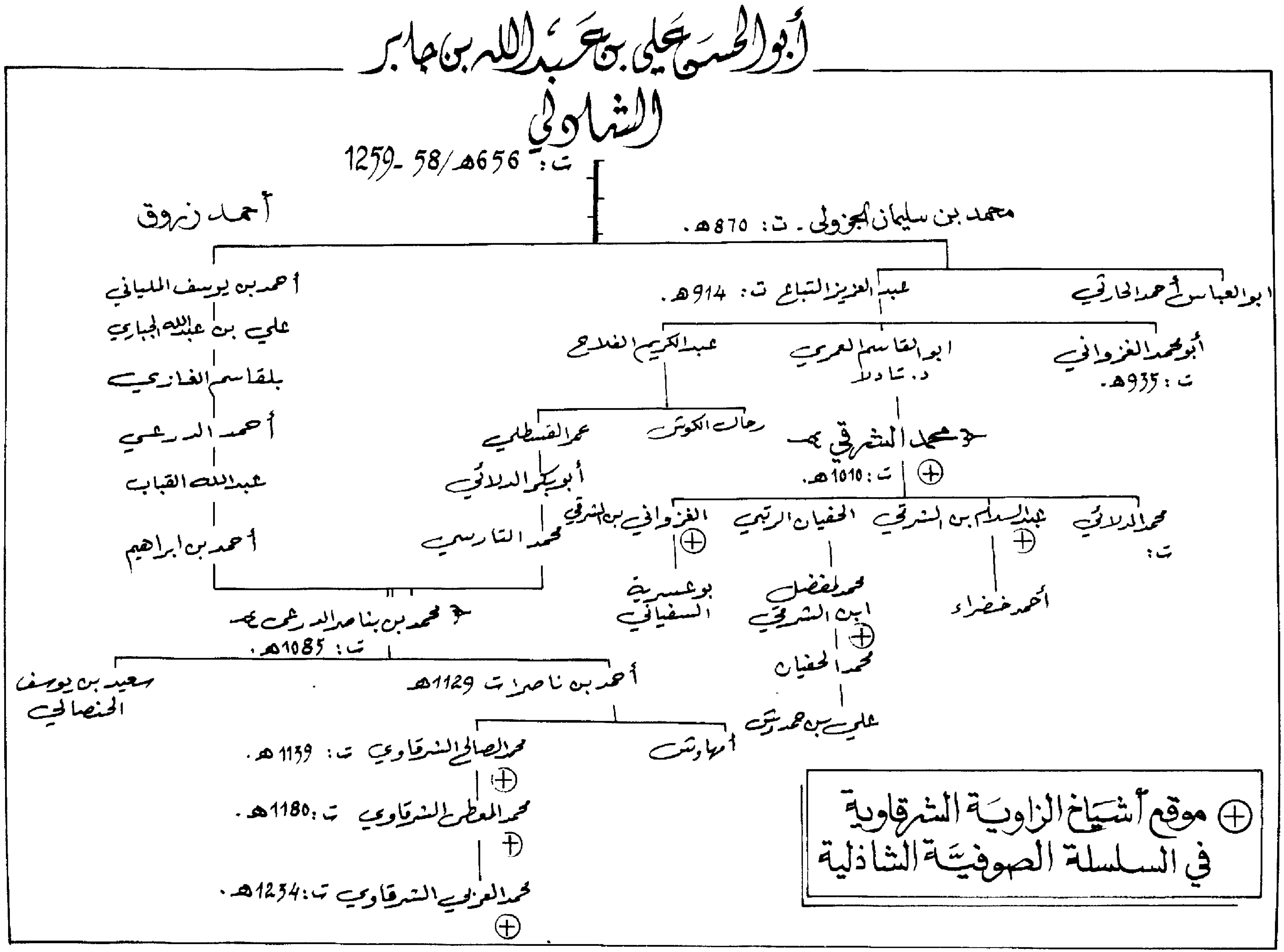
ولا شك أن علاقات شيخي الزاويتين الحسنة في هذا الابان هي التي دفعت بالبعض من أفراد الزاوية الفاسية إلى أن يضرب صفحا عما دار

---

(64) الفاسي م م : الممتع ص 128.

(65) المصدر السابق، ص 129.

(66) المعداني : الروض، ص 335 وما بعدها.



أبو الحسن علي بن عبد الله بن جابر الشاذلي
ت: 656هـ/58 -1259
محمد بن سليمان الجزولي . ت: 870هـ.
أحمد زروق
أبو العباس أحمد الحارثي
عبد العزيز التباع ت: 914هـ.
أبو محمد الغزواني ت: 935هـ.
أبو القاسم الغربي د. تادلا
عبد الكريم الفلاح
محمد الشرقي ت: 1010هـ.
رجال الكوثر
عمر القسطلي
أبو بكر الدلائي
محمد التارسي
محمد الدلائي ت:
عبد السلام بن الشرقي
الحفيان الرتبي
الغزواني بن الشرقي
أحمد خضراء
محمد المفضل ابن الشرقي
محمد الحفيان
علي بن محمد
بوعسرية السفياني
أحمد بن يوسف الملياني
علي بن عبد الله الجباري
بلقاسم الغازي
أحمد الدرعي
عبد الله القباب
أحمد بن ابراهيم
محمد بن ناصر الدرعي ت: 1085هـ.
سعيد بن يوسف الحنصالي
أحمد بن ناصر ت 1129هـ
أمهاوش
محمد الصالح الشرقاوي ت: 1139 هـ.
محمد المعطى الشرقاوي ت: 1180هـ.
محمد العربي الشرقاوي ت: 1234هـ.
موقع أشياخ الزاوية الشرقاوية في السلسلة الصوفية الشاذلية

بين الشرقي وأبي المحاسن، وإن تجرؤ محمد المهدي الفاسي للخوض في هذا، ربما كانت له دوافع ونوازع ما.. وهو ما دفع بصاحب المرقي، تلميذ ومريد محمد الصالح إلى الرد عليه وتفنيد آرائه واستنتاجاته الخاطئة.

إلا أننا بعد ذلك لم نعثر على أي اتصال بين أفراد الزاويتين سواء في عهد الشيخ محمد المعطي أو ابنه محمد العربي خلال معظم القرن 12 هـ.

الباب الثالث

○ ○ ○

النشاط العلمي للزاوية

الفصل الأول : مرحلة التأسيس.

الفصل الثاني : مرحلة الاشعاع.

الفصل الثالث : بداية الخفوت.

الفصل الرابع : التراث الفكري للزاوية.

النشاط العلمي للزاوية

قامت زاوية أبي الجعد بوظائف تعليمية وعلمية هامة، هذا إلى جانب نشاطها الصوفي الذي اشتهرت به... إلا أن مساهماتها الفكرية ظلت حبيسة المخطوطات والوثائق الدفينة، دون أن يلتفت إليها أحد سواء أولائك الذين أرخوا لتاريخ الفكر في العهد السعدي أو العلوي على الخصوص، حيث أن دورها العلمي، ومساهماتها الفكرية برزت أكثر في العصر الأخير.

وتطمح هذه الدراسة من جملة ما تطمح إليه إلى إعطاء فكرة عن دور زاوية أبي الجعد في هذا المجال. ومما تجدر الاشارة إليه، أن هذا النشاط قد ارتبط في معظم أطواره بما تعارفت عليه المصادر بـ «مدرسة الشيخ الشرقي»، ومع مطلع القرن الثالث عشر الهجري برزت مؤسسة جديدة، هي «مدرسة جامع مولاي سليمان» اقترن تأسيسها ونشاطها بحياة محمد العربي بن المعطي، الذي بوفاته عام (1234 هـ)، دخل نشاط الزاوية العلمي ككل في مرحلة خفوت واضح.

الفصل الأول

النشاط العلمي في مرحلة التأسيس

تمركز النشاط الديني والعلمي خلال هاته المدة في المدرسة ـــ الزاوية، التي أنشأها أبو عبد الله محمد الشرقي بأبي الجعد القديم (رجال الميعاد) ؛ وهي الفترة التي شهدت معظم حياة مؤسس الزاوية خلال النصف الثاني من القرن 10 هـ إذ اشتهرت الزاوية آنذاك بأهميتها الصوفية على المستوى الوطني، دون ذكر لنشاطها العلمي.. إلا ان هذا لا يمنع من تصور مستوى معين لهذا النشاط، بدليل ما أقامه محمد الشرقي من بنايات ومرافق إلى جوار المسجد من أجل إيواء الطلبة والوافدين من مختلف أنحاء القطر التادلي وخارجه، إما بهدف أخذ نصيب من العلم، أو سلوك طريق التصوف على يد شيخ الزاوية، إلا أن التربية الصوفية نفسها كانت تتطلب مستوى معين من الثقافة الاسلامية السائدة، ويؤكد هذا مستوى شيخ الزاوية العلمي الذي لم يطعن فيه أحد من المعاصرين أو المنافسين، وكما يستدل على ذلك من سياق حياته التعليمية، فبعد تتلمذه على والده، بعثه إلى الصومعة لاتمام تعليمه إلى أن تخرج منها في وقت قريب من تخرج أحمد بن أبي القاسم الصومعي، رحل بعدها إلى مراكش ليأخذ على كبار علمائها سواء تعلق الأمر بعلم الشريعة أو علم الحقيقة.

ويظهر أن الشيخ واجه بعض المصاعب في بداية نشوء الزاوية، خاصة حاجته للأطر المساعدة لبث العلم بسبب مشاغله المتعددة، كرجل تصوف وصلاح أيضا (1). وهذا يفسر اهتمامه بتكوين أبنائه العلمي إذ أرسلهم للتتلمذ على كبار الأشياخ والعلماء في عواصم البلاد، خاصة جامعة القرويين بفاس، ليرجعوا إلى الزاوية للمساهمة بجوار والدهم في تعمير مجالسها وحلقات الدراسة بها.

حاول أبو عبد الله الشرقي بعد انتقاله إلى أبي الجعد الحالي في مطلع القرن 11 هـ ان يؤمن استمرار نشاط الزاوية ؛ إلا أن وفاته العاجلة لم تحل دون تحقيق رغبته، ذلك أن ابناءه من بعده واصلوا هذا العمل باعتبارهم أحد أطر الزاوية في عهده والمكلفين بعده بشؤونها، وعلى رأسهم ابنه محمد الغزواني الذي تخرج على أحد كبار فقهاء العصر، وهو الامام أحمد المنجور بفاس (2)، كما ان أخاه محمد المكناسي، كان إلى جانب ورعه وصلاحه، عالما وفقيها.

«أخذ (ر) صحيح البخاري في طلعته للمشرق على بعض أعيان علماء مصر من ذرية العارف بالله أبي عبد الله سيدي محمد بن حمزة وكتب له الاجازة في ذلك.. وعمم له في جميع ما يصح عنه روايته.».

وانه ادرك العلم الظاهر والباطن وهو ابن بضع وثلاثين (3) في حين

---

(1) تشير بعض الدراسات إلى أن الشيخ الشرقي كان في بداية الأمر يدرس بمفرده بالزاوية، حيث كان يلقن تلامذته بعض العلوم مثل الفقه والنحو والأدب، فيما كان أحد الفقهاء وهو كاتبه الخاص يعلم الأطفال القرآن الكريم... إلا أن هذه المعلومات لم نجد لها صدى في المصادر التي اعتمدناها حول تاريخ الزاوية.

ـ انظر حول هذا :

— Cimetiere ; Notice sur Boujad;.. p : 279.

— NieGle ; La Medersa et les bibliotheques de Boujad... p : 290.

(2) العروسي : المرقي، ص 212 / العبدوني : اليتيمة، ص 104.

(3) العروسي : المرقي، ص 284 / العبدوني : اليتيمة، ص 119.

كان الشيخ أحمد المرسي بن الشرقي عارفا بالحديث وأحكام الكتاب العزيز، وقد وجد بخطه أنه ختم صحيح البخاري بضعا وعشرين ختمة، وكان، «ذا صوت حسن، حدث عنه ان بعض الناس مر بداره ليلا فسمعه يقرأ القرآن، فما مرت به آية وعيد إلا وصاح صيحة عظيمة، توذن بشدة خوفه وكمال يقينه.. (4)».

ويظهر أن هذا النشاط العلمي عرف خفوتا ملحوظا في مرحلة لاحقة من القرن 11 هـ، بسبب مشاكل البلاد عامة، ونتيجة لسطوع نجم زاوية دلاء في المنطقة في عهد شيخها محمد بن أبي بكر، اذ أن شهرتها وإشعاعها عم سائر البلاد بما في ذلك العواصم العلمية التقليدية مثل فاس (5).

لقد طغت الشهرة الصوفية للزاوية خلال هاته المدة على النشاط العلمي المتواضع بها، والذي لم يكن بإمكانه أن يرقى إلى مستوى ما كان سائدا بزاوية الصومعة في عهد شيخها أحمد بن أبي القاسم وكذا ما عرفته زاوية دلاء في عهد أبي بكر الدلائـي من نشاط علمي هام. إلا أن هذا لم يمنع زاوية أبي الجعد من أن تسد فراغا محليا يتمثل في تبليغ قدر من مبادئ الدين والعلوم الاسلامية إلى جموع المتعطشين والبعيدين عن مراكز التعليم الكبرى ؛ لما لذلك من كبير الأثر في تجديد معالم الايمان والدين الصحيحين، بعد فترة من الاضطراب الاجتماعي والفكري والديني (6).

---

(4) العروسي : المرقي، ص 284.

(5) حجي م : الزاوية الدلائية، ص 71.

(6) تردت أوضاع المغرب العامة أواخر الدولة المرينية وفي بداية القرن 10 هـ.. فبالاضافة إلى الاضطراب السياسي الذي زاد من حدته الغزو المسيحي الصليبي لشواطئ البلاد.. عرفت الحياة الاجتماعية والدينية تدهورا عاما تمثل في جهل العامة لأبسط تعاليم الدين الاسلامي الصحيح، وفسح المجال للشعوذة والسحر وشيوع أقبح العادات مثل شرب الخمر... كما حلت البدع والاعراف، خاصة في البادية محل الشريعة الاسلامية.

من هنا يبرز مجال عمل الزاوية ــ والزوايا عموما ــ بسبب طبيعة مجالها القروي الشاسع. وهذا كان أمل الإمام الهبطي (المتوفى 963 هـ / 1555) كما عبرت عن ذلك

وهي بذلك تهيئ النخبة الطموحة لمواصلة تكوينها العلمي، واشباع نهمها خارج مدرسة الزاوية، كما فعل أبناء الشرقي مثلا.

يضاف إلى هذا هجرة العديد من أبناء وأطر الزاوية الشرقاوية إلى المناطق المجاورة القريبة، أو إلى مناطق أبعد من ذلك بسبب أوضاع عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي عرفها المغرب آنذاك ؛ إلا أن جانبا هاما من هذا الوضع يفسر بالتطورات السياسية الجديدة التي عرفتها منطقة تادلا، عندما نزع محمد الحاج الدلائي بعد وفاة والده عام 1046 هـ / 1636 م إلى الاهتمام بالسياسة وطلب الملك والرياسة (7)، وهو عمل اثر بشكل أو بآخر على العلاقات الطبيعية التي كانت قائمة بين أبناء الشرقي وشيخ زاوية دلاء محمد بن أبي بكر. فقد ارتبط بهذه التطورات خروج أحمد البدوي بن عبد السلام بن الشرقي إلى منطقة قريبة من أم الربيع تعرف بـ «تارمست» حيث أقام زاوية له هناك (8)، كما أن سيدي محمد لمفضل بن أحمد المرسي ؛ الذي عرف بصلاحه وتفقهه

= الأبيات التالية من الفيته المشهورة :

من لي بواحد من الولات ... يدعو إلى التوحيد والصلاة
أو من لنا بعالم رشيد ... يدعو إلى الصلاة والتوحيد
مؤديا لما عليه قد وجب ... من بث علمه على وفق الكتاب
أو من لنا سيد الصوفية ... يدعو إلى الهدى بصدق النية

حول هذا انظر :

ــ الفية الهبطي : م. خ. م الرباط، رقم 2808.

ــ محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين (الرباط) ص 243، 245 وما بعدها.

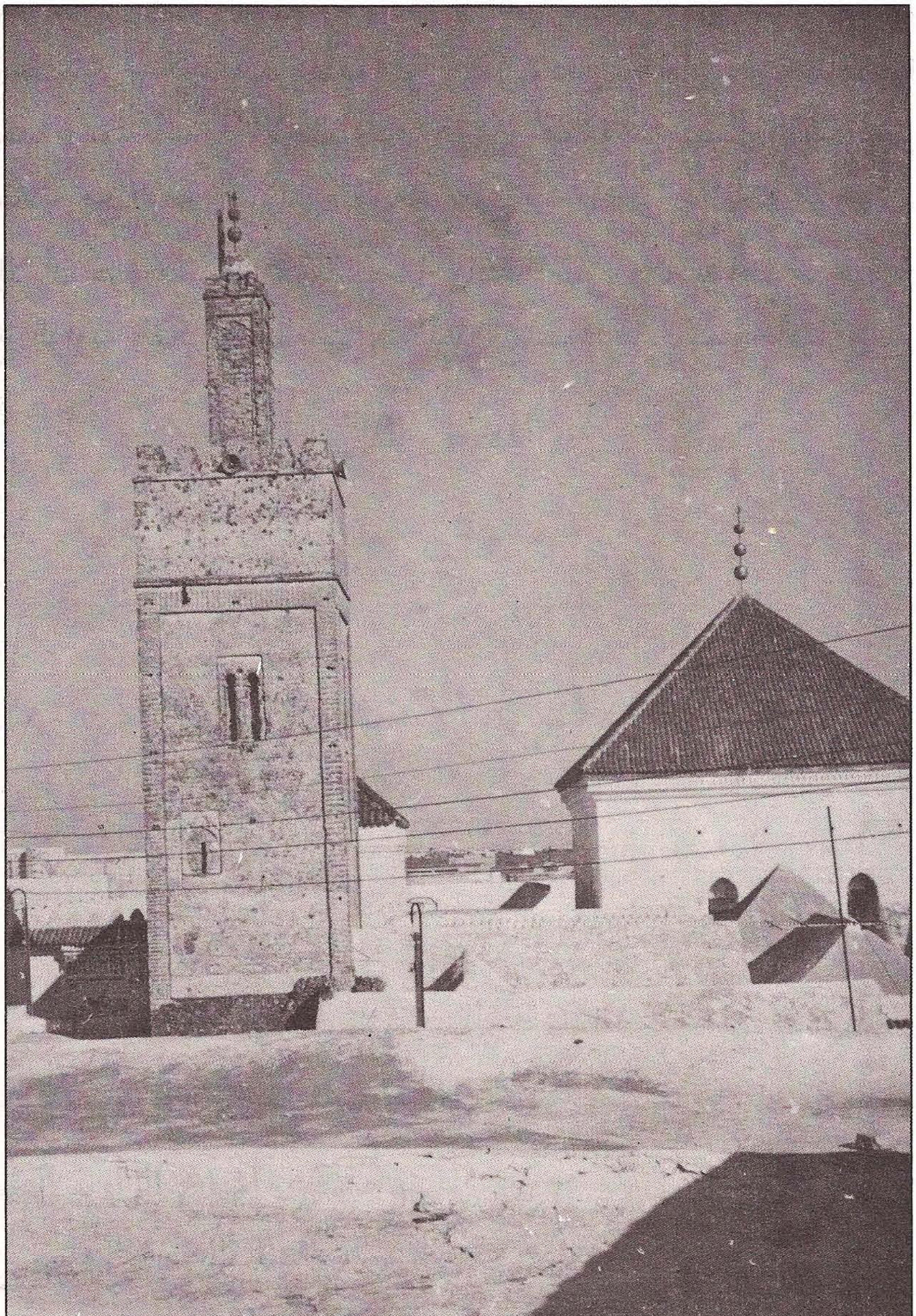
ــ كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 13 إلى 22.

ــ حجى م : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ج 1، ص 218 إلى 220.

(7) حجي محمد : الزاوية الدلائية، ص انظر الباب الرابع من دراسته.

(8) العروسي : المرقي، ص 287.

ــ العبدوني : اليتيمة، ص 142، 143.



ضريح الشيخ محمد الشرقي الذي يمثل النواة الأولى لنشأة زاوية أبي الجعد الحالية. وإلى جواره يوجد المسجد، الصومعة، ضريح ابنه سيدي عبد القادر، ودور الطلبة.

ومشاركته في سائر العلوم (9)، هاجر بدوره إلى أحواز سلا، بعد أن كان مقيما بزاوية جده.. وعندما توفي حمل ودفن بداخل المدينة المذكورة بطالعتها قرب المسجد الأعظم عام 1071 هـ. وقد سبقت الاشارة إلى مراسلاته مع الأمير الدلائـي، وأبعاد ذلك فيما يخص علاقات الزاويتين.

إلا أن فترة مشيخة محمد الصالح وابنه المعطي ؛ تعتبر أهم مرحلة في تاريخ الزاوية الفكري والعلمي، ولذلك سنفرد لها قسما خاصا بها.

---

(9) «وكان فقيها مشاركا وأستاذا محققا، أخذ فنون القراءات وعلومها وتجويدها وتفهيمها على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن القاضي الذي أجازه في ذلك.»
ـــ العبدوني : اليتيمة، ص : 118.

الفصل الثاني

○ ○ ○

فترة الاشعاع

أولا : النشاط العلمي بالزاوية : مظاهره.

أ ــ مستوى أشياخ الزاوية العلمي.

ب ــ شغفهم بالعلم والتعليم.

جـ ــ توفير الأطر التعليمية.

د ــ الدراسة بالزاوية.

ثانيا : توفير العيش والمقام للطلبة.

ثالثا : المتخرجون والمتلمذون.

فترة الاشعاع

ترتبط هذه الفترة تاريخيا باستقرار أوضاع المغرب، بعد أن تسنمت الحكم الأسرة العلوية، خاصة إبان حكم المولى إسماعيل ومحمد بن عبد الله ؛ والتي تغطي أواخر القرن 11 هـ ومعظم القرن 12 هـ تقريبا. وتتميز هذه الحقبة إلى جانب الاستقرار السياسي النسبي، باستئناف النشاط العلمي والفكري في مراكزه التقليدية الكبرى، هذا إلى جانب مساهمات بعض المراكز القروية مثل الزاوية الناصرية بدرعة وزاوية ابي الجعد بتادلا.

أولا : النشاط العلمي بالزاوية : مظاهره.

يمكن معالجة النشاط التعليمي والعلمي بزاوية أبي الجعد خلال هذه الفترة من عدة أوجه، منها :

أ ــ مستوى أشياخ الزاوية العلمي :

يستدل على ذلك من أسماء الفقهاء والعلماء الذين تتلمذ عليهم هؤلاء الأشياخ، أمثال الحسن اليوسي وأحمد بن ناصر ومحمد بن عبد القادر الفاسي.. الذين يعتبرون بحق معالم كبرى في تاريخ الثقافة والفكر خلال العصر العلوي ؛ ذلك أن شيوخ الزاوية لم يقتصروا على سمعة أسرتهم

ولا على صلاحهم، إذا لم تكن زينة ذلك العلم كما عبرت عن ذلك قولة الشيخ محمد الصالح :

«فقر بلا علم فضيحة ومكر وخديعة..» (1)، ولذلك أقبل محمد الصالح على أخذ العلوم المتداولة والتتلمذ على كبار علماء العصر، في كل من مراكش وفاس باعتبارهما قطبي الثقافة آنذاك، فتفقه في الفقه والنحو واللغة والتصريف والعروض والحساب والبيان والأصول والتوحيد والحديث والسير وعلوم القرآن، بالاضافة إلى علوم أخرى مثل الطب والهندسة (2).. وقد اقر يوما لتلميذه مؤلف اليتيمة بأنه قرأ على أشياخه نحو اثني عشر علما.. (3) وهي نفس العلوم التي حرص كل الحرص على أن يودعها آبنه ووارثه الشيخ محمد المعطي، الذي لم يتوان بدوره في توسيع دائرة مصادر علمه وثقافته (4).. وقد ظهرت نتائج هذا التكوين العلمي في انتاج الشيخين كما حفل به كتاب «الروض الفائح»، وكذلك احزاب وأسفار محمد المعطي، وترددت أصداء هذا التكوين فيما وصف به الشيخان من لذن المؤرخين والعلماء.

فقد نعت الأفراني الشيخ محمد الصالح في إحدى مراسلاته بـ «عين الأعيان وصدر أرباب البلاغة والبيان، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمله، والأديب الذي تقتدي البلغاء ببراعة قلمه..» (5).

في حين حلى محمد بن الطيب القادري معاصره الشيخ المعطي بقوله : «الشيخ الأديب، البارع النجيب.. أبو المواهب والبركات.. كان له

(1) العبدوني : اليتيمة، ص 35.
(2) المصدر السابق، ص 66، 194، 195.
(3) العبدوني : اليتيمة، ص 66.
(4) المصدر السابق، ص 10، 35.
(5) الأفراني : النزهة، ص 310.

إقبال على استفادة العلوم، واعتناء بإقامة الرسوم.. وله باع في الترسل والانشاء، وعارضة في الأدب، وقوة على المطالعة وذوق سليم في إشارات القوم..» (6).

كما أن محمد بن عبد الحي الكتاني، لم يتردد في أن يعتبر الشيخ المذكور، «فخر المغرب» عندما تعرض لترجمته وتقريظ تآليفه (7).

ب ــ شغفهم بالعلم والتعليم :

تشير المصادر إلى أن الشيخ محمد الصالح كان شغوفا بالعلم والتعليم، مقدرا ومبجلا أهله، فقد كان لا يرى «إلا والكتاب بين يده وطلبة العلم دائرون به ومحلقون عليه، وهو جالس للتدريس والاقراء والتذكير والتحذير والوعظ والاغراء» (8)، ناصحا أصحابه وطلبته بملازمة مجالس العلم، وخدمة العلماء والتذلل لهم، فإنه ما أفلح إلا من رافقهم ولازم مجالسهم، مرددا لرفقته من العلماء والصلحاء :

«قد جعل الله لكل ولي جنة يتستر بها في وقته، وأنا جنتي هي العلم ومرافقة العلماء والاشتغال ببث العلم..» (9).

وإذا كان هذا الشغف لا يعدو أن يكون ترديدا لتكوينه وصدى لبيئته العلمية التي نشأ فيها، «إذ الاناء بما فيه يرشح» كما يقال ؛ إلا أن حرصه الشديد على إحياء ما اندثر، وبعث ما عفى عليه الزمن في زاوية أجداده، كان في حقيقة الأمر دافعه الرئيسي والأكيد ؛ وهو عمل لا يجب فصله عن حركة فكرية وعلمية أخذت تتألق مناراتها هنا وهناك في طول البلاد وعرضها في شبه حركة بعث فكري وثقافي، يسعى جاهدا للاستفادة

---

(6) القادري م : النشر، ج 2، ص : 277، 278. (فاس)

(7) الكتاني م : فهرس الفهارس، ج 2، ص 169.

(8) الشرقاوي ع : الفتح، ص 144.

(9) العبدوني : اليتيمة، ص 43.

من ظروف الاستقرار المتاحة، بعد فترة من الدهر، عانى فيها الفكر والمفكرون من شوءم الطبيعة والانسان بتوالي الكوارث والأزمات.

جـ ــ توفير الأطر التعليمية اللازمة للتدريس :

أشرنا فيما سبق إلى صعوبات التأطير التربوي والعلمي التي واجهت الزاوية في مرحلة التأسيس، وإذا كان محمد الشرقي قد تغلب على ذلك محليا باهتمامه بتكوين أبنائه وتعليمهم، ليصبحوا بعدها أطرا دائمة ومضمونة. لكن هذه الصعوبات طرحت من جديد في مرحلة التجديد، بسبب موقع الزاوية البعيد عن المدن والعواصم الكبرى. إلا أن هذه العراقيل تبقى شكلية أمام إيمان وعزيمة أشياخ الزاوية، الذين شكلوا في شخصهم نماذج الأطر الكفأة المتفانية والمعتكفة علما وعملا.. غير أن متطلبات الأعداد المتزايدة من طلاب العلم والتربية الصوفية وتشعب مشاغل واهتمامات أشياخ الزاوية، دفعهم إلى العمل على توفير أكبر قدر ممكن من الأطر المساعدة سواء من أبناء الزاوية أو من تلامذتها ومريديها المتخرجين منها، وإن أمكن استجلاب بعض الفقهاء والعلماء من المدن الكبرى، للعمل بالزاوية ولو لمدة محدودة.

1 ــ أطر الزاوية من أبنائها :

سبقت الاشارة إلى عدد من أطر الزاوية من أبنائها اشتهروا في أواخر حياة أبي عبد الله الشرقي، أو بعد وفاته، سواء من الأبناء أو الأحفاد. أما فيما يخص الفترة التي نحن بصدد التعرف عليها، والتي اصطلحنا على تسميتها بمرحلة التجديد أو الاشعاع ؛ فتحتفظ لنا المصادر المعاصرة لها بمجموعة من الأسماء يصعب حصرها والوقوف عندها، مع العلم أن نشاط هؤلاء اقتصر في معظمه على الزاوية، مما جعل شهرتهم محلية لا غير، ونذكر من هؤلاء :

ــ محمد بن أحمد العروسي : وهو من سلالة الشيخ الشرقي ووالد

مؤلف المرقي (10)، كان فقيها وعالما مشاركا. أخذ العلم ببلده إلى أن حصل منه على حظ وافر، ثم انتقل بعد ذلك إلى فاس ليأخذ على كبار علمائها أمثال محمد بن عبد القادر الفاسي، الذي أجازه في البخاري وغيره، وأبي عبد الله محمد القسطنطيني، والشيخ العالم الفقيه سيدي الحسن بن رحال المعداني. وكان محمد العروسي آية في الحفظ، شهد له بذلك شيخه المعداني، يحفظ كتبا عديدة عن ظهر قلب.

كتب شيخه القسطنطيني مرة إلى والده يهون عليه مشقة فراق إبنه ويهدئ من روعه، فبعد أن بين له شرف طلب العلم وعلو مرتبة أهله، أردف قائلا :

«وقد قدم علينا ولدكم النحرير والدراكة الأثير، الامعي اللبيب.. أبو عبد الله محمد قصد تعلم العلم والعكوف على تحصيله بجد واتقان.. ليكون من أهل الرسوخ والعرفان، ولم يرض لرفع همته برتبة التقليد بل أراد أن يرقى لرتبة المعرفة الناتجة عن الدليل والبرهان، فيكون إماما يقتدي به الجاهل في ظلمة ليل الشك الداج والهيمان، وذلك والله الشرف الدنيوي والأخروي الذي ليس له ثان (11).

ضمن العروسي كتابه المرقي بعضا من أخبار والده (محمد)، كما نقل عنه بعض معلوماته خاصة تراجمه لبعض أبناء الزاوية (12).، وكذا رأيه في نسب شيخ الزاوية العمري (13)، دون أن نعثر على ما يفيد تاريخ ولادته أو وفاته، إلا إننا نرجح معاصرته لفترة تجديد الزاوية أواخر القرن 11 هـ وبداية القرن 12 منه (14).

(10) العروسي : المرقي، ص 77، 78، 80.

(11) العروسي : المرقي، ص 80، 81.

(12) المصدر السابق، ص 287.

(13) المصدر السابق، ص 77.

(14) ينتمي محمد القسطنطيني شيخ محمد العروسي إلى جيل محمد المسناوي الدلائي المتوفى 1136 هـ / 1724 م.

ــ عبد الخالق بن محمد العروسي : هو عبد الخالق بن محمد بن أحمد العروسي بن الشرقي بن عبد القادر بن الشيخ الشرقي (15). فهو نجل الشخصية السالفة الذكر، ومؤلف كتاب المرقي. بدأ حياته العلمية بزاوية أبي الجعد، فتتلمذ على فقهائها وعلمائها، من بينهم والده، ثم رحل إلى كل من فاس والرباط ليأخذ على كبار أشياخ العصر، دون أن تنقطع اتصالاته بمسقط رأسه ؛ إذ ظل يراسل شيخ الزاوية محمد الصالح، إلى أن رجع ليستقر بها بصفة نهائية، فحظي من طرف شيخها بكل الرعاية والاهتمام، ولزم حلقات الدراسة والتدريس بها، كما سلك طريق القوم على يد شيخها، الذي قال عنه :

«شيخي وأستاذي ومربيني بالعلوم في صغري وكبري.. رجوت.. الانخراط في سلكهم، وتبديل درهمي المغشوش بخالصهم..» (16)

ترجع أهمية عبد الخالق العروسي، إلى كونه أول من فكر في وضع تأليف في «تاريخ» الزاوية، قد يكون ذلك بتشجيع من شيخه إلا أن الشيء المؤكد هو أن والده قد حاول قبله أن يضع تراجم لأفراد الزاوية، كما يستفاد من بعض الاشارات الواردة في كتاب المرقي إذ نقل عبد الخالق الابن عن مسودات والده العديد من معلوماته. (17)

عاش عبد الخالق خلال القرن 12 هـ، دون أن نعثر على تواريخ ثابتة لولادته أو وفاته، وقد وردت إشارات تفيد أن ابتداء تأليفه لكتابه كان

---

(15) صرح بذلك في نهاية مؤلفه (المرقي ص 305) وهذا يخالف ما ورد عند «ل. بروفنصال»، (مؤرخو الشرفاء، ص 236) وعند «ابن سودة» في (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) ج 1، ص 220. اذ كتب اسمه : «أبو محمد عبد الحق بن محمد بن أحمد العروسي الشرقي بن عبد العزيز بن الشيخ.. محمد التادلي الشرقاوي العمري»، إلا أنه لم يثبت أن للشرقي ولد اسمه عبد العزيز، والثابت أن عبد العزيز أخ له، دفين مدينة وادي لزم الحالية. بمقبرة الشهداء.

(16) العروسي : المرقي، ص 306.

(17) المصدر السابق، انظر مثل الصفحات، 277، 284، 287.

حوالي 1138 هـ (18)، وأنه زار مراكش عام 1134 هـ (19)، وكان يتردد من وقت لآخر لزيارة أحد أشياخه بالرباط وهو أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي (المتوفى 1178 هـ) (20) ؛ كما كان الشيخ محمد الصالح يخاطبه في مراسلاته بـ «الشاب» مما يجعلنا نرجح أن ملازمته لشيخ الزاوية كانت في وقت مبكر من عمره من جهة، وفي أواخر عمر شيخه الذي توفي عام 1139 هـ من جهة أخرى. وعلى ذلك يكون قد عاصر أحداث البلاد بعد وفاة المولى إسماعيل، وأدرك قسما من حكم السلطان محمد بن عبد الله العلوي.

يظهر لنا كتاب المرقي مستوى عبد الخالق العروسي العلمي، الذي جمع بين اللغة المتينة والعلم الغزير، خاصة في مادة التصوف باعتباره أحد تلامذة الزاوية وأطرها وأحد أبرز مريديها، بالاضافة إلى كونه شاعرها، فقد حفل مؤلفه بالعديد من القصائد الشعرية التي تثني على مؤسس الزاوية أو على أحفاده من بعده ؛ كما كان لا يترك فرصة أو حادثة تمر دون أن يترك لملكته الشعرية العنان لتخليدها، مثل ذلك ما قاله بمناسبة عودته من أحد أسفاره (21)، أو أثناء زيارته لقبر والد شيخه محمد الصالح المدفون بمراكش (22)، أو بمناسبة ختم كتاب الشفا للقاضي عياض (23).

ولعلنا نأسف لكون المصادر الخاصة، بالقدر الذي تتعرض فيه للعديد من أسماء الأطر من أبناء الزاوية، إلا أنها تمر على ذلك مر الكرام، إذ

---

(18) المصدر السابق، ص 137.

(19) المصدر السابق، ص 278.

(20) المصدر السابق، ص 270. أما تاريخ الوفاة فذكر في : الدليل، ج 2، ص 317.

(21) العروسي : المرقي، ص 145.

(22) المصدر السابق، ص 278.

(23) المصدر السابق، ص 266.

في الغالب يأتي ذلك الذكر عفويا وهامشيا بالنسبة لفكرة المؤلف وموضوعه الذي يهتم بشيخ الزاوية بالدرجة الأولى، وتزداد هذه الحيرة عندما نقف أمام قباب أو قبور هذه الشخصيات لا نعلم من أمرها إلا النزر اليسير.

من هؤلاء : ـــ محمد بن المعطي، أخو الشيخ محمد الصالح وهو «العالم النحرير المحدث بجامع جدهم الكبير.. حاج بيت الله الحرام.. دفين قبة سيدي صالح(24)».

ـــ وأبو عبد الله محمد بن داوود بن عبد القادر بن الشيخ الشرقي، الذي حج مرات عديدة وفي كل مرة كان يزود حزانات الزاوية بالكتب النفيسة. ادرك العلم الظاهر والباطن في أقصر مدة (25).. وغير هؤلاء.

2 ـــ أطر تادلية :

ومن بين الأطر العلمية بالزاوية من غير أبنائها، والتي سهر أشياح الزاوية على تكوينهم وتهيئتهم للعمل في مهام عديدة، منها التدريس والاقراء بصفة خاصة، نذكر :

ـــ محمد بن عبد الكريم العبدوني مؤلف كتاب اليتيمة، وأبو علي الحسن المعداني مؤلف الروض الفائح، وكذلك الفقيه محمد بن يوسف الدلائـي، الذي كان يحتل مكانة خاصة لدى شيخ الزاوية محمد الصالح، (فقد كان ممن يطعم من طعامه) ومن المطلعين على أسراره ووصفته المصادر بـ «الفقيه والعالم.. (26)» وخلفه في هذه المكانة إبنه إبراهيم ابن محمد بن يوسف، إذ كان بدوره من أطر الزاوية ومن كبار فقهاء

(24) العبدوني : اليتيمة، ص 35، 55، 143.

(25) العروسي : المرقي، ص 286.

(26) العبدوني : اليتيمة، ص 56، 61، 347.

ـــ المعداني : الروض، ص 189، 246، 317.

وعلماء القطر التادلي (27)، دون أن نغفل شخصية العافية الصومعي الذي تتلمذ عليه الشيخ محمد المعطي والمحجوب الموساوي تلميذ هذا الأخير وشيخ نجله محمد العربي.

3 ــ أطر أخرى :

لم تكتف الزاوية بإمكانياتها الذاتية والجهوية فيما يخص القيام بمهامها الدينية والتعليمية، فقد عمل الشيخ الشرقي على جلب بعض العلماء والصلحاء للاقامة بزاويته ؛ كما هو الشأن بالنسبة لأبي عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماسي (28)، فقد عوض له شيخ الزاوية آنذاك ما كان يأخذه من خزينة السلطان أحمد المنصور الذهبي، كما أن حفيده محمد الصالح لم يدخر وسعا في هذا المجال.. بل كان يغتنم فرصة زيارة الفقهاء والصلحاء للزاوية، أو لجوء بعضهم لطلب المساعدة، من أجل إلقاء بعض الدروس ؛ وقد يغري بعضهم بالمكوث لبعض الوقت، حتى تستفيد جموع طلبة الزاوية من علمه. ونذكر من هؤلاء :

ــ أحمد بن فتوح التازي : كان حيا أواسط القرن 12 هـ، ذكره محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي في تاريخه ونقل عنه. (29) كما نقل عنه صاحب المرقي بعض أخباره، وكذلك بعض أشعاره في أشياخ الزاوية ؛ من ذلك مقصورة في نسب أبي القاسم بن محمد الزعري والد محمد الشرقي، ومقصورة أخرى نظمها في الشيخ الشرقي، كما أشار البعض إلى وجود تأليف له تحت عنوان : «التعريف المفيد في مناقب الشيخ الصالح بن المعطي وجده القطب أبي عبيد (30).

وقد كان أحمد بن فتوح من المتعلقين بالزاوية وشيخها محمد الصالح،

---

(27) العبدوني : اليتيمة، ص 335.

(28) العروسي : المرقي، ص 297.

(29) ابن سودة : الدليل، ج 1، ص 199. وهو صاحب هذا التعريف.

(30) المرجع السابق، نفس المكان. لم يتيسر لنا العثور على هذا المؤلف.

ولذلك كثرت زياراته لها وإقامته بها، وقد عبر عن ذلك بقوله :

نزلت بحمد الله خير المنـــازل
لآل عدي في العلى متطــاول
بـيت لـه في المنديـات مآثـر
لبطن قريش شمس كل المنازل
سليل أمير المومنين أبي حفص
إمام التقى والعلم بالحق عادل (31)

ويذكر صاحب اليتيمة ظروف إتصال هذه الشخصية لأول مرة بالزاوية، فقد كان في بداية حياته العلمية، واحدا من تلامذة العلامة سيدي سعيد بن أبي القاسم العميري بمكناس على عهد المولى إسماعيل، فصادف أن طلب الباشا عبد الكريم بن رحمون السوسي من سيدي سعيد العميري فقيها يصلي به ويعلم أولاده دينهم بقصبة تادلا، فأشار على ابن فتوح للقيام بهذه المهمة، وما إن وصل إلى مقر عمله الجديد، حتى أرسله الباشا بصحبة أبنائه لزيارة قبر الشيخ محمد الشرقي وحفيده محمد الصالح شيخ الزاوية آنذاك (32).

ــ أحمد بن عبد القادر التستاوتي (33) : هو أبو العباس أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسى بن الشيخ سيدي محمد بن امبارك التستاوتي. كان عالما عاملا عارفا كاملا، له ملكة في نظم الشعر وله عارضة في الأدب. سلك طريق التصوف على يد الشيخ محمد بن ناصر

(31) العروسي : المرقي، ص 75، من مطلع قصيدة طويلة (لامية).
(32) العبدوني : اليتيمة، ص 327.
(33) حول ترجمته انظر : ــ القادري : النشر ج 2، ص 113، 114 (فاس)
ــ ابن زيدان : الاتحاف، ج 1، ص، 329، 330، 331.
ــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص 110، 111.
ــ ابن سودة : الدليل، ج 2، ص 388.

الدرعي، كما أخذ عنه عدد من المتصوفة والعلماء. ذكر صاحب النشر أن بعض ادعاءاته الصوفية جلبت عليه نقمة السلطان مولاي إسماعيل الذي أودعه السجن لبعض الوقت، ثم سرحه بعد ذلك (34).

كانت وفاته في فاتح رجب عام 1127 هـ.

تعتبر المصادر الشيخ أحمد بن عبد القادر التستاوتي من أشياخ محمد الصالح الشرقاوي (35)، فقد ظل التستاوتي في حياته يتردد على الزاوية أو يراسل شيخها، ويظهر أنه قضى في أبي الجعد وقتا ليس يسيرا بعد تسريحه من سجنه حوالي 1104 هـ، قبل أن يرجع من جديد إلى مكناسة التي توفي بها ؛ فساهم في تعمير مجالس الزاوية العلمية والدينية ؛ وهو نفس النهج الذي سار عليه أخوه محمد العياشي في عهد محمد المعطي بن الصالح (36).

قاسم أفراد الأسرتين — الشرقاوية والتستاوتية — بعضهما البعض الأفراح والأتراح ؛ وعندما توفي محمد المعطي بن عبد الخالق والد الشيخ محمد الصالح حوالي 1092 هـ، رثاه أبو العباس أحمد التستاوتي بقصيدة جاء في مطلعها (37).

قل للأحبة من بنـي الشرق
المـاجـــد الموسوم بــــالصدق
لـو كان ينفعنـي إشتيـاقي إلى
الحبـــائب مت مـــن شوقي
أو كان نثر الدمع يدرأ عن
متــأسفين مــرارة الفـــرق

---

(34) القادري : النشر، ح 2 (فاس) 114. الاتحاف، ج 1، ص 331.
(35) العبدوني : اليتيمة، ص 182.
(36) العبدوني : اليتيمة، ص 166.
(37) المعداني : الروض، ص 418.

بادرتكم للحزن أبكي على
فقد الفتى المعطي ومن حق (38)

ــ محمد الصغير الأفراني : (39) وهو أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد بن عبد الله الأفراني الملقب بالصغير، ولد بمراكش حوالي 1080 هـ / 1669 ــ 1670. درس بمسقط رأسه، ثم رحل إلى فاس ليكمل دراسته بها ليعود بعد ذلك إلى مراكش للمساهمة في مجالسها العلمية ؛ وفي أواخر عمره عمل إماما وخطيبا بالمسجد اليوسفي إلى جانب إشتغاله بالتدريس. ويرجح أن تكون وفاته عام 1153 / 1740.

ترجع أهمية الأفراني إلى كونه يعتبر من أبرز مفكري المغرب خلال العصر العلوي، بل إن مؤلفه التاريخي «نزهة الحادي» يجعل منه مدرسة متميزة في هذا الميدان، وتلحقه بكبار المؤرخين المغاربة مثل ابن

(38) ذكر ابن زيدان في الاتحاف (ج 1، ص 331) : إن لأحمد التستاوتي جملة من التآليف الأدبية مثل : نظم ممتع الاسماع وشرحه، ونظم رجال التشوف وشرحه، ونظم رجال القشيرية وشرحه، وله كتاب النزهة ضمنه رسائله في جزئين، وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء ضخام وله أسئلة فقهية لعلماء وقته وتقاييد مفيدة تدل على تضلعه واقتداره.. كما أن له دالية في مدح خير البرية عارض بها دالية الشيخ اليوسي في مدح شيخ السنة محمد بن ناصر الدرعي.

ومطلعها :

عرج بأطلال الأحبة وأقصد — أثارهم يوما لعلك تهتدي
وأجز إذا جئت الديار بمنزل — قد ضم اجداث العشير الهمد
وهيب قلبك إن أردت شفاءه — فات الربوع تريح قلب الأكمد

وهي تنيف عن ستمائة بيت. مما يجعلنا نتساءل عن سبب اغفال مثل هذه الشخصية العلمية والأدبية ضمن مؤلف مثل مؤلف الأستاذ الأخضر الذي أرخ للحركة الأدبية بالمغرب في العصر العلوي، الذي عاش في كنفه أحمد التستاوتي.

(39) انظر ترجمته مع مصادرها عند : ــ ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص 89 وما بعدها.

ــ الأخضر : الحياة الأدبية، ص 229 وما بعدها.

خلدون (40).. هذا إلى جانب ما يمتاز به أسلوبه من سلاسة ووضوح وبعد عن التكلف مع فصيح العبارة وقوة الحجة.. ومن مؤلفاته : «صفوة من انتشر» الذي ترجم فيه لصلحاء القرن الحادي عشر الهجري (41) و«الظل الوريف»، وهو تاريخ لحكم السلطان مولاي إسماعيل العلوي، وكتاب «المغرب في أخبار المغرب» إلى جانب مؤلفات أخرى في مواضيع مختلفة.. (42).

أشارت بعض الكتابات إلى أن الأفراني بدأ قسما من مؤلفه النزهة في أبي الجعد، وأنه كان يتردد من وقت لآخر على شيخ الزاوية محمد الصالح، فيحظى منه بجزيل العطاء وبالغ الاهتمام. بل إن الأفراني في فترة من حياته عانى أزمة مالية خانقة، تسببت في بيع مكتبته الخاصة (43). وعندما لجأ إلى محمد الصالح وجد فيه المنقذ والمساعد في وقت سدت في وجهه الأبواب.. ففتح أمامه باب الأمل، وأعاد إلى نفسه الطمأنية والاستقرار. لكن هل يعود تاريخ علاقات الشخصيتين إلى هذه الفترة الدقيقة من حياة الإفراني فقط ؟

يظهر من خلال بعض مراسلاتهما، أن علاقاتهما كانت أبعد من هذا التاريخ، ذلك أن الأفراني في إحدى خطاباته، يعبر عن أنه ليس بإمكانه أن يطيق انقطاع رسائل محمد الصالح ولا إختفاء أخباره عنه.

«.. فقد كتبت إليك عن شوق أحاط بي إحاطة الطوق ولواعج يعلمها من يحصى رمل عالج، وكم ذا لم أر منك رسالة، ولا ارتشفت ثغور الفاظها السلسالة..» (44).

(40) ل. بروفنصال : المرجع السابق، ص 96.

(41) المرجع السابق، ص 217، 218، 219.

(42) المرجع السابق، ص 90 وكذلك الأخضر : المرجع السابق، 232، 233.

(43) ل. بروفنصال : المرجع السابق، ص 93.

(44) المعداني : الروض، ص 348.

كما كان يزود الزاوية من وقت لآخر ببعض الأطر العلمية التي يتيقن من كفاءتها وعطاءاتها العلمية مثل «.. محبنا الأسنى الحسن بن سليمان.. وقد حصل جملة صالحة من العلم، وله نجابة في البحث.. (45)»

وتأكدت علاقات الرجلين أواخر حياة محمد الصالح، أي إبان ضائقة الأفراني، التي هي محك الصداقة، كما عبر عن ذلك في منظومته التي استهل بها إحدى رسائله له (46)

الغياث الغياث، ياأحرار (47)
نحن خلجانكم وانتم بحار
إنما تحسن المواساة في الشـ
ـدة لا حين ترخص الأسعار (48)
فارحمونا وأبدلوا العسر يسرا
فلكم تنتمي العطايا الغزار
ولكم تبسط الأكف فتحظى
بمناها مهما اعتراها اضطرار

لقد كان الشيخ محمد الصالح يتتبع خطوات الأفراني العلمية عن قرب، فبعد أن بذل له كل ما يستطيع من تشجيعات مادية ومعنوية لاخراج مؤلفه «النزهة» إلى الوجود «فهو الذي أعاد لفكري قوة النشاط، ونشر عليه بساط الانبساط، فانقشع عني سحاب الكسل وانجاب وناديت

(45) المصدر السابق، نفس المكان.

(46) يقول ل. بروفنصال (مؤرخو الشرفاء، 93) : إن نسخة من الرسالة المذكورة أطلعه عليها القاضي عباس بن ابراهيم المراكشي الذي كان قد استنسخها بزاوية أبي الجعد.

(47) كتب في الروض، ص 296، مكان هذا الشطر الأول ما يلي :

يارجال الالاه ياأحرار نحن خلجانكم وأنتم بحار

(48) ورد عند ل. بروفنصال (المرجع السابق، 93) البيت الأول والثاني فقط في حين يوجد في كتاب «الروض» باقي المنظومة الشعرية.

فكري مع ضعفه للتأليف فأجاب..» (49).

نجد أن نفس الرعاية تواصل من أجل إخراج مؤلف «الصفوة». عندها أخبر الأفراني شيخه بذلك وطلب منه أن يبعث من ينسخه له مع كتاب النزهة، وفي نفس الوقت يطلب منه مواصلة مساعدته له (50).

لاشك أن وفاة محمد الصالح عام 1139 هـ، لم تكن نكبة للزاوية الشرقاوية فقط، بل كانت كذلك بالنسبة لمؤرخنا الأفراني، الذي فقد فيه الراعي الأمين والمساند الذي لا يمل ولا يكل، في فترة حرجة من حياته، وهي الفترة التي كان فيها في قمة عطاءاته الفكرية. إلا أنه مع ذلك وجب أن نتساءل : كيف أمكن لمفكر مثل الأفراني أن يعاني من كل هذه الضائقة في ظل الحكم الاسماعيلي الذي ألف فيه كتاب «الظل الوريف في مفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف» عام 1133 هـ أي قبل «النزهة» و«الصفوة» بحوالي أربع سنوات ؟ كما أنه بإمكاننا ان نتصور مدى الفراغ العلمي الذي كان بإمكانه أن يتركه عدم إنجاز المؤلفين المذكورين، خاصة إذا علمنا أن الأفراني لم يثبت عنه أنه ألف مؤلفا آخر بعد تاريخ وفاة شيخ زاوية أبي الجعد (51).

ــ عبد القادر بن شقرون المكناسي (52) هو أبو محمد عبد القادر ابن العربي المنبهي المدغري المعروف بابن شقرون المكناسي، فقيه نحوي وأديب بارع إلى جانب كونه طبيبا ماهرا. درس بكل من فاس ومكناس على كل من أحمد بن الحاج ومحمد القسطنطيني ومحمد المسناوي

(49) الأفراني : النزهة، ص 310.

(50) ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء، ص 93.

(51) حول تواريخ مؤلفات الأفراني انظر :

ــ الأخضر : الحياة الأدبية، ص 232، 233.

(52) حول ترجمته مع مصادرها : الأخضر : الحياة الأدبية، ص 207، 208، 209.

الدلائـي.. وأخذ الطب عن أحمد بن محمد أدراق وإبراهيم بن القائد علي، طبيب السلطان مولاي إسماعيل. وقد اغتنم مناسبة زيارته وحجه للمشرق، فوسع مداركه العلمية والطبية، حيث حضر دروس الشيخ أحمد الزيداني بمصر، وعندما رجع لبلده ووطنه توافد على مجلسه وتتلمذ عليه عدد من العلماء والفقهاء أمثال أبي القاسم العميري، وأبي عبد الله محمد الصالح الشرقاوي.

وتتحدث المصادر عن فترة من حياة ابن شقرون، تميزت بالخمول والانزواء عن الناس وميل إلى التقشف (53).. إلا أن ما أورده صاحب اليتيمة حول ظروف اتصال ابن شقرون بشيخ الزاوية محمد الصالح، توضح جوانب خفية من حياة هذه الشخصية العلمية المرموقة. ونظرا لأهمية هذا النص التاريخية، آثرت نقله مع بعض التصرف الذي لا يخل بالمعنى.

«.. لما كنت في حضرة السلطان الأعظم.. مولانا إسماعيل.. ووقع لي بين أهلها خمول كثير وإهمال كبير ولما يساعدني فيها وقت، ولا طاب لي فيها عيش إلا بالكدر والمقت، وتكدر لي البال من قلة الوسع وضيق الحال، فرددت الأمر إلى الله، وعقدت الرحلة إلى ولي الله فقير الأتقياء العلماء، وعالم الفقراء الأصفياء.. أبي عبد الله سيدي ومولاي محمد الصالح، فرفعت شكايتي إليه، وتضرعت بين يديه، فقال لي (ر) : هل تستطيع أن تمكث عندنا وقتا تدرس لنا بعض العلوم النحوية التصريفية والكتب النافعة الطبية. فقلت له : ياسيدي نمتثل أمرك ونغتنم بركتك وبرك. فقال : حبا وكرامة وغنيمة وسلامة.. فأخذت في تدريس علم النحو لبلوغ القصد، ومن التصريف كمال التصرف في الأمور، ومن الطب النافع الانتفاع وانشراح الصدور.. فمكثت عنده تلك المدة المباركة التي

---

(53) ابن زيدان : الاتحاف، ج 1، ص 321. الأخضر : المرجع السابق، ص 208.

لا يأتي بها زمان، ولا يعادلها وقت ولا أوان فما رجعت من عنده ولله الحمد إلا بتيسير الأمر وانشراح الصدر.. وصارت الكلمة في الحضرة السلطانية مسموعة..» (54).

يتبين من النص السابق، أن ما أصاب ابن شقرون في حياته من كدر وضيق وخمول، لم يكن وليد اختيار سلوك شخصي، بل إن الأمر يتعلق بأزمة إجتماعية، ناتجة عن فقده لمنصبه ونفوذه في الأوساط المخزنية وأن لجوءه إلى محمد الصالح، إذا كان من باب العلاقات العلمية والودية التي جمعت بينهما، فإنه من جهة أخرى أراد أن يعوض به بعض ما فقده، وينعم ببعض ما عرف عن الزاوية من أعمال البر والاحسان، خاصة مع أهل العلم وأصحاب المعرفة. كما أن زيارته لزاوية أبي الجعد لم تكن قصيرة ومقتضبة، بل طال استقراره بها لبعض الوقت، اشتغل خلاله بتدريس بعض العلوم مثل النحو والصرف وبالخصوص مادة الطب مساهمة منه في تعمير وتنوير مجالسها العلمية. وتلكم أعز مطالب شيخها محمد الصالح، والعملة البديل التي كان يلح كل الالحاح في طلبها وجلبها.

وقد عبر ابن شقرون عن اعترافه وامتنانه لشيخ الزاوية، من خلال قصيدة بعثها إليه، جاء في مطلعها (55) :

اشمسا أطلت من علا الأفق الشرقي
فاخفت سنا الأقمار والنجم والبرق
فخرت فخرت دونك الشم خسفا
لذاك العلا من كل معتبر خرق

استمرت علاقات التواصل بين الشخصين بعد ذلك، إذ طلب محمد الصالح من ابن شقرون أن يؤلف له أرجوزة طبية تحتوي على مجموعة

(54) العبدوني : اليتيمة، ص 335، 336.
(55) العبدوني : اليتيمة، ص 336، 337.

من المعلومات والفوائد والنصائح الطبية المتعلقة بأنواع المأكولات والمشروبات والألبسة، من حيث خصائصها وأوقات تناولها ومدى ملاءمتها للجسم في مختلف مراحل العمر (56)، فكان أن نظم له أرجوزة من سبعمائة بيت عرفت باسم «الأرجوزة الشقرونية» (57) وقد أفرد الطبيب (د . هـ . ج . رينو) هذه الأرجوزة باهتمام خاص، فقام بدراستها وتحليلها وشرح مواضيعها (58).

أشار الأستاذ الأخضر إلى أنه لا تعرف سنة ميلاد ابن شقرون ولا تاريخ وفاته، وكل ما يعرف عنه أنه كان لا يزال حيا عام 1140 / 1727 ــ 1728 (59). إلا أن صاحب اليتيمة أوضح خلال تعرضه لترجمته تاريخ الوفاة الذي ظل مجهولا.

«.. وكان له في علم الطب في الحضرة السلطانية الكلمة المسموعة.. قد شرح أرجوزة ابن سينا في الطب (60) وشرح أرجوزة المكودي..

---

(56) المعداني : الروض، ص 357.

(57) أورد هذه الأرجوزة كل من : المعداني في الروض الصفحات، 358 إلى 385.
ــ طبعت بتونس (المطبعة الرسمية عام 1323 / 1905).
ــ طبعت على الحجر بفاس (عام 1324 / 1906)
ــ توجد منها نسخة مخطوطة تحتوي على 673 بيت فقط بالمكتبة العامة بالرباط. رقم 1613 ك.
ــ نسخة خطية بمكتبة كلية الآداب بالرباط (مكل 108) تحت عنوان «جواب ابن شقرون حول سؤال الصالح الشرقي» (مجلة كلية الآداب، ع : 7؛ (1980) ص، 238).

(58) الأخضر : الحياة الأدبية، ص 209.

Renaud (Dr. H. P. J) ; Medcine et medcins marocains au siecle de My Ismail.
in (A. I. E. O) ; T : 3 (1937) pp : 89 - 109.

(59) الأخضر : المرجع السابق، ص 208، 209.

(60) من تآليفه الطبية أيضا، «النفحة الوردية في العشبة الهندية»
ــ م. العربي الخطابي : الطب والصيدلة : فهارس الخزانة الملكية، بالرباط، مجلد 2، ص 163، 164، 170.

وله في الأدب مقطعات وأشعار وتوشيحات موزونا وملحونا. توفى (ر) سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف..» (61).

4 ـــ عقد ندوات علمية :

عمل الشيخ محمد الصالح على تهيئ حلقات علمية كبرى، يستدعى لها كبار علماء وفقهاء العصر، أو يغتنم فرصة مرور أحدهم بالمنطقة أو زيارة بعضهم للزاوية، ليعقد حوله مجلسا ومنتدى للدراسة والتدارس، حتى يحصل التبادل ويتأكد التواصل بين الزاوية وأطرها وتلامذتها من جهة، وكبار الشخصيات العلمية بعواصم البلاد من جهة ثانية.

من ذلك أنه اغتنم فرصة وفادة الشيخ العالم الحسن ابن رحال المعداني (62) التادلي على الزاوية، فاستدعى فقهاء وطلاب العلم بالقطر التادلي برمته، «فاجتمع عليه خلق كثير من طلبة العلم من أهل الصومعة وفشتالة ونواحي تادلة من الجبل والوطا..» (63) حتى يستفيدوا من كفاءاته العلمية والتعليمية، خاصة في الفقه والنوازل والأحكام إذ كان يدعى «صاعقة العلوم والتدريس».

وهو عمل اكتمل وتواصل في عهد ابنه محمد المعطي بهدف تعمير مجالس الزاوية وإشباع نهم روادها وطلابها، وتعويضهم مشقة النزوح إلى عواصم البلاد العلمية في الشمال والجنوب، وبذلك يغطي إشعاع الزاوية العلمي حيزا شاسعا يكاد يشمل المغرب في قسمه الأوسط جنوب فاس وشمال مراكش، ومن الجبل في اتجاه الساحل الأطلسي في كل من بلاد

---

(61) العبدوني : اليتيمة، ص 337.

(62) حول ترجمته مع مصادرها، انظر :
ـــ الأخضر : الحياة الأدبية، ص 205.

(63) العبدوني : اليتيمة، ص 68.
ـــ الشرقاوي ع : الفتح، ص 154.

تادلا والشاوية ودكالة ومناطق أخرى.. وهذا ما تؤكده أصول الطلاب القبلية، وكذا آثار النفوذ الديني للزاوية، الذي مازال واضحا في هذه المناطق القروية الوسطى من البلاد على الخصوص (64).

د ــ الدراسة بالزاوية :

لم يخرج منهج الدراسة شكلا ومضمونا في زاوية أبي الجعد عن الاطار العام الذي كان متبعا في أهم المراكز العلمية بالمغرب ؛ إلا أنه كان يتقلص أو يتسع حسب ظروف الزاوية وإمكانياتها البشرية فيما يخص التأطير، دون أن نغفل تأثير وسطها القروي، الذي فرض عليها إعطاء اهتمام خاص لبعض المواد دون الأخرى. وهذا كله كان مشبعا بالروح الدينية، لا باعتبار أن ذلك هو الطابع العام المميز للثقافة خلال العصرين السعدي والعلوي فحسب (65) بل وأيضا بسبب هدف الزاوية القريب والبعيد، المتمثل في ترسيخ الثقافة الاسلامية وبث تعاليمها في هذه المناطق البعيدة عن مواطن الاشعاع التقليدية، وتمكين بعض الطلبة من قدر معين من الثقافة، تساعدهم على تبين معالم طريق التصوف وسلوك مدارجه على بينة وهدى من الشريعة الاسلامية، بعيدا عن الشعوذة والانحراف.

اشتهر أبو عبيد الله الشرقي بتصوفه، إلا أنه أيضا، كان فقيها يعلم رواد زاويته مبادئ دينهم الحنيف وأحكام الكتاب ومقاصد أحاديث الرسول عليه السلام. ولاشك أن تكاثر الوافدين وزيادة مشاغل شيخ الزاوية، وكذا الخصاص في تدريس بعض المواد، جعل محمد الشرقي يوجه أبناءه نحو ما يشبه التخصص في بعض العلوم. فبعد مدة من الدراسة

---

(64) وهو ما سوف نوضحه في قسم لاحق.

(65) حجي محمد : الحركة الفكرية، ج 1، ص 61، 62، 134.

ــ هاشم العلوي القاسمي : مقدمة تحقيق كتاب «التقاط الدرر» لمحمد بن الطيب القادري. دراسة وتحقيق، بيروت، ص 93، 112، 113.

والتحصيل نبغ إبنه محمد الغزواني في معظم العلوم المتداولة خاصة الحديث، الذي أخذه عن إمام فاس وعالمها أحمد المنجور (المتوفى عام 995 هـ)، كما أن أخاه محمد المكناسي، أجيز بمصر في قراءة وتدريس صحيح الامام البخاري، في حين كان ثالثهم أحمد المرسي عارفا بالحديث، ختم صحيح البخاري أكثر من عشرين مرة، إلى جانب تمكنه من الكتاب قراءة وتفسيرا، كما أن ابنه محمد لمفضل كان فقيها مشاركا وأستاذا محققا أخذ فنون القراءات وعلومها وتجويدها وتفهيمها على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن القاضي (المتوفى 1082 هـ).

ويظهر أن المعالم الثقافية لمدرسة الزاوية قد اكتملت في عهد محمد الصالح وابنه محمد المعطي بسبب ما بذلاه في هذا الاطار..

كما أن معلومات مصادر الزاوية في هذا الباب، جعلتنا نتبين بعض الخطوط الكبرى للجو الدراسي الذي كان سائدا خلال هذه الفترة المزامنة للقرن 12 هـ / 18 م.

1 ـــ فقد كان بالزاوية مستويان للدراسة على الأقل :

* **مرحلة أولية** : وتتم في (الحضار) (66) أو (المسيد)، يبدأ الأطفال خلالها بالتعرف على الحروف العربية الهجائية حفظا ورسما، ثم الشروع في حفظ فاتحة الكتاب، فسورة الناس، فسورة الفلق، ولا يزالون يوالون حفظ سور القرآن من أسفل إلى أعلى حتى يحفظوه كله عن ظهر قلب (67) ؛ وقد يقترن بذلك ترديد بعض القواعد النحوية البسيطة وبعض مبادىء الدين.. فالمتأهلون من بينهم يقبلون على استظهار «متن»

---

(66) وردت هكذا عند العبدوني في اليتيمة، ص 2. ويدرس به الطفل قبل وصوله سن البلوغ.

(67) العبدوني : المصدر السابق، ص 2.
ـــ حجي : الحركة الفكرية، ج 1، ص 83، 84.

الا جرومية وأرجوزة المرشد المعين (68). وقد اشتهر بالزاوية الفقيه والأستاذ المشارك امبارك بن خلوف السوسي كمعلم للصبيان (69).

* **مرحلة التعليم المتوسط والنهائي** : لم نجد فصلا بين المرحلتين، ذلك أن حلقات الدراسة بالزاوية كانت منصبة بالدرجة الأولى على التعليم المتوسط، وأحيانا يقع الجمع بين المستويين، وهذا راجع إلى مؤهلات الطلبة الفكرية من جهة، وإمكانيات الزاوية من حيث الأطر من جهة أخرى..

وإذا كان قد لوحظ توجه بعضهم نحو فاس ومراكش لاتمام الدراسة والتحصيل والتعمق في العلوم كما حدث بالنسبة لمعظم أبناء الزاوية، بما في ذلك محمد الصالح وقبله والده محمد المعطي بن عبد الخالق، فإنه في مرحلة لاحقة تهيأ للزاوية من الأسباب والامكانيات ما جعل الطلاب في غنى عن مثل هذا النزوح، بل إن الشيخ المعطي بن الصالح ومحمد ابن عبد الكريم العبدوني (الفقيه المؤرخ) مثلا يمكن اعتبارهما من الأطر التي اقتصرت في دراستها كلها على الزاوية، دون حاجة إلى اللجوء إلى جامعات مراكش وفاس مثلا..، بسبب النشاط العلمي والتعليمي الذي عرفته إبان مشيخة محمد الصالح.

2 ـــ المواد المدرسة (70) :

ظل الفقه والحديث والتفسير المواد الركيزة في الثقافة المغربية الاسلامية، وأن اللغة العربية وسيلة وأداة لمعرفة الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن والحديث وأمهات الكتب، ولاشك أن مدرسة

---

(68) هاشم العلوي : مقدمة التقاط الدرر، ص 137، 138، 139.

(69) العبدوني : اليتيمة، ص 33.

(70) لم يقع تعيير كبير في المواد الدراسية خلال معظم فترات التاريخ المغربي، ولأخذ فكرة عن ذلك، انظر : حجي : الحركة الفكرية.. ج 1، ص : 84 ـــ 92.

الزاوية لم تشذ عن هذا، إلى جانب اعطاء اهتمام خاص لمادة التصوف علما وعملا.

ومن أهم العلوم التي برع فيها أشياخ الزاوية وأطرها، وكانت لها الأهمية والأسبقية في حلقات الدراسة، نذكر :

* **القرآن :**

اهتم أشياخ الزاوية بتدريس القرآن قراءة وحفظا وشرحا، باعتباره أساس ومنبع كل العلوم، ويتدرج ذلك من التعليم الأولي فما يليه، فشجعوا المهتمين به، كما كثر عدد المتخرجين من أبناء البادية المجاورة، حتى يعودوا لتعمير مساجد قراهم ومداشرهم التي كانت تشتكي الخصاص من ذلك، وتبعث من حين لآخر لأشياخ الزاوية بطلباتها ورغباتها من أجل تعليم أبنائهم وتفقيه أهاليهم في القرآن وسائر الأحكام الاسلامية.

وقد برع في علم القراءات الشيخ أحمد المكناسي ابن الشيخ الشرقي وحفيده محمد المفضل الذي «أخذ فنون القراءات وعلومها وتجويدها وتفهيمها على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن القاضي الذي اجازه في ذلك (71)، بالاضافة إلى أساتذة آخرين مثل الفقيه امبارك السوسي والمحجوب الموساوي.. وبلغ الاهتمام بقراءة القرآن وشرحه في عهد الشيخ محمد العربي درجة كبرى إذ جعله أصل طريقته وأساس تربية مريديه، حتى كثرت الزوايا القرآنية في عهده في كل من تادلا والشاوية وغيرهما كما كان يحمل معه في حله وترحاله «تفسير الجيلالين» الذي كان يحتل عنده مكانة خاصة بين باقي التفاسير الأخرى. (72).

---

(71) العبدوني : اليتيمة، ص : 118.

(72) الشرقاوي : الفتح، ص : 194.

* **الحديث** : برز في هذا العلم الشيخ محمد المعطي بن عبد الخالق الذي أجازه في هذا العلم شيخه عبد القادر الفاسي.

ومما يدل على اتساع أفقه في هذا الميدان شروعه في تأليف له تحت إسم «الموائد السنية، والأسانيد السنية»،

«ذكرت فيه ما حملته من أحاديثه الشريفة واسمى من رويت ذلك عنه منتظما في سلك سلسلتهم المنيفة..» (73).

وكانت لباقي أشياخ الزاوية اعتناء كبير بعلم الحديث خاصة كتبه الستة (74)، إذ أجاز عدد من علماء المشرق الشيخ محمد العربي في ذلك أمثال الامام أحمد جاد الله خناني، والفقيه العلامة محمد بن أحمد الاترى الحنفي البخاري الخليلي.. (75) كما اجاز أشياخ الزاوية عددا من العلماء والفقهاء أمثال الشيخ التاودي بن سودة.

* **الفقه** : ويشمل العبادات، من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وأضحية وذبائح وصيد.. ثم المعاملات، من بيوع واجارة، وقضاء، وشهادة، ونكاح، وطلاق، وهيبة، ووقف، وقصاص، وحدود.. (76).

لقد اجمعت مصادر الزاوية على تفوق ونبوغ واتقان أشياخ الزاوية لهذا العلم، خاصة الشيخ محمد الصالح ونجله محمد المعطي الذي أجازه في هذا العلم والده وكذلك عمه محمد بن المعطي، في حين أجاز الشيخ التاودي بن سودة محمد بن العربي.

(73) المعداني : الروض، ص 423.

(74) الكتب الستة هي : صحيحا الامامين أبي عبد الله البخاري ومسلم القشيري، وسنن محمد بن ماجة القزويني، وأبي داوود السجستائي، وأبي عيسى الترمذي وأبي عبد الرحمان النسائي.

(75) سبقت الاشارة إليهما في ترجمة الشيخ محمد العربي.

(76) حجي م : الحركة الفكرية، ج 1، ص 87.

إن شهرة الزاوية في هذا الميدان دفعت ببعض الطلبة والفقهاء من المدن الكبرى مثل فاس والرباط. إلى التردد على حلقات الدراسة بها (77). ومن أهم الكتب (الأمهات) التي كانت معتمدة في هذا العلم نذكر : مختصر ابن حاجب (المتوفى 646 هـ) ومختصر الشيخ خليل (المتوفى 776 هـ) الذي كان يحفظه الشيخ المعطي بن الصالح عن ظهر قلب «و لم يزل يتفهم معناه على الأشياخ مع جميع العلوم» (78) وشرح الخرشي (المتوفى 1101 هـ) على مختصر خليل، كما كان تلامذة الزاوية يواظبون على قراءة وحفظ وفهم أرجوزة المرشد المعين لابن عاشر (المتوفى 1040 هـ) (79).

وقد أكد الأستاذ محمد حجي، على أن معظم مؤلفات علماء المغرب خلال العهد السعدي، تتعلق بكتب التوحيد والفقه والتصوف.. (80) وهو نفس الطابع العام الذي ظل مسيطرا إبان العصر العلوي ومنها الفترة التي نهتم بدراستها (القرن 12 هـ)، وإذا كان هذا الاتجاه يبرر بالطابع الديني للثقافة الاسلامية بالمغرب، فإن خصوصيات الزاوية تزيد من قوة هذا الاتجاه بسبب طبيعة مهمتها الدينية المتمثلة في نشر وبث قواعد الدين، وكذا مهام الزاوية الاجتماعية اليومية التي تفرض ثقافة عملية في العبادات والمعاملات، تستجيب لمتطلبات المجتمع القروي اليومية..

وقد سهرت الزاوية على تكوين الأطر المتوسطة في هذا الميدان للقيام بمهام النيابة عنها في القرى والمناطق البعيدة بسبب كثرة الطلب عليهم، حتى يكونوا قريبين من منطقة مباشرة مهامهم.

(77) سنوضح ذلك في قسم لاحق يتعلق بالمتتلمذين على الزاوية.

(78) العبدوني : اليتيمة، ص 10.

(79) العبدوني : اليتيمة، ص 275. وقد أشار «نيكل» إلى هذه الكتب ضمن بحثه حول مكتبات الزاوية.

— Niegle ; La Medersa etles bibliothèques.. p : 296, 297.

(80) حجي م : الحياة الفكرية، ج 1 ص 143.

* **التصوف** : إذا كانت الروح الصوفية هي الاطار العام الذي كانت تتحرك فيه الثقافة المغربية خلال العصر العلوي أو قبله، فإن هذا العلم شكل حجر الزاوية في الثقافة والتعليم بزاوية أبي الجعد، سواء على المستوى النظري أو العملي، إذ أن الشيخ محمد الصالح ربط بين التصوف والعلم بشكل وثيق، فالتصوف عنده بلا علم، مكر وخديعة. كما ألف والده المعطي بن عبد الخالق رسالة يدافع فيها عن نفس النهج.. ولا شك أن كتابي «المرقي» و«الفتح الوهبي» يعتبران بحق من المصادر الرئيسية في هذا الميدان، كما يشهدان على مستوى الزاوية النظري في ذلك وهو ما توضحه الاستشهادات العديدة بأمهات الكتب المؤلفة في هذا العلم مثال ذلك : كتب الغزالي والقشيري وأحمد زروق .. وكما تشهد على ذلك تآليف محمد المعطي بن الصالح، المتمثلة في أحزاب وأسفار الذخيرة، اذ تعطينا مصادر تأليف هذه الأخيرة فكرة واضحة حول ما ذهبنا إليه.

يقول محمد بن عبد الكريم :

«ففتح الله عليه زمان تأليفه في جمع كتب جليلة في ذلك المعنى.. منها، مسالك الحنفا للقسطلاني ونهج الفلاح لأبن معد، وتنبيه الانام لأبن عظوم، ودلائل الخيرات للجزولي.. والحدائق لأبن عرضون.. وكتاب الغنيمة للشيخ محمد بن ناصر، ومنها ج الفلاح للحوضي.. كذلك الدواوين في مدح النبي..»(81).

وكانت «سينية ابن بادس» (82) تحظى من شيخ الزاوية محمد الصالح

(81) العبدوني : اليتيمة، ص 37.

(82) هو أبو الحسن بن أبي القاسم بن باديس القسطنطني (المتوفى 787 هـ / 1385 م) مؤلف قصيدة «النفحات القدسية» التي اشتهرت بـ «السينية» ذكر فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني وأشهر تلامذته، وجعل لها شرحا سماه «اللمحات الأنسية»، كما شرحها العلامة المشارك محمد بن عبد الرحمان الصومعي الذي كان معاصرا للشيخ محمد الصالح.

ــ القادري : النشر، ج 2، ص 277 (فاس).

ــ حجي م : الزاوية الدلائية، ص 121، هامش : 131.

باهتمام خاص شرحا وتفهيما وتدريسا (83)، كما كانت له منظومات وآراء تربوية سبقت الاشارة إليها، خاصة ما يتعلق بضرورة احتراف مريدي الزاوية وتلاميذتها. وإن التصوف عنده لا يعني في شيء الانقطاع عن تحصيل لقمة العيش بعرق الجبين، والانزواء التام عن مخالطة الناس، بل التصوف اجتهاد وجهاد وممارسة وسلوك، ومعايشة لدروب الحياة وامتحان لها.

* **البلاغة والأدب** : شهد لكل من محمد الصالح وآبنه محمد المعطي، المعاصرون والمتأخرون بتفوقهما في علم البلاغة بمختلف فروعه، من بيان، ومعاني، وبديع، مع ملكة خارقة في الانشاء والترسل كما يدل على ذلك انتاج الزاوية الفكري (84) في هذا الاطار.

وصف الافراني شيخ الزاوية محمد الصالح بقوله :

«عين الأعيان، وصدر أرباب البلاغة والبيان، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمله، والأديب الذي تهتدي البلغاء ببراعة قلمه..» (85).

كما أن شهرة محمد المعطي في هذه العلوم، إلى جانب شهرته الصوفية، كانت مثار إعجاب معاصريه من كبار فقهاء وعلماء الحضرة الفاسية، أمثال محمد بن الطيب القادري الذي قال في حقه :

«وله باع في الترسل والانشاء، وعارضة في الأدب وقوة على المطالعة..» (86).

وهو نفس الانطباع الذي تركه مؤلفه «الذخيرة» لدى علماء المشرق والمغرب على السواء (87). وقد استفادت من هذا التفوق حَلقات

(83) العبدوني : اليتيمة، ص 66.

(84) سيأتي الحديث عن انتاج الزاوية الفكري فيما بعد.

(85) الأفراني : النزهة، ص 310.

(86) القادري : النشر، ج 2، ص : 277، 278 (فاس).

(87) الكتاني م : فهرس الفهارس، ج 2، ص 169.

الدراسة بالزاوية، وتأثر بها طلبتها واطرها، كما يظهر ذلك جليا في المستوى اللغوي والانشائي الذي كتب به محمد بن عبد الكريم مؤلفه اليتيمة مثلا (88).

* **علوم أخرى** : أشارت المصادر إلى أن ثقافة محمد الصالح وابنه محمد المعطي كانت شاملة تجمع بين العلوم النقلية والعقلية والعلوم البحثة والتجريبية، في إطار ما عرف آنذاك بـ «المشاركة». فقد اقر يوما لتلميذه محمد بن عبد الكريم، على أنه قرأ على أشياخه اثنى عشر علما لم يطلب منه أحد تعليمها حتى ذلك الوقت (89). ولا يظن أنه كان يعني بذلك العلوم النقلية من فقه وحديث وتفسير وتصوف.. بل الأمر يتعلق بمواد أخرى منها:

«علم التشريح وعلم الهيولة وعلم الطب، وعلم التوقيت، وعلم الحساب، وعلم التعبير وعلم الاختلاجات، وعلم التعديل، وعلم الهندسة..» (90).

وقد كان هذا في مرحلة أولية من حياة الزاوية العلمية، إذ أننا نجد في فترة لاحقة وصول الطبيب عبد القادر بن شقرون إلى الزاوية حيث مكث بها بعض الوقت يدرس الطب ومواد أخرى، فتتلمذ عليه عدد من الطلبة والفقهاء، وفي مقدمتهم محمد المعطي نجل شيخ الزاوية.

وتحدثت المصادر عن خبرة محمد الصالح في الطب العملي، عندما أوردت ما يفيد علاجه لصبي مصاب بانحصار في مسالكه البولية (91).

(88) حفلت الدراسة بنماذج من أسلوب المؤلف المذكور، وسنتعرف عن البعض الآخر فيما يأتي.

(89) العبدوني : اليتيمة، ص 66.

(90) المصدر السابق، ص 194، 195. أما فيما يخص تعاريف العلوم الواردة في النص انظر مثلا : كتاب الامام ملا كاتب جبلي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. (جزءان) الطبعة الأولى، اسطمبول، 1311 هـ.

(91) المعداني : الروض، ص 203، 204.

بالاضافة إلى معرفة نظرية وتطبيقية لأساليب الزراعة والري بواسطة الخطارات وغيرها، وإقامته لمطاحن الحبوب والغلل المدارة بقوة الماء.

3 ــ طريقة محمد الصالح في التعليم :

لم يكن بإمكان الشيخ محمد الصالح أن يخرج عن المنهج التعليمي الذي درس به وتعلم في كل من مراكش وفاس، اذ أن ظروف الزاوية الخاصة، ومستوى الدراسة بها، جعلاه ينتقي من هذه الطرائق أسهلها وأقربها إلى فهم وادراك الطلاب بسبب مستواهم العلمي المتوسط، على الأقل في المرحلة الأولى من حياته. فقد كان يقوم بنفسه بسرد نص الكتاب المدرس، ثم شرحه حينما يكون ذلك محتاجا إلى شرح وتوضيح.

«وكان رضي الله عنه.. لا يقرئنا إلا بالكتاب بين يديه، ويعبر لنا بعبارة مؤلفه، ويقول : هذا الكتاب الفلاني، وهذه عبارته، ولا يزيدنا شيئا عن تقريره، إلا إذا عجز أحد منا عن فهم تلك العبارة.. يحلها له بلسانه، ويوضحها له على قدر وسعه..»

وهذه الطريقة هي المعروفة بـ «طريقة حل المتن»، وقد كان لهذه الطريقة بالمغرب منذ العصر السعدي، مدرستان : الأولى بالشمال والثانية بالجنوب، (92) ويظهر ان محمد الصالح قد سار على نهج المدرسة الأولى، التي حبذها لما تمتاز به من محافظة تامة على النص الأصلي، بحيث، «لا تسمع فيها تعقيبات الشراح والمحشين، وإنما هي فروع تلحق بأصولها، ومسائل تضم إلى نظائرها.» (93).

برر محمد الصالح ذلك بقوله : «كثرة التعبير باللسان تمشدق في العلم.. ما فاز بتحصيل العلم والمحافظة عليه إلا أهل الحديث، فإنهم ينقلون الحديث كما سمعوه أو رووه.» (94).

(92) حجي م : الحركة الفكرية، ج 1 ص 94، 95.

(93) المرجع السابق، ص 95.

(94) العبدوني : اليتيمة، ص 61.

4 ــ حفل الختم :

استمدت مدرسة الزاوية أعرافها وتقاليدها العلمية من المراكز الثقافية الكبرى بالبلاد، نظرا للعلاقات الوطيدة التي كانت تجمعها بها عبر مختلف أطوارها التاريخية، مما يدل على ما أصبح للزاوية خلال القرن 12 هـ. من تمرس وتمرن في هذا الميدان ومدى ترسخ الثقافة الاسلامية المغربية في هذه الديار.. ومن أهم هذه التقاليد : حفل الختم، الذي ينظم بمناسبة الانتهاء من دراسة إحدى الأمهات العلمية في إحدى المواد الرئيسية، مثل التفسير والحديث والفقه.

وقد اشتهرت في تاريخ الفكر المغربي حفلات ختم صحيح البخاري، سواء في العصر السعدي أو العلوي خاصة في العاصمتين مراكش وفاس (95)، مما يجعلنا لا نشك في أن مدرسة الزاوية بأبي الجعد أخذت بدورها بهذا التقليد. إلا أن حفلات الختم بها لم تقتصر على صحيح البخاري فقط، بل كانت تقام أيضا بمناسبة ختم كتاب الشفا للقاضي عياض (96) إذ يتم خلال هذه المناسبة، إعطاء ترجمة شاملة عن حياة مؤلف الكتاب العلمية منها على الخصوص، ثم استعراض ما للمؤلف من روايات، وإجازات..، ثم بعد ذلك تقديم شرح مفصل للموضوع.. (97) إلا أن زاوية أبي الجعد قد أخذت على ما يبدو بالتقليد الدلائـي في هذا الصدد، إذ أنه في نهاية حفل الختم، تلقى قصائد شعرية تخليدا لهذه المناسبة.

«وكان ختمه بضريح الشيخ سيدي محمد الشرقي، ولما ختمناه، انشدت هذه القصيدة في مدح النبي ﷺ، وفي مدح أبي الفضل عياض

---

(95) حجي محمد : الحركة الفكرية، ج 1، ص 114، 115.

(96) العروسي : المرقي، ص 226.

(97) حجي محمد : المرجع السابق، نفس المكان.

رضي الله عنه، ومدح الشيخ محمد الشرقي.. (98)» ومطلعها :

حدث بفضل محمد وبحقه
عرف وعظم منصبا للمجد (99)

ثانيا : توفير العيش والمقام للطلبة والعلماء :

بذل أشياخ الزاوية مجهودات جبارة لتوفير الجو الملائم لاستقرار العلماء والمتعلمين الوافدين على الزاوية، حتى لا يشعروا بالغربة أو السأم، بسبب اختلاف بيئة القرية عن الحواضر الكبرى.

فقد كان الشيخ محمد الصالح يستجلب لسكنى زاويته العلماء والأولياء، ويبر بهم، ويتودد لهم قصد سكناهم بها وعمارتهم لها، ويسأل منهم الدعاء لها ولسكانها (100)، ومما ساعد على ذلك، ظروف الاستقرار السياسي والاجتماعي في المنطقة وخارجها على عهد المولى إسماعيل، الذي أضفى على الزاوية وشيخها، رداء التوقير والاحترام، وأسبغ عليها أنواع الهدايا والنعم. كما حملت وفود الزوار والخدام إلى شيخها الهبات «والزيارات»، سخرت جميعها لخدمة هدف أشياخ الزاوية النبيل، ألا وهو نشر العلم ورعاية أهله، بحيث وسع من الانفاق عليهم، وبذل جزيل العطاء للعلماء والفقهاء العاملين بها.

كانت ثمرة هذه المجهودات، أن ترددت أصداء هذه السمعة الدينية والعلمية في مختلف مناطق البلاد، خاصة في المدن الكبرى، مما أغرى بعض

(98) العروسي : المصدر السابق، ص 226.

(99) المصدر السابق، ص 226 وما بعدها. وهي «دالية» من 25 بيتا، أعقبها ببعض الشروح والتعاليق.

(100) العبدوني : اليتيمة، ص 43. وقد أشرنا فيما سبق إلى مجهودات أشياخ الزاوية التعميرية والعمرانية خاصة مدرسة الشيخ الشرقي وما يرتبط بها من المرافق.. وسوف نوضح جوانب أخرى من هذا النشاط فيما سيأتي.

الشخصيات العلمية الكبرى إلى إلقاء عصا الترحال بها، ليجدوا بين ظهرانها ماافتقدوه في مراكش ومكناس مثلا، من اعتناء ورعاية، خاصة إذا تعلق الأمر بشخصيات علمية كبرى في مستوى العالم والمؤرخ الأفراني، والفقيه الطبيب الشهير عبد القادر بن شقرون.

ثالثا : المتخرجون والمتلمذون :

عرفت زاوية أبي الجعد منذ تأسيسها، توافد العديد من أبناء القطر التادلي على الخصوص.. إلا أنه إذا كانت لهذه الوفود حرية الاختيار بين عدة مراكز علمية تادلية مثل زاوية الصومعة، وزاوية دلا في مرحلة أولى، فإن خفوت ذكر الزاويتين (101) في العصر العلوي بالمقارنة مع زاوية أبي الجعد، جعل التركيز ينصب أكثر فأكثر على الزاوية الشرقاوية.

وتحفظ لنا المصادر أسماء العديد من أبناء المنطقة، درسوا بالزاوية، وترقوا في حياتهم العلمية بها، ليصبحوا بعد ذلك فقهاء مرموقين، البعض منهم اشتغل ومارس التعليم بها، مثل الفقيه عبد المومن البغادي الورديغي، ومنهم من جمع بين التدريس والعمل ككاتب خاص لشيخ الزاوية مثل الحسن بن محمد المعداني، ومحمد المعداني، ومحمد بن عبد الكريم العبدوني، في حين كلف بعضهم بمهمة إيصال كتب الشيخ، وترأس وفد رسله إلى القصبة التادلية مركز إقامة الوالي أو الأمير، مثل الفقيه بلعيد القوني، كما أشرف بعضهم على ثروات الزاوية بالبادية مثل الفقيه محمد بن أبي يعزى السجدالي. أما الفقيه المقدم الصغير بن عمر فقد كلف بالائتمان على خزائنها وتصريفها في أوجهها مثل إطعام الطعام للطلبة والزوار..

(101) كان تحطيم زاوية دلا عام 1079 / 1668 على يد السلطان العلوي المولى الرشيد، فبعد أن خربها، غرب أبناءها وعلماءها عن المنطقة، ونقل عددا منهم إلى مدينة فاس. أما زاوية الصومعة فقد استمر نشاطها الديني والعلمي إلى بداية العصر العلوي، حيث اشتهر بها محمد بن عبد الرحمان الصومعي، المتوفى 1123هـ موافق 1712 م.

وقد وجد من بين هؤلاء المتلمذين من بلغ درجة كبيرة في علمه وصلاحه وقر به من أشياخ الزاوية حتى أدرك عندهم مكانة تعدل مكانة أشهر أبناء الزاوية. مثل الفقيه الصالح سيدي علي بن سعيد، أحد تلامذة ومريدي الشيخ محمد الصالح وقبره اليوم من مزارات المدينة، كما أن شهرة وصلاح الفقيه سيدي عبد القادر الزيزي (102)، كانت أكثر أهمية، بحيث يوجد ضريحه قريبا من ضريح الشيخ الشرقي من الناحية الشمالية..

إلا أن بعض هذه الشخصيات العلمية، وجب الوقوف عندها نظرا لأهميتها ومساهماتها في تراث الزاوية الفكري. ومنهم :

أ ــ الحسن بن محمد الهداجي المعداني :

أحد تلامذة الزاوية وأطرها البارزة، تتلمذ للشيخ محمد الصالح وكذلك لابنه محمد المعطي، وهذا الأخير هو الذي أشار عليه بتأليف كتابه «الروض اليانع الفائح..» بعد وفاة محمد الصالح (103)، وقد فرغ منه عام 1179 / 1765. اشتغل الحسن بن محمد إلى جانب التدريس بالزاوية بمهمة الكتابة، ولذلك ضمن مؤلفه العديد من مراسلات أشياخ الزاوية وقد أصبحت له مكانة خاصة لدى الشيخ محمد المعطي، بحيث كلفه بالنيابة عنه في كتابة عقد نكاحه على إحدى زوجاته من أسرة شريفة بفاس عام 1176 (104).

اعتقد ل. بروفنصال، أن المترجم له هو الحسن بن رحال المعداني ؛

---

(102) تنسب إلى عبد القادر الزيزي حومة بأبي الجعد تعرف بـ «درب سيدي عبد القادر الزيزي» يفصلها عن «درب الشيخ» حومة أو «درب لغزاونة» نسبة إلى سيدي الغزواني بن الشيخ الشرقي. وعبد القادر الزيزي من أشياخ محمد المعطي بن الصالح..

(103) المعداني : الروض، ص 4.

(104) أطلعني المكلف بالزاوية حاليا الحاج محمد الشرقاوي على نسخة عقد النكاح المؤرخ بـ 22 شعبان 1176 تتضمن نيابة الفقيه الحسن بن محمد الهداجي والادلاء بالنسب العمري، كما تتضمن شجرة أهل الزوجة التي تنتهي بالمولى إدريس بن مولانا ادريس.

الفقيه العلامة القاضي المشهور بالحضرة المكناسية على عهد المولى إسماعيل والذي توفى 1140 / 1723 (105)، بل إنه جانب الحقيقة أيضا، عندما زعم أنه كان أول من اعتنى بتدوين تاريخ الزاوية (106).. فقد ورد في كتاب «الروض» اسم الحسن بن رحال كأحد العلماء المشهورين (107)، كما ورد ذكر مؤلف «المرقي» عندما نقل عنه بعض أخبار محمد المعطي بن عبد الخالق والد الشيخ محمد الصالح (108).

ينتسب الحسن بن محمد الهداجي إلى قبيلة «بني معدان» التي لا زالت إلى اليوم من أهم قبائل القطر التادلي (109)، نزح منها إلى الزاوية للتعلم بها كباقي أبناء الناحية، فتخرج منها كفقيه وأديب ومؤرخ انيطت به مهمة تسجيل حقبة من تاريخ الزاوية، (عاصر الشيخ محمد الصالح المتوفى 1139 هـ). واشتهر من هذه القبيلة أو الأسرة أيضا الحاج محمد بن يوسف المعداني، الذي كان من فقهاء الزاوية والمقرئين لكتاب الله عز وجل بها (110).

توفي الحسن بن محمد الهداجي المعداني بعد عام 1180 هـ/ 1766 أي في تاريخ مقارب لوفاة الشيخ محمد المعطي بن الصالح.

ب ـــ محمد بن عبد الكريم العبدوني :

وهو المشهور باسم «الفقيه ابن عبد الكريم» ويمثل مع الحسن الهداجي مفخرة الزاوية، باعتبارهما من خيرة ما أنجبته حلقات الدراسة بها، كما تدل على ذلك ثقافتهما وأسلوبهما وأهمية معلوماتهما التاريخية.

(105) ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء ص 212. وقد تنبه لهذا الخلط صاحب الدليل (ج 1، ص 214).

(106) ل. بروفنصال : المرجع السابق، نفس المكان.

(107) المعداني : المصدر السابق، ص 450.

(108) المصدر السابق، ص 418.

(109) تستقر قبيلة «بني معدان» حاليا إلى الغرب والجنوب الغربي من مدينة تادلا الحالية.

(110) المعداني : المصدر السابق، ص 226.

التحق محمد بن عبد الكريم بمدرسة الزاوية، وهو صغير السن (111) واستمر مواظبا على دروس أشياخها خاصة محمد الصالح ومن بعده محمد المعطي، إلى أن أصبح واحدا من أبرز علمائها وفقهائها. ووقع اختيار شيخ الزاوية عليه للذهاب إلى بلاد زعير للقيام بمهمة التعليم والوعظ والارشاد وتفقيه الناس في أمور دينهم بطلب من بعض أعيان هذه القبيلة (112)، كما لازم الشيخين معا وسلك عليهما طريق التصوف، خاصة الشيخ المعطي الذي قاله عنه : إنه لم يفارقه مدة اثنين وأربعين سنة، إذ كان يجد فيه شيخه، التلميذ المصغي، والمريد الطيع المتفاني في محبته وخدمته، والأنيس له في خلوته ووحدته، خاصة عندما كان مشتغلا بتأليف كتابه «الذخيرة».

«وكان رضي الله عنه، حين تأليفه لكتاب الذخيرة هو المملي علي فيه، وأنا الكاتب وهو المؤلف له وأنا الصاحب.. يسر بمرافقتي، ويفرح بمعاشرتي..» (113)

وكان رفيقه أثناء تنقله وترحاله، مسجلا لمختلف اللحظات الحاسمة في حياة هاته الشخصية، كما جاء ذلك مسطرا في مؤلفه «اليتيمة» الذي يعتبر بحق من أهم مؤلفات وتراث الزاوية الفكري من حيث معلوماته التاريخية وطريقة سياقتها ومناقشتها أحيانا..

بذل محمد بن عبد الكريم جهدا كبيرا، وتحمل الكثير من الجلد والصبر في ملازمة شيخه ونسخه لأسفار الذخيرة التي بلغت نحوا من ستين سفرا من الحجم الكبير، وعندما توفي شيخه عام 1180 هـ عزم على إعادة نسخها مرة ثانية، وما إن بلغ فيها سبعة أجزاء حتى كف بصره وهو

(111) العبدوني : اليتيمة، ص 137.

(112) المصدر السابق، ص 21.

(113) المصدر السابق، ص 13.

ما كان يخافه شيخه قبل مماته ويقول له : «بصرك بصري.. فحفظني الله من ذلك الواقع.. في حياته» (114).

توفى الفقيه المؤرخ «ابن عبد الكريم» بعد وفاة شيخه بحوالي تسع سنوات (1189 / 1776) ودفن بجوار شيخه بأبي الجعد.

جـ ــ محمد بن أبي القاسم الرباطي :

هو محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل السجلماسي المعروف بالرباطي، من كبار الفقهاء الأجلاء، كان عالما مجتهدا في القراءة والتدريس، مشاركا ورعا زاهدا.. درس بالزاوية وتخرج منها على يد الشيخ محمد المعطي، فأخذ عنه علم الظاهر والباطن، ليصبح بعد ذلك أحد أطرها النشيطة، سواء في حياة شيخه أو بعد مماته، إذ أنه سهر ــ إلى جانب أساتذة الزاوية الآخرين ــ على تكوين وتعليم محمد العربي والأخذ بيده في سلوك طريق القوم، حتى أصبح واسطة بينه وبين والده محمد المعطي (115).

عايش محمد بن أبي القاسم أحداث الزاوية في أحرج ظروفها، فرحل عنها مع جملة الذين أبعدوا عنها، عندما توترت العلاقات بين شيخ الزاوية محمد العربي والسلطان محمد بن عبد الله، فاستقر بالرباط، وهناك تتلمذ عليه عدد من الأعلام، نذكر منهم : محمد بن عبد السلام المشهور «بالضعيف الرباطي» (116).

أصبحت لمحمد بن أبي القاسم بالرباط مكانة هامة، فقد ترأس صلاة الاستسقاء بها عام 1195، عندما ضاق الناس ذرعا بانحباس المطر، وعمهم اليأس خلال تلك السنة، فكان أن رحم الله عباده بعد

(114) المصدر السابق، ص 14.

(115) الشرقاوي ع : الفتح، ص 242.

(116) تاريخ الضعيف الرباطي : م. خ. ع. الرباط، رقم 660 د. الصفحة، 211.

قنوط.. (117) كما اسندت له الامامة بها، فهو الذي كان إماما للسلطان محمد بن عبد الله عند حلوله برباط الفتح، وأول من استقبله بعد عودته إليها على اثر حملته ضد زاوية أبي الجعد عام 1200 هـ.. (118)

وعندما عفا السلطان المولى هشام على شيخ الزاوية محمد العربي وأرجعه لموطنه، نجد أن محمد بن أبي القاسم كان من جملة العائدين إليها، إلا أنه ما كاد يستقر بها حتى أمره المولى سليمان ؛

«بإعمال ركاب للرباط بقصد قراءة البخاري به، وتدريس العلوم، فامتثل أمر السلطان مكرها..» (119).

وخلال وجوده خارج الزاوية، ظل يراسل شيخها محمد العربي، ويتشوف ليمن الله عليه بالعودة، حتى يجتمع شملهما، ويلتئم جمعهما، إلى أن أرجعه السلطان إليها في آخر عمره. (120)

يعد محمد بن أبي القاسم من أبرز المتخرجين من الزاوية، كما يعد من أطرها العلمية والدينية التي ساهمت بحظ وافر في استمرار إشعاعها وتعمير حلقات الدراسة بها أو خارجها. إلا أنه في نفس الوقت تعطينا حياته في اضطرابها وتقلباتها صورة لأحوال الزاوية أواخر القرن 12 هـ وبداية القرن 13 هـ في عهد شيخها محمد العربي ؛ وستظهر أبعاد ذلك في الفترة اللاحقة من حياة الزاوية، والتي يعتبر فيها اختفاء كل من محمد العربي ومحمد بن أبي القاسم علامة مؤشرة لذلك التحول خاصة بالنسبة لنشاطها العلمي والتعليمي.

ومما يجب توضيحه بهذا الصدد، أن شهرة محمد بن أبي القاسم بلقب

---

(117) المصدر السابق، ص 188.

(118) المصدر السابق، ص 198.

(119) الشرقاوي ع : المصدر السابق، ص 214.

(120) الشرقاوي ع : الفتح، ص 215.

«الرباطي» كانت متأخرة، وأنها أضيفت لاسمه بعد وفاته. فقد ذكر محمد ابن عبد السلام الضعيف ــ وهو تلميذ له ومعاصر له ــ اسمه كالتالي : محمد بن أبي القاسم السجلماسي (121)، وجاء في الفتح الوهبي : محمد ابن بلقاسم الفلالي أصلا البجعدي دارا (122)، ذلك أن معظم حياته كطالب علم أو فقيه مدرس، قد قضاها بزاوية أبي الجعد، كما صاهر اسرتها «المرابطية»، وقضى آخر حياته بجوار شيخها محمد العربي، إلى أن توفي بها في مطلع القرن 13 هـ عام 1214 / 1799 م تحت تأثير وطأة وباء هاته السنة (123) ودفن بضريح شيخه وأستاذه ومربيه محمد المعطي قريبا من قبره، وبإزاء مدفن الفقيه محمد بن عبد الكريم.

من تآليفه «العمل المطلق» (124) أو «العمل الرباطي (125)» متنا وشرحا، وهو في الفقه. و«مفتاح الاقفال في مزيل الاشكال (126) ألفه عام 1170 هـ وهو تعليق على الآجرومية، و«نوازل القضاء» ألفه بتاريخ 1180 هـ (127).

ومن أشهر الآخذين عنه والمتتلمذين عليه، السلطان العلوي المولى سليمان، الذي أجازه وأذن له بالرواية عنه، خاصة كتب الحديث ودلائل الخيرات والورد الناصري.. (128).

---

(121) تاريخ الضعيف : في مواضع متعددة.

(122) الشرقاوي ع : المصدر السابق، ص 214.

(123) تاريخ الضعيف : ص 40.

(124) جاءت هاته التسمية عند ابن زيدان في الاتحاف، ج 5، ص 422.

(125) الشرقاوي ع : المصدر السابق، ص 214. وأورد «نيكل» هذا الاسم مع اسم مؤلف آخر تحت عنوان «العمل الفاسي» في تقريره عن الزاوية.

— NIEGLE ; La Medersa.. p : 297.

(126) نيكل : المرجع السابق، ص 295.

(127) المرجع السابق، ص 297.

(128) أبو القاسم الزياني : شرح جمهرة التجان، م. خ. ع. رقم 1220 ك، 70
ــ الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، ص 328، 331.

أشرنا إلى أن محمد بن أبي القاسم، كان بالاضافة إلى مساهماته العلمية داخل الزاوية، قد شارك مشاركة ملموسة في حلقات التدريس والاقراء خارج الزاوية، خاصة بمدينة رباط الفتح.. ويظهر أن ثمرة مجهودات شيخي الزاوية محمد الصالح ومحمد المعطي قد أتت أكلها كما ظهر ذلك جليا من خلال عدد تلامذتها ومريديها، ومستوى بعض هؤلاء العلمي، ممن احتفظت لنا المصادر بنصيب متواضع عن حياتهم ومساهماتهم، آملين أن يكشف البحث التاريخي مستقبلا عن صور أخرى لهذا النشاط العلمي.

غير أن شهرة مدرسة الزاوية وأطرها لم تبق في حدود ضيقة، ذلك أن شخصيات علمية أخرى، ومن مناطق وحواضر كبرى، لم تجد مندوحة عن الحج إلى ربوع زاوية أبي الجعد، يدفعها إلى ذلك تعطشها الصوفي وشغفها العلمي، ليدركوا مرادهم ونصيبهم لدى أشياخها، الذين عم ذكرهم سائر البلاد. وسنقتصر هنا على ذكر بعض هؤلاء، إلا أن اختيار هذه النماذج نفسها لا يخلو من دلالة ومغزى، تزكي ما ذهبنا إليه سالفا.

د ـــ التاودي بن سودة (129) : (المتوفى عام 1209 / 1795)

هو أبو عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن محمد بن علي بن محمد ابن علي بن أبي القاسم بن محمد بن أبي القاسم المري الفاسي. أحد كبار علماء الحضرة الفاسية والمغرب عموما، حتى لقب بشيخ الجماعة لورعه وتبحره في العلوم (130)، كما وصف بـ «إمام فقهاء المغرب» (131).

تخرج على يد الشيخ التاودي العديد من الطلبة والعلماء، أمثال ولده

(129) حول ترجمته مع مصادرها : الأخضر : الحياة الأدبية، ص 322، 323.

(130) المرجع السابق، ص 322.

(131) الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 1، ص 185.

أحمد والطبيب ابن كيران (132)، وادريس العراقي (133) وحمدون بن الحاج (134) وسليمان الحوات (135) ومحمد الرهوني (136) ومحمد العربي (137) أحد أشياخ الزاوية.

ألف الشيخ ابن سودة في التراجم والمناقب والانساب ووضع شروحا في الحديث والفقه، وله مؤلفات أخرى متنوعة (138).

ذكر ابن سودة في فهرسته (139) شيوخه الذين أخذ عنهم وتتلمذ عليهم أمثال أحمد بن امبارك السجلماسي، الذي كان عمدته في رواية الحديث ومحمد بن الحسين الكندوز، وسلك طريق التصوف على يد الشيخ أحمد بن محمد الصقلي، ومن أشياخه كذلك محمد المعطي شيخ زاوية أبي الجعد، الذي قال عنه :

«الولي الكبير ذو الفخر الشهير والقدر الخطير سيدي المعطي بن صالح العمري.. لقيته بمنزله وتبركت به، ودعا لي، وقرأت عليه الحديث الأول من البخاري، والأول في شمائل الترمذي، وأطلعني على أسفار من كتابه ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب التاج..» (140)

---

(132) حول ترجمته مع مصادرها. الأخضر : الحياة الأدبية، ص 345 إلى 347.

(133) المرجع السابق، ص 295 إلى 297.

(134) حول ترجمته مع مصادرها، انظر :
ـ الأخضر : الحياة الأدبية، ص، 352 إلى 356.

(135) ل. بروفنصال : مؤرخو الشرفاء : ص 241 ـ 244.

(136) الأخضر : المرجع السابق، ص 348 إلى 350.

(137) وهو الشيخ محمد العربي بن الشيخ محمد المعطي.. وقد سبقت ترجمته والاشارة إليه في عدة مواضع.

(138) الأخضر : المرجع السابق، ص 324، 325.

(139) فهرست ابن سودة : مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : 725 د، 952 د، 3251 ك.

(140) المصدر السابق : م. خ. ع. رقم 725 د، الورقة 40/ب.

هـ ــ القاضي المهدي مرينو : (المتوفى 1188 هـ / 1774 م)

«هو القاضي أبو عيسى السيد المهدي مرينو الأندلسي أصلا، الرباطي دارا كان من العلماء العاملين والفضلاء الكاملين..» (141).

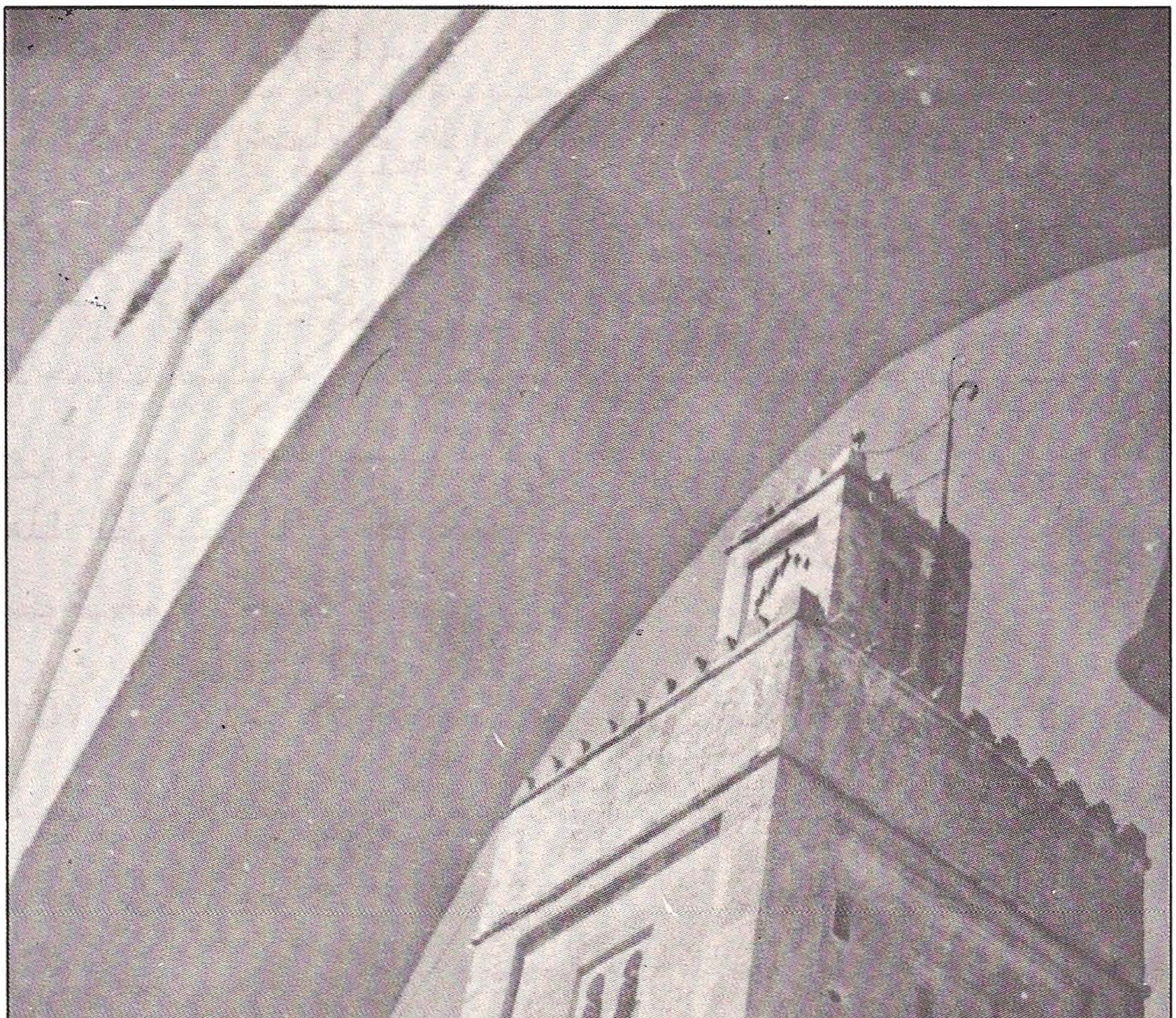
بهذا عرف به صاحب الاغتباط، أما بقية الترجمة، فتتعلق بظروف اتصاله بزاوية أبي الجعد ومقامه بها ورحيله عنها، ولذلك آثرت أن أورد بقية النص كاملا، نظرا لدلالاته التاريخية فيما يتعلق بأهمية الزاوية كمركز علمي :

«رحل (القاضي المهدي مرينو) إلى أبي الجعد، وبه قرأ العلم، ومن أجلّ من أخذ عنهم هناك، الولي الصالح السيد المعطي بن صالح، وهو المشير إليه بالرجوع لبلده عام 1156 هـ، فصادف بها الثورة الشهيرة في التاريخ، وحصار مولاي المستضئ للرباط، فالقي القبض عليه وامتحن بقيد من حديد، إلى أن تحققت براءته بكونه كان غائبا عن البلد، وسلم الله تعالى ببركة شيخه المذكور، بعدما كان السلطان المذكور يريد قتله باغراء عامل سلا عبد الحق فنيش سامحه الله، ولما استخبره السلطان عن وجهته أجاب : بأنه كان منقطعا بزاوية أبي الجعد في طلب العلم الشريف. فقال له : اقرأ باب فرض الحج، فقرأ وأحسن، وكان سبب اطلاق سراحه وإشراق مصباحه (142).

---

(141) محمد الرباطي (بوجندار). «الاغتباط بتراجم أعلام الرباط» م. خ. ع. الرباط رقم 1287 د. ص 120.

(142) المصدر السابق، ص 120، 121.



صومعة جامع مولاي سليمان

الفصل الثالث

○ ○ ○

بداية الخفوت

أولا : ظروف تأسيس جامع مولاي سليمان

أ ـــ مرحلة ما قبل التحطيم.

ب ـــ الزاوية في غياب شيخها

جـ ـــ عودة الشيخ للزاوية.

ثانيا : بوادر الأفول.

بدايـــة الخفـــوت

أولا : ظروف تأسيس مدرسة جامع مولاي سليمان

لماذا تأسست هذه المدرسة ؟، خاصة إذا علمنا أن ظروف هذا التأسيس لا تسمح بافتراض أن ذلك يدخل في إطار التوسع العلمي والتعليمي الذي يمكن أن تكون قد عرفته الزاوية مع مطلع القرن الثالث عشر الهجري.. (1).

إن المصادر لا تشير لا من قريب أو بعيد لأي شيء من ذلك، كما أنها لا تتعرض لما يمكن أن يكون قد وقع من انقسام أو تنافس داخل البيت المرابطي الشرقاوي، اتخذ كرمز له توزيع نشاطها التعليمي بين مدرسة الشرقي والمدرسة الجديدة، هذا في الوقت الذي عرف فيه مطلع القرن 13 هـ، شبه خفوت كلي للمدرسة الأولى، إلى الحد الذي جعلنا لا نسمع أو نقرأ أي صدى لها بعد انصرام القرن 12 هـ (2). لذلك سنحاول تتبع مراحل وظروف الحادث باعتباره أحد النقط التي لم تفصح فيها المصادر، إما عن قصد أو غير قصد.

---

(1) NIEGLE. op. cit ; p : 292. وهو صاحب هذا الافتراض.

(2) تأكد لنا أيضا بواسطة الرواية الشفوية لكبار رجالات الزاوية سنا وأهمية.

أ ــ مرحلة ما قبل التحطيم :

وهي الفترة التي تبدأ من وفاة الشيخ المعطي عام 1180 هـ، إذ واصلت الزاوية نشاطها العلمي في رحاب مدرسة الشيخ الشرقي، وأنه وجد بعد الشيخ المذكور من الأساتذة والأطر، ما أمن الاستمرار لهذا الاشعاع مثل الفقيه ابن عبد الكريم والفقيه المحجوب المساوي ومحمد بن أبي القاسم الفلالي (الرباطي).. وفي هذا الجو العلمي والديني تربى وتعلم محمد العربي الذي خلف والده على رأس الزاوية، فقد تركه بعد وفاته فتى لم يكتمل نضجه ولا تكوينه علميا وصوفيا..

وفي عام 1190 هـ رحل الشيخ محمد العربي إلى المشرق حاجا وطالبا للعلم، فأجازه هناك عدد من علماء المشرق.. ووافق رجوعه بقليل بداية مرحلة من العلاقات الغير الودية بين شيخ الزاوية والسلطان العلوي محمد ابن عبد الله انتهت بحادثة التخريب عام 1200 هـ.

ب ــ الزاوية في غياب شيخها :

إذا لم يكن بالامكان تقدير ومعرفة أبعاد حادث التحطيم.. فإن ما هو مؤكد، هو أن هذه العملية، رافقها نفي شيخ الزاوية وأبنائه وافراد اسرته وبعض خاصته إلى مراكش، وتبعا لذلك، هجر الزاوية عدد من الأطر التعليمية والشخصيات العلمية أو أُبعدوا عنها، باعتبارهم من «الغرباء المنحاشين لها..» وهي أحداث لا يمكن تصور معها استمرار نشاط علمي ما.. ذلك أن عنفها (3) يذكرنا بحادث مماثل وقع تقريبا في نفس المنطقة ونعني به تحطيم الزاوية الدلائية على يد السلطان المولى الرشيد.

---

(3) سنفصل القول في الموضوع في باب آخر.

جـ ــ عودة الشيخ إلى الزاوية :

إن استقرار محمد العربي بزاويته بصفة نهائية لم يتم إلا في عام 1223 هـ (4)، بعد أن ظل مبعدا عنها أكثر من عشر سنوات (5) وبقي بها بعد ذلك إلى أن توفي عام 1234 هـ. وهي فترة كافية لاعادة بناء ما تحطم، على الأقل من الناحية العمرانية. وتميزت هذه الفترة بما يلي :

- عودة عدد من أبناء الزاوية والمقربين لها، بما في ذلك بعض الأطر العلمية.
- ارسال المولى سليمان منحة مالية هامة لبناء جامع الزاوية (6)، وبالطبع الحقت به مدرسة عرفت بـ «مدرسة جامع مولاي سليمان» تخليدا لهذا الحدث العمراني، الذي دشن عودة الصفاء بين السلطان والشيخ.
- إرسال بعض أبناء الأسرة المالكة للدراسة بالزاوية في فترة موالية (7) ومعنى ذلك عودة استئناف النشاط التعليمي والعلمي بها.

وتحتفظ لنا المصادر بعدد من أسماء الذين درسوا بالزاوية خلال هاته الفترة، وتخرجوا منها، من أبناء الناحية على الخصوص (8) أمثال : الفقيه الحاج التاغي الحمراوي، والفقيه الصالح محمد السماتي الجبلي، والقرشي الورديغي، والفقيه محمد بن الصالح العميري..

---

(4) تاريخ الضعيف، ص 453.

(5) ابعد عن زاويته للمرة الثانية عام 1211 هـ انظر : المصدر السابق، ص 358.

(6) الناصري : الاستقصا، ج 8، ص 173. أشار إلى بناء الجامع دون ذكر للهبة المالية التي صرفت في ذلك، وهو ما لا يزال عالقا باذهان أبناء الزاوية المعاصرين مع تفصيلات الحادث، وكما نقله «ايكلمان».

— EICKELMAN ; Moroccan Islam... p : 41.

(7) من بينهم المولى عبد الرحمان بن هشام (الفتح، ص 264، 265).

(8) الشرقاوي ع : الفتح، ص 194.

ثانيا : بوادر الأفول :

إن أهم ما يستنتج مما سبق، هو اختفاء ذكر مدرسة الشيخ الشرقي، وأن ما تحفظه ذاكرة الخلف (9) هو إسم «مدرسة لمرح لكبير» وهي تقريبا، في موقع متوسط بين ضريح الشيخ الشرقي وضريح الشيخ العربي، مما يجعلنا نفترض أنها كانت مقرا أوليا بدأت الزاوية تستعيد فيه بعض نشاطها التعليمي، قبل أن يتم بناء مدرسة جامع مولاي سليمان ؛ وأن مدرسة الشيخ الشرقي وما يتصل بها من مرافق، قد لحقها بعض ما لحق بالزاوية من تخريب.

«وضاعت منه ما لا يحصى من الكتب وصيره أرضا دكا..» (10).

لقد حاولت مدرسة المولى سليمان بزاوية أبي الجعد، أن تستقطب شيئا فشيئا النشاط العلمي للزاوية.. إلا أنها مع ذلك لم ترق لمستوى المدرسة الأولى، خاصة بعد التوجيه الديني والعلمي الذي رسمه لها الشيخ محمد العربي، بتأكيده على القرآن ودراسته كأساس لطريقته، إلى جانب كتب ائمة الحديث خاصة صحيح البخاري.. وأنه أصبح يحض تلامذته ومريديه على المواظبة على ذلك، حتى كثرت الزوايا القرآنية في عهده مثل زاوية الحاج التاغي بالشاوية (11) وزاوية محمد بن الصالح العميري بتادلا (12).. في حين نرجح أن إجازات الشيخ العربي لعدد من علماء الحضرة الفاسية، أمثال محمد بن محمد الحسن بناني (المتوفى 1225 هـ)

---

(9) مخابرة شفوية للمسن الحاج عبد المالك الشرقاوي وآخرين.

(10) تاريخ الضعيف، ص 197.

(11) توجد هذه الزاوية إلى اليوم قرب مدينة ابن أحمد بالشاوية.

(12) وهي المعروفة اليوم بـ «سوق أربعاء لفقيه ابن صالح» بقبيلة بن عمير.

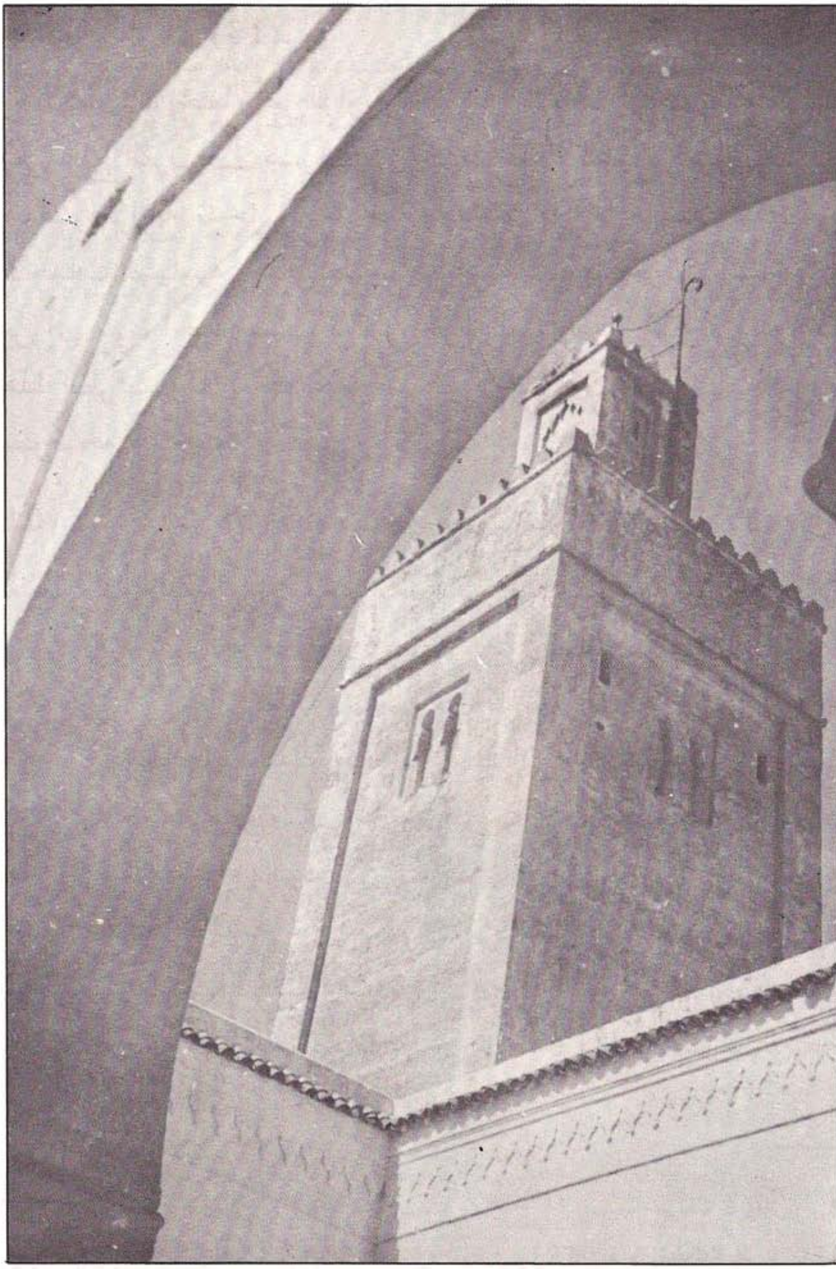
وأحمد بن التاودي بن سودة.. قد تمت أثناء إقامة الشيخ الاجبارية بعاصمة الشمال (13).

لاشك أن إختفاء أطر الزاوية الكفأة في ظروف تميزت بعدم الاستقرار مع مطلع القرن 13 هـ. والتي تأكدت بوفاة الشيخ العربي بعذ ذلك، جعلت الزاوية تدخل في مرحلة جديدة أقل ما توصف به، هو أن الأحداث السياسية وما يرتبط بها من اهتمامات، قد جرفت أشياخها أكثر من أي شيء آخر، بسبب تركيز المخزن العلوي على الزاوية وأدوارها في هذا الظرف وما بعده، وهو ما ظهر جليا في عهد محمد العربي كما سنوضحه في حينه.

---

(13) الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، ص 168.

— ابن ابراهيم : الاعلام، ج 5، ص 134. في حين لم يتعرض صاحب الفتح لهاته الشخصيات.



صومعة جامع مولاي سليمان

الفصل الرابع

○ ○ ○

التراث الفكري للزاوية

أولا : كتب التراجم.

ثانيا : الذخيـــرة.

ثالثا : نماذج فكرية أخرى.

التراث الفكري للزاوية

يتمثل الانتاج الفكري للزاوية في عدة نماذج، منها كتب التراجم، فالمراسلات وبعض الأشعار والملحونات وكتابات نثرية ذات اغراض ومواضيع مختلفة.

وهذه النماذج في معظمها قد تم استخراجها من مصادر الزاوية، مما يزيد من أصالتها وصحة نسبتها لأصحابها.

أولا : كتب التراجم :

أ ــ المرقي في مناقب سيدي مَحمد الشرقي

ألف عبد الخالق بن محمد العروسي الشرقاوي كتابه مباشرة بعد عودته من رحلته الدراسية إلى زاوية أبي الجعد قصد الاستقرار بها بصفة نهائية، اذ أن هذا التأليف كان قبيل وفاة شيخه محمد الصالح بسنة أو سنتين، (1) دافعه في ذلك

«الانخراط في سلكهم، وتبديل درهمي المغشوش بخالصهم..» (2)

(1) العروسي : المرقي، ص 137. ويستنتج ذلك من قوله : «وأما من أتى بعد وفاة الشيخ بمدة مقدارها مائة سنة وثمانية وعشرون سنة» ويقصد بالشيخ، الشيخ محمد الشرقي.

(2) المصدر السابق، ص 306.

وأسماه «المرقي في بعض مناقب القطب سيدي مّحمد الشرقي (3)»

فبعد التعريف بالشيخ المذكور، يتعرض «لذكْر طريقته وأشياخه، وشيء قليل من كرائمه، وبعض البعض من اتباعه..» (4).

بوب العروسي مؤلفه كالتالي (5) :

الباب الأول : في فضل سيدنا محمد ﷺ وفيه خمسة فصول.

الفصل الأول : في سبقية وجوده. والثاني : متى تبثت له النبوة والثالث : في فضله. والرابع : في فضل أمته. والخامس : كون طائفة منها اقطابا وأبدالا ونجبا.

الباب الثاني : في التعريف بالشيخ سيدي مّحمد الشرقي، وفيه أربعة فصول.

الفصل الأول : في التعريف بوالديه.

الفصل الثاني : فيمن أخبر بوجوده من الأشياخ.

الفصل الثالث : في التعريف بمن أخبر به من الأشياخ.

الفصل الرابع : في نسبه.

الباب الثالث : في طريقة الشيخ وسلسلة أشياخه، وفيه فصول.

الباب الرابع : في (كرائمه) وفيه فصول.

الباب الخامس : في ذكر صلحاء الوقت وبعض تلامذته وفيه فصول.

«ثم نختم الكتاب إنشاء الله بشيء من كلامه».

ضمن العروسي مقدمة الكتاب اعتذاره، واعترافه بقلة باعه في الموضوع، بسبب بعده عن عصر الشيخ الشرقي، إذ أن ذلك لا يتأتى

---

(3) المصدر السابق، ص 3.

(4) المصدر السابق، ص 2.

(5) المصدر السابق، ص 3.

إلا للمعايش والمعاصر له، وإن ما كتبه عن شيخ الزاوية، اعتمد فيه على ما وجده.

«بخط الثقاة مكتوبا أو ذكره أحد من العلماء الذين ذكروا الشيخ، ممن وقفنا وعثرنا على تأليفه أو شيء نقلته جماعة عن مثلهم وتوارثه الاصاغر عن الأكابر. (6).

وممن نقل عنهم : والده الفقيه محمد العروسي (7)، وشيخه محمد الصالح، كما نقل عن المرآة والممتع والمحاضرات، باعتبارها أهم الكتب التي تعرضت لترجمة الشرقي.

من عنوان المؤلف، يظهر أنه يندرج ضمن كتب المناقب، إلا أن استعراضنا لتصميمه ومحتواه يجعلنا نلاحظ ما يلي :

ـــ مهد لكتابه بذكر بعض أخبار نبوءة محمد ﷺ، ليخلص من ذلك إلى القول بأن بعض أسرار النبوة بقيت سارية المفعول ومستمرة بعده في طائفة من صالحي الأمة وخيرتهم، سواء كانوا اقطابا أو ابدالا أو نجباء.. وان من بين هؤلاء محمد الشرقي، الذي كان قطب وقته، وأنه جمع بين الشرف السلالي العمري القرشي، والطريقة الصوفية السنية المثلى.

ـــ خصص الباب الرابع لذكر بعض كرامات الشيخ الشرقي، وهو ما يعادل قرابة نصف كتابه (120 صفحة من أصل 307) (8)، إلا أن الكرامات التي تعرض لها لا تتجاوز بضع صفحات، في حين توسع في شرح وتحليل تلك الكرامات، والتعقيب عليها ومناقشتها، مع الاشارة إلى مثيلاتها عند كبار المتصوفة المسلمين من مغاربة ومشارقة وما قيل في أوجه حدوثها.. ممهداً لكل ذلك بالحديث عن المعجزة والكرامة

(6) العروسي : المرقي، ص 3.

(7) راجع القسم المتعلق بترجمته وترجمة ابنه عبد الخالق العروسي.

(8) العروسي : المرقي، من الصفحة 137 إلى 261.

والسحر والفرق بين كل منها (9)، ورأي كل من الباقلاني والغزالي والشهرستاني، وابن السبكي وغيرهم.

فبعد الكلام عن «سماع الشرقي» واشتهاره به وطربه له وما حدث له من إشراق ومكاشفة في هذا الشأن (10)، يؤكد بعدها أن ذلك من اختصاص خيرة عباد الله الصالحين المجتبين والمقربين، مفصلا بعد ذلك القول في السماع والوجد، وآراء العلماء والفقهاء والمتصوفة في ذلك، مستعرضا كرامات مماثلة عند كبار أشياخ التصوف، أمثال أبي الحسن الشاذلي. ليخلص إلى إعطاء رأيه في الموضوع.

ربط العروسي بعد ذلك بين السماع والمحبة.. وأن من علامات محبة الله محبة كلامه، والتلذذ بتلاوته وسماعه.. وأن من علامات محبة الله أيضا، محبة رسوله ﷺ .. حاضا المريدين والسالكين على اقتفاء الأثر (11).

ـــ بَرَّر عبد الخالق العروسي أسلوبه ومنهجه هذا بقوله:

«وربما ذكرت شيئا أجنبيا على أنه ليس بأجنبي.. ولا يخفى على ذي بال وأديب عارف ذي كمال، ومن له اطلاع على كتب الأئمة، وخبرة بمصنفات الاعلام الأجلة، وأن الشيء يذكر بالشيء أحيانا، وأن العلم كالماء نباع، وبعضه لبعض تباع..» (12).

إلا أن أطنابه في فكرة ما.. كثيرا ما يبعده عن الموضوع أو الفكرة التي حاول توضيحها وإبرازها، مما يجعل من الصعب تتبع آرائه، ويفقدها الوحدة والتماسك، ومع ذلك فهو يفيدنا في معرفة مدى اتساع ثقافته

---

(9) المصدر السابق، ص 137 ـــ 142.

(10) المصدر السابق، ص 166 ـــ 175.

(11) المصدر السابق، ص 175 ـــ 204 وكذلك ص 229 ـــ 235.

(12) المصدر السابق، ص 2.

الدينية والصوفية، كما يفيدنا مستوى مدرسة الزاوية وأطرها في هذا المجال، على الأقل من الناحية النظرية.

ـــ إن «المرقي» ليس كتابا في المناقب، كما يتبادر لأول وهلة، كما أنه ليس فقط ترجمة لحياة الشرقي، إذ تضمن التعريف بكبار أشياخ التصوف خلال القرن 10 هـ وقبله مثل أبي الحسن الشاذلي والجزولي والتباع والملياني وأبي بكر الدلائـي وابنه محمد.. بالاضافة إلى أشهر أبناء الزاوية وأشياخهم في العلم الظاهر والباطن، فهو بذلك يفيدنا أيضا في ثقافة عبد الخالق العروسي كفقيه وصوفي ومؤرخ يكتب التراجم.

ـــ إن الكرامات التي وردت في المرقي، لا تفيدنا فقط الاطار الصوفي الذي من أجله ساقها المؤلف، ولكنها توضح أيضا جوانب أخرى ذات أبعاد إجتماعية وسياسية واقتصادية وأحيانا نفسية. فبالرغم من جوهرها الروحي، إلا أنها لم تجد مهربا عن الواقع الذي نشأت، وانتجت فيه ومن أجله.

ـــ يعتبر المرقي أول مؤلف في تاريخ الزاوية، وتأتي أهميته من كونه أول من اعتنى بالفترة الأولى من حياتها، أي من مرحلة التأسيس في منتصف القرن 10 هـ / 16 م حتى أواخر القرن 11 هـ / 17 م. فهو بذلك قد ملأ فراغا تاريخيا وزمنيا مهما.. فمهما كانت معلوماته ضئيلة حول هاته الفترة إلا أنه ـــ على الأقل ـــ لخص لنا ما كان شائعا ومتداولا في عصره، حول شخص مؤسس الزاوية وبعض أبنائه.. فقد أوضح، ولأول وهلة، أن أهم مشكلة واجهته لانجاز عمله، تتمثل في قلة معلوماته التاريخية حول شخص الشرقي.

«ثم اعلم أني أعتقد وأعترف أني ما اتيت إلا بشيء قليل من فضل هذا الولي.. لأن استيعاب ذلك واستفاءه إنما يكون من المعاين المعاصر الملازم الحاضر.. (13).

(13) العروسي : المرقي، ص 3.

ب ـ الروض اليانع الفائح في مناقب أبي عبد الله المدعو بالصالح :

ألف الحسن بن محمد الهداجي المعداني مؤلفه هذا بإشارة من شيخه وأستاذه أبي عبد الله محمد المعطي نجل محمد الصالح وخليفته (14). ووقع الفراغ من تأليفه يوم الخميس 8 جمادى الأولى عام 1179 هـ أي قبيل وفاة شيخه بقليل (15).

بوب المعداني مؤلفه كالتالي :

مقدمة : تشتمل على ثلاثة فصول.

ـ الفصل الأول : في شيء من فضائل الأولياء.. وفي الكلام عن الكرامة.

ـ الفصل الثاني : في التعريف بهذا الشيخ الموضوع فيه هذا الكتاب.

ـ الفصل الثالث : في ذكر أشياخه الكاملين، وذكر بعض إخوانه في الله من العلماء والأولياء، الذين عاصروه في وقته وبعض ما كان بينه وبينهم من المكاتبة والمراسلة.. وختم ذلك بعد الكرامات..

وخاتمه مشتملة على ثلاثة فصول.

ـ الفصل الأول : في منظوماته وقصائده وتوسلاته.

(14) المعداني : الروض، ص 4.

(15) وهو التاريخ المسطر في نهاية المخطوطات رقم 7740 ورقم 61 بالخزانة الملكية (الرباط) وكذلك في مخطوط أبي الجعد الذي اعتمدناه.. وهذا يخالف ما جاء في كتاب ابن سودة (الدليل ج 1، ص 214). الذي جعل الانتهاء منه عام 1159 هـ.

ـ الفصل الثاني : في التعريف بوالده سيدي محمد المعطي.

ـ الفصل الثالث : في ذكر نسبه المعظم.. وذكر بعض كرامات الشيخ مَحمد الشرقي.

سار المعداني في مؤلفه مسارا مخالفا تمام الاختلاف عن «المرقي» شكلا ومضمونا. فقد استهل كتابه بالحديث عن الأولياء والصلحاء، كما جاء ذلك في القرآن والحديث، لينتقل بعد ذلك للكرامة، من حيث أصلها وشرفها وفضلها والدليل على ثبوتها من السنة والكتاب وكلام الأئمة الفحول.. (16).

ثم ربط بين التعريف بالشيخ محمد الصالح والحديث عن نسبه، مشيرا إلى أن إلغاء النسب جور والاقتصار عليه عجز (17) تاركا التفصيل في الموضوع إلى نهاية مؤلفه (18).

ويشكل القسم المتعلق بذكر أشياخه وصحبته من العلماء والصلحاء وما كان بينه وبينهم من مراسلات، أهم محتوايات الكتاب (19)، خاصة إذا أضفنا لذلك منظوماته وقصائده النثرية وتوسلاته (20)، مما يكون لنا مادة علمية بالغة الأهمية، ومن تم يصبح «الروض» سجلا حافلا لنشاط الزاوية العلمي والفكري بمختلف أوجهه، ومعبرا أصدق تعبير، كما وكيفا عن الفترة التي سبق أن أصطلحنا عليها اسم «مرحلة الاشعاع» الفكري في تاريخ الزاوية. (21)

---

(16) المعداني : المصدر السابق، ص 5.

(17) المصدر السابق، ص 53.

(18) المصدر السابق، ص 460 ـ 468.

(19) المعداني : الروض، ص 66 ـ 137 وكذلك 254 ـ 266 وكذلك 308 386.

(20) المصدر السابق، 266 ـ 307.

(21) انظر القسم المتعلق بنشاط الزاوية العلمي.

ويظهر أن المؤلف لم يجد كبير عناء في جمع مادته العلمية والتاريخية، بحكم موقعه ومكانته في الزاوية كأحد أبرز تلامذتها وأطرها بل وكاتبها ورسولها في المهام الأكثر خصوصية.. مما جعل تحت يديه، ركاما من أوراق ووثائق رسمية تتضمن مراسلات الزاوية وتآليف شيخها المتعددة الموضوعات بالاضافة إلى كونه كان معاصرا للفترة التي كتب عنها، ومكملا معلوماته حول الموضوع بواسطة ما نقله عن محمد بن عبد الكريم (22) والشيخ محمد المعطي وشخصيات أخرى ذكرها بأسمائها، عايشت الشيخ محمد الصالح ولازمته في معظم فترات حياته مثل الفقيه المرابط محمد بن عبد الرحمان الصومعي ومحمد بن يوسف الدلائـي.. ومن ثم جاء مؤلفه وما تضمنه بعيدا كل البعد عن الأطناب الممل، خال من كل حشو يضر بوحدة الموضوع وأفكاره، وهو ما امتاز به عن كتاب المرقي، هذا إلى جانب كون مادته مستقاة من منابعها الأصلية والأصيلة.

إن المناقب والكرامات لا تشغل حيزا هاما من كتاب «الروض» بالمقارنة مع ما حفل به من انتاجات شيخ الزاوية الفكرية المتنوعة ؛ إلا أنها مع ذلك تتميز بخاصيتين.

1 ــ إن المناقب والكرامات عنده جاءت في معظمها مصوغة في إطار أحداث ووقائع إجتماعية وسياسية واقتصادية بارزة الدلالة، بعيدة كل البعد عن التجرد أو المناقشات النظرية الصوفية، كما هو الشأن في المرقي، فهي تتحدث مثلا : عن ضرورة توفير الدواب لحرث أرض الزاوية، أو عن ضرورة تدخل شيخ الزاوية لانقاذ حياة أحد اتباعه، من قصاص أو ظلم حاكم أو كيف يسر الشيخ زواج أحد أصحابه، وقيمة ما دفع إليه من النقود والتجهيز، أو علاجه لصبي مريض بانحصار في مسالكه البولية

---

(22) ذكر اسم ابن عبد الكريم، ولم يشر إلى مؤلف اليتيمة مما يؤكد تأخر تأليف كتاب «اليتيمة» عن كتاب «الروض».

إلى غير ذلك من الأحداث اليومية التي كان يعيشها شيخ الزاوية، وبذلك جاءت كراماته غنية بالاشارات التاريخية المتعددة المواضيع.

ــ إن كرائم الروض في مجملها، تهم المخزن وموظفيه، وأنها إلى جانب ذلك تتميز ببعض الجرأة أو الصراحة، ويفسر ذلك على الأقل بعاملين :

أولا : الثقة بالنفس التي اكتسبتها الزاوية، وما يتصل بها من تلامذة ومريدين وأطر، وأنها أصبحت منذ عهد المولى إسماعيل وبعده، مركز أمان، وحصنا حصينا لكل من لاذ بحماها، اذ تمثل فعلا منطقة «حرم» بالنسبة للسكان من جهة والسلطات المخزنية من جهة أخرى.

ثانيا : لقد عبر المؤلف من خلال الكرامات، عن الفترة التي عاصرها والمتمثلة في مغرب ما بعد المولى إسماعيل، وما عرفته البلاد من فوضى واضطراب وتفتت للسلطة، نتج عنه ازدياد نفوذ الزاوية وتوطيد دعائمها في عهد شيخها محمد المعطي، ولذلك لم يجد حرجا في الحديث عن المخزن وموظفيه بشيء من «الحرية» دون مراوغة أو مداراة أو تستر وراء الكلمات.

جـ ــ يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي.

ألف محمد بن عبد الكريم العبدوني مؤلفه «يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المعطي ومناقب أبيه سيدي محمد الصالح (23) بعد وفاة شيخ الزاوية محمد المعطي السابق الذكر. إلا أن بعض الاشارات الواردة في الكتاب نفسه، تؤكد أنه كان مشتغلا بتأليفه على الأقل منذ عام 1151 هـ (24)، وأنه استمر في جمع مادته طوال

(23) العبدوني : اليتيمة، ص 1.

(24) المصدر السابق : ص 279.

معاشرته لشيخه، وهي الفترة الممتدة من عام 1139 إلى 1189 هـ، ليفرغ منه بصفة نهائية في فترة لاحقة من هذا التاريخ.

قسم ابن عبد الكريم كتابه كالتالي :

الباب الأول : في نشأتهم في الطاعة والديانة وجميل الأوصاف..

الباب الثاني : في ذكر محاسنهم ومحاسن آبائهم وأجدادهم، ونسبهم العلي، ووطنهم المبارك.

الباب الثالث : في ذكر ولايتهم الخاصة، ومن أخبر بها، وذكر أشياخهم.. وكرائمهم المعهودة.

الباب الرابع : في ذكر أحزابهم ووظائفهم، وتآليفهم الجليلة، ومن تخرج على أيديهم من أكابر العلماء، وأرباب الأحوال والمقامات..

استهل «ابن عبد الكريم» مؤلفه بالتعريف بأشياخ الزاوية انطلاقا من المعاصرين له إلى أبي عبد الله الشرقي ووالده وجده (25)، دون تمهيد لذلك بالكلام عن النبوءة أو الغلماء (26).. متجنبا في ذلك التكرار والتقليد، مكتفيا بما كتبه سابقوه في الموضوع، على اعتبار أن الكتب المؤلفة في أشياخ الزاوية تكمل بعضها البعض، إلا أن هذا لم يمنعه من التركيز على شخصية كل من محمد المعطي الابن ومحمد الصالح الوالد، باعتبارهما هدف مؤلفه الرئيسي، ومن تم جاءت أبواب اليتيمة متكاملة ومتسلسلة، إلا أنها مبتورة الآخر، ذلك أن المؤلف لم يكتب له ــ على ما يظهر ــ أن ينجز الباب الرابع، وهذا بالفعل ما تأكد لدينا بعد تقصي عدة نسخ من الكتاب المذكور (27)، مما يجعلنا نرجح أن سبب عدم

---

(25) المصدر السابق، ص 2 ــ 114.

(26) انظر حول هذا : المرقي، الروض، كما سبقت الاشارة إليهما.

(27) نسخة أبي الجعد رقم 1 المعتمدة في الدراسة، وكذلك نسخة أبي الجعد

اتمام مشروعه يفسر إلى حد بعيد، بحادثة العمى التي ألمت به في نهاية حياته، وهو ما حال دون إضافة قسم يعتبر بحق ــ لو أنجز ــ من الأهمية بمكان، علما بأنه تفرد دون غيره من «مؤرخي الزاوية» بتخصيص قسم من مؤلفه لمعلومات مثل هاته. ولو تيسر في يوم ما العثور على مؤلف تام ــ إن كان موجودا ــ لسد فراغا علميا مهما، يتعلق بتاريخ الزاوية الديني والفكري ؛ إلا أن هذا لا يجعلنا ننقص من قيمة ما يحتويه كل من مؤلفي الروض واليتيمة، إذ أنهما معا تعرضا بشكل مباشر أو غير مباشر إلى معلومات تتصل بموضوع الباب الرابع..

ــ ذيل ابن عبد الكريم القسم المتعلق بالتعريف بأشياخ الزاوية، بحديث عن نسب الأسرة العمري (28) مفصلا في ذلك القول أكثر من سابقيه، ومعبرا عن امكانيات ومعرفة بعلم الانساب علما وتطبيقا، ليربط بين شرف الأعمال وشرف النسب.

ــ يعتبر الباب الثالث (29) تتمة لما جاء من معلومات سابقة مقتضبة عن أشياخ الزاوية، مع تسليط الضوء أكثر على كل من محمد المعطي ومحمد الصالح، خاصة ما يتعلق بأشياخهما في العلم الظاهر والباطن، مع الحديث اثناء ذلك عن طريقة الشرقي وأوراده، تاركا التفصيل في ذلك ــ كما يظهر ــ إلى الباب الرابع، لينتقل بعد ذلك إلى مناقشة الكرامة (30) ومدلولها وشروطها وأنواعها، كتمهيد لذكر كرائم أشياخ الزاوية المعاصرين له خاصة، معتبرا زمن وظروف ظهور شيخه محمد

= رقم 2. / نسخة الخزانة العامة رقم 283 ك.

ــ نسخة خ. ع. بالرباط رقم 305 ك.

ــ اختصار اليتيمة : م. خ. ع الرباط رقم 509 ج.

(28) العبدوني : اليتيمة، ص 115 ــ 135.

(29) المصدر السابق، ص 145 ــ 400 وهي آخر صفحة من المخطوط المعتمد.

(30) المصدر السابق، ص 266 ــ 267، 268.

المعطي من الكرامات الدالة على خصوصيته، لما تميز به عصره من اضطراب وفتن وأزمة (31).

ـــ ترجع أهمية كتاب اليتيمة إلى كونه مصدر معلوماتنا الرئيسي عن الشيخ محمد المعطي، إلا أنه أضاف أشياء جديدة لما جاء في كتاب الروض حول والده محمد الصالح وعصره (32). مع تركيزه وتوقفه عند مواضيع وأحداث تاريخية سبق أن تعرضت لها مؤلفات سابقيه، فأعاد صياغتها وكتابتها بأسلوب المؤرخ والنسابة والمحقق، مثل ذلك : قضية النسب وظروف استقرار أسرة الشرقي بتادلا عامة وبأبي الجعد على الخصوص، موضحا امكانيات المنطقة ومميزاتها الجغرافية والدينية.

ـــ يحتل قسم الكرامات في اليتيمة حيزا هاما (33)، ففي الوقت الذي تجنب فيه تكرار ما أورده سابقوه من الكرائم، يضيف إلى ذلك كرائم جديدة، تتميز بما يلي :

أولا : إن كرائم كل من محمد الصالح ومحمد المعطي تعتبر تاريخا حقيقيا لهما، بل أحيانا تطبع بطابع المذكرات والمشاهدات اليومية المباشرة، اذ نجده قلما ينقل عن آخرين، على اعتبار أنه كان بدوره مصدر معلومات صاحب الروض، وراوية أخبار، وعالم بالسير.. فصاغ معلوماته كالتالي : وسمعت منه، وسألته، وكنت معه، وما وقع لنا حين ذهبنا إلى كذا.. إلخ.

ثانيا : تترجم كرائمه جو المغرب عامة، ومنطقة نفوذ الزاوية خاصة خلال العصر أو الفترة الموالية لوفاة المولى إسماعيل، وهي فترة مواتية أكثر

---

(31) المصدر السابق، ص 275 ـــ 302.

(32) المصدر السابق، ص 39 ـــ 31 وكذلك ص 307 ـــ 383.

(33) المصدر السابق، ص 275 ـــ 306 وكذلك 307 ـــ 400.

من غيرها، لبلورة عمل شيوخ الزوايا على جميع المستويات، خاصة الجانب الاجتماعي والسياسي. ولذلك قسم ابن عبد الكريم كرائم شيخه محمد المعطي مثلا إلى فرعين :

ــ كرائمه مع الأشخاص والقبائل.

ــ كرائمه مع المخزن وموظفيه.

ثالثا : يدرج ضمن هذا أيضا، ظروف حياة شيخه وعصره، وظروف تأليف محمد المعطي لكتاب الذخيرة ولأحزابه.. وهي معلومات بالرغم من أهميتها الفائقة، إلا أنها في نفس الوقت تشعرنا بالأسف العميق إذ توضح لنا ما كان بإمكانه كتابته حول هذا وغيره، لو قدر لمؤلفه إن يستوفي أبوابه الأربعة.

ــ بقي أن نشير ولو باقتضاب إلى أسلوب ابن عبد الكريم وطريقته في سرد الأحداث ومعالجتها، والتي تجعل له مكانة خاصة بين مؤرخي الزاوية، ومن تم كان اعتمادنا التلقائـي عليه كثيرا، بسبب ما امتازت به اخباره من شرح وتعليق وتمحيص، فهو يتوقف عند الأشخاص البارزين معرفا، وعند الأحداث الهامة مركزا ومثيرا الانتباه إليها، مع الاهتمام بتواريخها، خاصة إذا تعلق الأمر بأزمات وكوارث أو وفيات بعض الشخصيات التي انفرد أحيانا باثباتها دون سائر كتب التاريخ والتراجم (34)، هذا عدا أسلوبه السهل السلس والممتع أحيانا، بالرغم من لجوئه من وقت لآخر إلى استعمال المحسنات وربما الافراط فيها، إلا أن ذلك لا يكون إلا في مواقف تحتل عنده مكانة خاصة، مثل ذلك أثناء تعريفه بالشيخ أبي عبد الله الشرقي.

الذي قال عنه :

---

(34) مثال ذلك تاريخ وفاة الطبيب الاديب عبد القادر بن شقرون.

ــ انظر ترجمته السالفة الذكر.

«هو بحر الولاية الممتلىء الفياض، وأسد العناية الهصور العرباض، الذي ملأ سره قلوب أهل مودته وفاض.. أبو الفتوحات الربانية، و المآثر الكاملة الصمدانية، والمكارم الجليلة الاحسانية والخصال الباهرة الفردانية، والكرامات الزاهرة النورانية والأسرار القدسية العرفانية.. بحر المعارف الذي لا يدرك قعره، ونور العناية الذي لا يخسف بدره، وكهف الحماية الموطىء لأهل الخير أكنافه، ومنار الهداية اللين لأهل السر أعطافه..» (35).

وهنا يذكرنا بأسلوب أسفار الذخيرة، وأحزاب الشيخ المعطي، مما يفسر مدى تأثره بمدرسة شيخه من الناحية الدينية والأدبية معا.

د ــ اختصار اليتيمة : (36)

لمؤلفه الفقيه المكي بن الشيخ محمد المعطي بن الصالح، الذي كان ينوي نسخ الكتاب كله، لأن المؤلف ابن عبد الكريم قد توفى «قبل اخراجه من المبيضة» إلا أن فتن الوقت ومصائبه هي التي حالت دون ذلك، مما جعله يقتصر فقط على ذكر كرامات كل من الشيخين محمد الصالح ووالده محمد المعطي دون أن يلتزم بترتيب الكتاب الأصلي، كما أنه لم يتوقف عند حدود الاطار الزمني للمؤلف، بل نجده يتحدث عن أشياء وقعت بعد وفاة المؤلف، وعاصرها هو وشارك فيها، مما يجعل «الاختصار» تكملة من بعض الأوجه للمؤلف الأصلي.

---

(35) العبدوني : اليتيمة، ص 99.

(36) عثرنا عليه صدفة ضمن أرقام أسفار الذخيرة بالخزانة العامة (الرباط) تحت رقم ح 509، وهو من الحجم الكبير، حالته لابأس بها، إلا أنه غير مرقم، يحتوى على 74 ورقة (148 صفحة) وهذا المؤلف لم نظفر به لدى أبناء الزاوية بأبي الجعد.

هـ ــ الفتح الوهبي في مناقب الشيخ العربي.

ألف أبو حامد العربي بن داوود (37) كتابه «الفتح الوهبي في مناقب الشيخ أبي المواهب مولانا العربي» بعد وفاة هذا الأخير بحوالي ستين سنة (38).

علل المؤلف هذا التأخير وعدم الاهتمام بـ « عنفوان الشباب.. فلما ايقظني الله من ذلك الوسنان.. رجعت إلى تلقي ذلك وجمع ما هنالك .. من مشيخة هؤلاء الشعوب.. ولم يبق منهم إلا القليل في هذا الجيل، ففاتني بفوتهم تعداد كرامات كثيرة.. (39)».

إلا أنه وجب أن نضيف إلى ذلك مهامه العديدة، نظرا لاشتغاله بامور الزاوية في حياة والده ومنذ وقت مبكر (حوالي 1260 هـ) (40).

رتب أبو حامد العربي بن داوود مؤلفه على مقدمة وستة أبواب وخاتمه.

المقدمة : في ما يتعلق بالأولياء من سلوك طريق الأدب معهم واعتقاد

---

(37) هو أبو حامد العربي بن داوود بن العربي بن المعطي بن الصالح، كلف بشؤون الزاوية في حياة والده، كما أشرف على حلقات الدراسة بها نيابة عنه. وعندما توفي والده عام 1307 هـ بقي يباشر مهام الزاوية بعده إلى أن توفي عام 1316 هـ. وقد وضع مؤلفه «الفتح» للتعريف بجده الاقرب الشيخ العربي بن المعطي المتوفي عام 1234 هـ.

(38) جاء في «الفتح» أن عصر المؤلف وزمن تأليفه لكتابه يبعد عن عصر أبي عبد الله الشرقي حوالي 290 سنة (1010 + 290) وعلى ذلك يكون تاريخ التأليف حوالي 1300 هـ وليس 1298 كما كتب ذلك أحمد بن الطالب بن سودة في نهاية النسخة المكتوبة بخط أحمد بن بوبكر بن محمد عواد (نسخة أبي الجعد).

(39) الشرقاوي ع : المصدر السابق، ص 6.

(40) ابن إبراهيم : الاعلام، ج 5، ص 193.

الخير فيهم، وإثبات الكرامة منهم، وكيفية زيارتهم وما اختير لذلك من الدعاء.

الباب الأول : في فضل سيد الوجود، والسبب في كل موجود.

الباب الثاني : في فضل الأمة المحمدية.

الباب الثالث : في التعريف بجده.. سيدي محمد الشرقي وذكر أشياخه وطريقته.. ومناقبه.. مع التعرض لذكر بعض أولاده وتلامذته.

الباب الرابع : في التعريف بالشيخ صاحب الترجمة وذكر نسبه الصالح وابتداء أمره..

الباب الخامس : في التعريف بأشياخه الذين أخذ عنهم.

الباب السادس : فيما من الله على هذا السيد الجليل من الكرامات والمناقب..

الخاتمة : فيما ينبغي للمريد سلوكه في طريق مولاه..

قصد العربي بن داوود بعمله هذا التعريف بجده شيخ الزاوية محمد العربي ومناقبه، إلا أن ذلك لم يحتل من مؤلفه إلا جزءا يسيرا، اذ أن القسم الأكبر من كتابه اهتم بتكرار ما سبق أن جاء في كتب تراجم أشياخ الزاوية.

«وما اتبتته.. نقلته من المرقي، وما زدته بعد هذا نقلته من تقييد السيد محمد بن عبد الكريم في اليتيمة..(41).

وما يستحق التأكيد عليه حول مؤلف «الفتح الوهبي» يتمثل فيما يلي :

ـــ إن المؤلف أحد أبناء الزاوية المرشحين للخلافة والاشراف على

---

(41) الشرقاوي : الفتح الوهبي، ص 118.

شؤونها.. وأنه توفرت له من الامكانيات «الذاتية والعلمية» ــ دون والده ــ ما جعله يقدم على عمله هذا.

ــ خصص حيزا من مؤلفه للتعرض إلى موضوع التصوف، وكيفية سلوك الطريق، والكرامة وما إلى ذلك (42).. متبعا في ذلك أسلوبا تعليميا يتميز بالحض والدفاع عن هذا النوع من الثقافة والسلوك، معززا ذلك بأقوال كبار علماء التصوف، أمثال الجنيد والكرخي والشبلي والغزالي وأبي مدين، الذي نقل عنه قوله :

ما لذة العيش إلا خدمة الفقراء
هم السلاطين والسادات والأمراء(43)

ــ إن ما جاء في كتاب «الفتح الوهبي» من معلومات حول الشيخ العربي الذي ألف فيه الكتاب تتمحور فيما يلي :

أولا : إجازات أشياخه، المشارقة على الخصوص بنصوصها الكاملة، حسبما أجازوه بها أثناء زيارته لمصر والديار المقدسة (44).

وهي بالاضافة إلى فائدتها العلمية، توضح مدى أبعاد اتصالات فقهاء وعلماء وصلحاء المغرب بالمشارقة، كدليل على استمرار الترابط والتواصل الفكري بين أطراف العالم العربي.

ثانيا : إن معلومات «الفتح الوهبي»، التاريخية عن الزاوية وشيخها العربي، جاءت في معظمها على شكل كرامات (45)، إلا أن نوعها ومضمونها يترجم بشكل واضح آثار حادثة تأزم العلاقات بين الشيخ

(42) المصدر السابق، ص 1، 2 وكذلك 8 ــ 37 وأيضا 289 ــ 321.
(43) المصدر السابق، ص 17.
(44) المصدر السابق، ص 213 ــ 260.
(45) الشرقاوي ع : الفتح الوهبي، ص 261 ــ 286.

العربي والمخزن في عهد كل من السلطانين سيدي محمد بن عبد الله ومولي سليمان، إذ أن المؤلف بحكم منصبه وموقعه الظرفي، حاول أن يدفع كل الشبهات عن الشيخ محمد العربي من جهة، وأن يلتمس الأعذار والتبريرات للسلطانين من جهة أخرى ؛ وأن ما حدث لا يعدُو أن يكون من صنع وتدبير وكيد بعض رجالات وموظفي المخزن من قواد وباشوات.. مع إمساكه الكلي عن حادثة تخريب الزاوية أو ذكر شخص السلطان محمد بن عبد الله. إلا أن هذا لم يمنع من استشفاف بعض الانطباعات حول الحادث وذيوله، مما لم يكن بامكانه إخفاؤه أو منع تسربه أو طفوحه على سطح كلماته وأفكاره.

ــ إن كتاب «الفتح الوهبي» لا يعدو أن يكون محاولة متواضعة بالمقارنة مع التآليف السابقة حول تراجم ومناقب أشياخ الزاوية، فهو في معظم مؤلفه لم يكن أكثر من مردد لما كتبه غيره، في حين أن موضوع كتابه لم يظفر منه إلا بالنزر اليسير.

ومع ذلك تبقى له قيمته من ناحيتين : الأولى : ما يثيره من تساؤلات حول ظروف الزاوية في متم القرن 12 هـ وبداية القرن الموالي. الثانية : إعطاؤنا بعض المعلومات عن وضع الزاوية وأشياخها خلال القرن 13 هـ / 19 م، وما طرأ عليها من تطور فكري وسياسي، وإذا كانت هذه الفترة الأخيرة خارجة عن إطار الدراسة الحالية، إلا أن هذا يؤيد ما ذهبنا إليه آنفا، من اعتبار عصر محمد العربي بن المعطي (المتوفي عام 1234 هـ / 18 ــ 1819) علامة فاصلة ومميزة في تاريخ الزاوية على الأقل من الناحية الدينية والعلمية.

ثانيا : الذخيـــرة :

يظهر أن الشيخ محمد المعطي عندما ألف أول سفر من أسفار الذخيرة، لم يكن يطمح إلى أن يلحقه بتآليف أخرى في نفس المعنى. إلا أن رجوعه

إلى المؤلفات التي سبقته في هذا الاطار، جعلته يوسع مواضيعها شيئا فشيئا، حتى بلغت حوالي ستين مجلدا، دافعه الأساسي في ذلك كما قال :

«لما رأيت ما في الصلاة على النبي ﷺ من الفضائل والخيرات والبشائر والأنوار الشوارق، ولوائح المسرات.. ووقفت على ما في كتب القوم من غرر الصلوات، ونفائس التحيات.. حركني حامل الحب الذي لا يرد ورده وجذبني عامل الشوق الذي لا يكتم شاهده، أن أدلي دلوي بين المحبين المادحين.. وأرسم شكلي في توقيعات المحبوبين المقربين.. وذلك لأن المورد العذب كثير الازدحام..» (46).

وسمى أول سفر له بـ «ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج» (47)، وقد أشير عليه بعد ذلك أن يسميه : «بهجة الأخيار في الصلاة على النبي المختار» (48).

إلا أن الاسم الأول هو الذي شاع في عصره وبعد وفاته، بل أنه أطلق على سائر أسفار الذخيرة بالرغم من أن لكل سفر عنوانه وموضوعه كما هو مبين في المقدمة.

وإذا كان من المتعذر في الوقت الحاضر، تحديد تاريخ ثابت لتأليف كل سفر من أسفارها، أو تعيين تاريخ بدايته وشروعه فيها ؛ إلا أنه تم الوقوف على عام 1175 هـ كتاريخ لنسخ أحد أعدادها (49) بخط محمد ابن الطيب العدياري اللخمي الذي قال عنه : إنه، «كتبه لنفسه..»، كما أن «صاحب النشر» أشار إلى أن أسفارها بلغت نحو الأربعين سفرا عندما تعرض لترجمة الشيخ محمد المعطي في كتابه المذكور.

---

(46) محمد المعطي الشرقاوي : ذخيرة المحتاج.. م. خ. ع. الرباط رقم 2770 ك. المقدمة (دون ترقيم).

(47) المصدر السابق، نفس المكان.

(48) المصدر السابق، نفس المكان.

(49) الذخيرة، المخطوط رقم 2793 ك وهو المعروف بسفر «العبودية».

وقد شاع في عصره تداولها، وأخذت تقرأ منها ورقات في مسجد القرويين بفاس الادريسية (50)، مما يجعلنا نرجح أن بداية الشروع فيها، كانت على الأقل في العقد السادس من القرن 12 هـ، بحيث شكلت «أحزابه» أول الارهاصات في هذا المجال، بسبب تشابهها مع الذخيرة شكلا ومضمونا، والتي كان قد ألفها زمن الفتن والكوارث (51)، تقربا إلى الله وزلفى حتى يدفع أذى العباد عن بعضهم البعض، ويكشف غضبه، وينشر رحمته وعفوه، وتقترن هذه الأحداث عند ابن عبد الكريم بفترة طويلة بارزة تمتد من عام 1141 هـ إلى 1162 هـ.

استمر محمد المعطي في تأليف أسفار الذخيرة زهاء عشرين سنة، ذلك أنه انتهى منها قبيل وفاته بقليل (توفي 1180 هـ).

ذهب البعض إلى أن الشيخ المعطي ألف أسفاره في السيرة النبوية (52)، كما يظهر ذلك من عناوين بعضها مثل :

ـــ المولد النبوي ـــ الاسراء والمعراج ـــ سيرته وشمائله ـــ وفاته..

إلا أنه توسع في ذلك فتحدث عن الصحابة الأربعة والعشرة، وأوصاف الأولياء والصالحين، وكذا شرف العلم وأهله، واخبار الآخرة، وفي الزيارة والحج.. بيد أن معلوماته حول هذه المواضيع جاءت طافحة بالامداح النبوية، وأنواع الصلوات عليه، والثناء على فضله وفضائله، والتعلق بأهدابه والتشوف إلى زيارته ورؤيته بقلب وقالب المحب الذي لا يمل ولا يكل ولا يفتر عن ذكره، وتعداد مناقبه، والتمتع والتلذذ بذكر أوصافه وسجاياه، مما جعل بعضهم يصفه بأنه :

---

(50) القادري : النشر، ج 2، (فاس) 277، 278.

(51) العبدوني : اليتيمة، ص 323.

(52) الكتاني ع : فهرس الفهارس، ص 169.

«امتزجت فيه محبة النبي ﷺ بلحمه وعظمه وشعره وعروقه ودمه». (53)، مخللا ذلك بشروح لآيات قرآنية وأحاديث نبوية ومضيفا إليها، «من لطائف التحميدات والتمجيدات، ونفائس التسميات والتقديسيات، ورقائق الادعيات المستجابة والمناجاة، ودقائق الاشارات والعبارات وأنواع الاستعطافات والاستغفارات» (54).

جاء في اليتيمة أن محمد المعطي عندما عزم على تأليف مؤلفه هذا، جمع كتبا عديدة وجليلة في هذا المعنى من كتب المشارقة والمغاربة، مثل :

«مسالك الحنفا للقسطلاني، ونهج الفلاح لابن معد، وتنبيه الأنام لابن عظوم، ودلائل الخيرات للجزولي، والفجر المنير لابن الفاكهاني، والقول البديع للسخاوي، والمنهاج لابن منديل والسر اللطيف للحلفاوي، والحدائق لابن عرضون، وكتاب الديباج لأبي هريرة الصفوري، وطريق الهداية لصاحب المجالس الفاسية.. وكتاب الغنيمة للشيخ محمد بن ناصر، ومنهاج الفلاح للحوضي.. وابن الصباع والعبدوسي ومولاي عبد السلام بن مشيش وكتبا أخرى.. كذلك الدواوين في مدح النبي ﷺ..» (55).

فقد كان يطالعها كلها، وينقل منها ما انتخبه وأعجبه، إما أن يأتي بلفظه الوسيم أو ينقله بمعناه الفائق الجسيم (56).

وتحمل ابن عبد الكريم من الجهد والمعاناة قسطا مما تحمله المؤلف،

(53) المصدر السابق، ص 170.

(54) الذخيرة، مخطوط رقم 2270 ك، المقدمة.

(55) العبدوني : اليتيمة، ص 37.

(56) المصدر السابق، نفس المكان.

إذ كان مرافقه وأنيسه وكاتبه الخاص في ذلك (57)، وكان الشيخ محمد المعطي يثني عليه، ويعترف له بجهده وجلده، مقرا له بأن ما يحضر له معه من الفتح والالهام لم يكن يحضر له مع غيره.. (58). وعندما بلغت أسفارها خمسة وخمسين (59)، كل بصره وضعف مما أثار قلق شيخه عليه وانزعاجه، إلا أن بصره كف نهائيا عن النظر بعد وفاة شيخه بقليل. (60)

اختلف في عدد أسفارالذخيرة، فصاحب الاختصار قال : إنها بلغت خمسة وخمسين بخط ابن عبد الكريم، معنى ذلك أنه وجد من كان يساعده في النسخ وواصل عمل ابن عبد الكريم ككاتب خاص للشيخ محمد المعطي، إلى أن بلغت نحو الستين مجلدا ووجد منها من كان من كبر الحجم، ما جعل الشيخ يشير على كاتبه بقسمتها لتصبح في حدود السبعين فأكثر، كما كان يود ويأمل أن يصل مجموع ذلك إلى المائة مجلد.. والثابت أنها كانت في حدود الستين مجلدا (61).

وقد تيسر لنا التعرف منها على الأسفار الآتية : (62)

1) الذخيرة 2) سفر الصلاة على النبي 3) المعراج الحسي 4) طلب المدد 5) العبودية 6) الزيارة 7) فضائل الأعمال وشرف العلم وأهله 8) أمداح نبوية 9) في الذات المحمدية 10) فضائل الأولياء والصالحين 11) في الزيارة والتشوف إلى الأماكن المقدسة 12) التشوف إلى زيارة

(57) المصدر السابق، ص 13.

(58) المصدر السابق، نفس المكان.

(59) المكي بن المعطي الشرقاوي : مختصر اليتيمة، م. خ. ع. (الرباط) رقم 509 ج، ص 2.

(60) العبدوني : اليتيمة، ص 14.

(61) المصدر السابق، ص 13.

(62) انظر الكشف المفصل لذلك في الصفات : 189 — 190 — 191.

السماع كلام كثير، ذكره في السفر الأخير من ذخيرته..» (71).

إلا أنه لم يتأكد لدينا بعد، إن كان الشيخ محمد المعطي قد خص السماع بسفر خاص، أم أن الأمر يتعلق بقسم فقط من محتويات آخر أسفاره.

ومن أسفار الذخيرة أيضا (72) :

45) سفر العدد الأول والثاني (73) 46) أبو المعارف 47) البحور 48) الطير 49) أهل بدر 50) الصحابة الأربعة (74) 51) البسملة (75) 52) الدائرة (76) 53) سفر الجنان.(77).

ونأمل أن نتوفر مستقبلا على لائحة تامة لأجزاء الذخيرة، حتى نتأكد من بعض العناوين السالفة الذكر من جهة، ونحصر أعدادها من جهة أخرى.

إن معظم نسخ الذخيرة، التي تم الرجوع إليها حتى الآن، لا تحمل تواريخ النسخ أو التأليف، وهذا يدفعنا إلى مزيد البحث والتنقيب للعثور على النسخ الأصلية، إن لم تكن جميعها أو معظمها فبعضها على الأقل. وأقدم نسخة تم العثور عليها ترجع إلى عام 1175 هـ (78)، أي أنها معاصرة للشيخ محمد المعطي وقبل وفاته بخمس سنوات، إلا أنها لم تكن

(71) المصدر السابق، ص 101.

(72) نقلا عن الحاج عبد اللطيف الشرقاوي.

(73) اشرنا فيما سبق إلى سفر « ذكر العدد» ويظهر أنه ألف في الموضوع كتابين.

(74) سبقت الاشارة إلى سفر «عمر وعلي»، وهذا يعني أن الخزانة العامة بالرباط لا تتوفر إلا على قسم أول من الكتاب.

(75) ذكره أيضا في سفر النقطة، م. ح. ع. الرباط رقم 2767 ك.

(76) نقلا عن الحاج المعطي الشرقاوي الذي أكد لنا وجوده عنده.

(77) قال لي المخبر السابق أن هذا السفر يوجد في حوزة السيد محمد بن ادريس الشرقاوي.

(78) سفر العبودية : م. خ. ع. الرباط رقم 2793 ك.

بخط محمد بن عبد الكريم (79)، مما يشرح وجود كتاب آخرين ثانويين إلى جانب كاتب شيخ الزاوية الخاص، ويأتي بعدها سفر آخر مؤرخ بتاريخ 20 ذي القعدة عام 1251 هـ (80)، أي في زمن حفيد المؤلف الشيخ بنداوود بن العربي بن المعطي، كما وجد سفر آخر مكتوب بخط «الفقيه البركة العربي بن داوود» (81)، في فترة لاحقة للتاريخ السابق. في حين أن معظم النسخ الأخرى التي وجد بها تاريخ للنسخ، تعود إلى بداية القرن 14 هـ (82)، أكثرها بخط المعطي بن محمد بن سليمان التادلي الزموري الناصري (83).

وإذا كان من غير المتيسر الآن ــ بسبب طبيعة البحث الحالي ــ مناقشة محتويات أسفار الذخيرة العديدة نظرا لطبيعتها الصوفية والدينية والأدبية.. فإن هذا لا يمنع من ابداء بعض الملاحظات الآتية :

ــ أكد صاحب اليتيمة على أن زمن ظهور الشيخ محمد المعطي، كان زمن اكدار، تعددت فيه المحن وأنواع البلايا والارزاء.. ملمحا على أن ظهوره في هذا الابان، كان بمثابة الشعاع الذي أراد به الله إنارة الطريق، والفتح الذي عجل بانفراج الغيوم والأهوال، فكانت احزابه وأسفاره بمثابة النور الذي مزق وبدد آخر فلول ليل طويل..

ــ إن أبعاد هذا التصور، وإن كان لها في الواقع ما يؤيد ذلك على

(79) «وكتبه لنفسه أسير ذنبه محمد بن الطيب العدياري اللخمي.

(80) سفر في مدح الرسول والصلاة عليه. م. خ. ع. الرباط رقم 2761 ك.

(81) سفر «المعراج الحسي» م. خ. ع. الرباط رقم 2773 ك.

(82) مثال ذلك مخطوطات (خ. ع. الرباط) رقم 2760 ك، 2763 ك، 2764 ك، وكذلك 512 ج.

(83) مثلا مخطوطات (خ. ع. الرباط) رقم 510 ج، 508 ج نسخت في أواخرق 13 هـ. وهي على التوالي عام 1289 هـ، و1292 هـ.
في حين أن المخطوط رقم : 516 ج، و2782 ك بتاريخ : 1304 هـ والآخر بتاريخ 1305 هـ.

اعتبار ما مثله عصر خلفاء المولى إسماعيل من تمزق وتشتت وكوارث وما قام به الشيخ محمد المعطي في إطار إمكانيات الزاوية ومجال عملها من مساعدة ومساندة مواساة، إلا أن صاحب اليتيمة يريد بذلك أيضا أشياء أخرى. وإن الشيخ محمد المعطي، مثله في ذلك مثل كبار المنقذين الدينيين وأصحاب الخصوصيات، يظهرهم الله وقت الشدة والمحنة، لانقاذ البلاد والعباد بهداية منه. وهي فكرة تعدد ترويجها واستعمالها وتبريرها في تاريخ الفكر الاسلامي.. وأن هذا يقربنا من نموذج صوفي مماثل للشيخ محمد المعطي، ونعني به الشيخ ابن سليمان الجزولي، الذي ظهر بدوره في وقت مشابه للعصر الذي تكلم عنه صاحب اليتيمة، إذ نسب إليه والى كتابه «دلائل الخيرات» العديد من الكرامات وأن «نور وسر» ذلك استمر في اتباعه وخلفائه، وأنه بفضل ذلك انقذ الله هذه البلاد وتداركها بلطفه.

ولعل ما يؤيد ما ذهبنا إليه، ما ساقه شيخ الجماعة التاودي بن سودة حول ظروف شروع شيخه محمد المعطي في تأليف الذخيرة.

«ذكر أن أول ما ألهمه الله وأخذ في الشروع فيه وهو بفاس عند ضريح سيدي موسى الراعي خارج باب الجيسة أعجبته صلاة خطرت له، فجعل يبني عليها، فلم يزل كذلك إلى أن بلغت عند وفاته نيفا وسبعين مجلدا في القالب الكبير..» (84)

إلا أنه قبل محمد المعطي وذخيرته، كام محمد بن ناصر شيخ الطريقة الناصرية الشاذلية، قد ألف بدوره كتابا في الأدعية من نوع دلائل الخيرات، سماه «غنيمة العبد المنيب، في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب» (85)، وكلا النموذجين يوجدان ضمن لائحة المصادر التي

---

(84) فهرسة الشيخ التاودي. م. خ. ع. الرباط رقم 725 د. الورقة 40 / ب.
(85) الأخضر : الحياة الأدبية، ص 87.

اعتمدها وتصفحها عندما عزم على تأليف «الذخيرة (86)».

ــ يظهر أن محمد المعطي لم يرد أن يكون مجرد حلقة عادية في سلسلة هذه الكتابات الصوفية،

«فاستخرجت هذه اليواقيت اللطيفة التي لم يوجد لها نظير في الشكل والمثال.. التي لم يضاهيها أحد من أهل اللطائف والرقائق..» (87)

وظاهرة التجاوز هاته نتأكد منها من خلال موقفه من أحزاب الشاذلي، التي كانت تقرأ بالزاوية، فقد أشار على أصحابه وتلامذته ومريديه بقراءة أحزابه بدلا منها.. بل إنه ما ترك في ذخيرته نموذجا من نماذج الأدعية والاستغفارات والصلوات والابتهالات والأمداح النبوية التي وجدها عند سابقيه، إلا وألف ونسج على منوالها وتجاوزها كما وكيفا، بل جمع في أسفاره ما كان مفرقا عند هذا وذاك وأضاف إليها وأبدع وأعاد في مواضيعها وأساليبها، كما ضمنها بعض الزخاريف والرسوم وأنواع التزاويق والأشكال المعبرة عن مدى اعتكافه وإغراقه الصوفي مما يجعل إشاراته وتعابيره المعقدة أحيانا والعميقة بعيدة الغور.

ــ لقد أقر المعاصرون له ومن جاؤا بعده من كبار العلماء بتفوقه وإبداعه ونبوغه، فخصوه بالمديح والاعجاب، والتقريظ، سواء منهم المغاربة أو المشارقة (88)، إذ شاع وذاع تداول أسفارها في مختلف البلاد العربية، بما في ذلك مكة والمدينة وبيت المقدس (89)، كما أصبح للذخيرة

---

(86) العبدوني : اليتيمة، ص 37.

(87) الجزء الأول من الذخيرة. م. خ. ع. الرباط رقم 2770 ك، المقدمة.

(88) وهذه التقاريظ مجموعة في كتاب يعرف بـ «سفر التقاريظ» لم يتيسر لنا الاطلاع عليه بعد.

(89) العبدوني : اليتيمة، ص 37، 38.

ــ الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، ص 169.

سند في روايتها وقراءتها (90) فاعتبر هذا المؤلف من لدن المغاربة «من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة على غيرهم..» (91)

وأنشد أحد علماء المشرق في تقريظه لها قائلا :

الغرب شيء نفيس ولي عليه أدلـه
الشمس تغرب منه ومنه تبدو الأهلة (92)

كما اعتبرت بعض الدراسات المعاصرة الشيخ محمد المعطي وذخيرته كأحد المعالم الكبرى في الحركة الفكرية والأدبية التي عرفها المغرب خلال العصر العلوي (93).

ولاشك أن هذا أقصى أمنية كان يأملها مؤلف الذخيرة الشيخ المعطي :

«فأرجو الله تعالى أن يكون أهل المشرق يعشون إلى ضوء نهارها المشرق، وأهل المغرب يفخرون ببديع صنعها المغرب..» (94)

إلا أن شهرة وتداول الذخيرة مع ذلك لم تصل إلى ما وصل إليه كتاب «دلائل الخيرات» وإذا كان هذا يفسر بالسبق التاريخي والزمني، فإن أحد الأسباب الهامة في ذلك يعود إلى طبيعة الذخيرة من حيث أسلوبها وطريقة دباجتها وتعدد أسفارها، مما جعل من الصعب الاحاطة

---

(90) من الذين أحيزوا في روايتها وقراءتها : محمد بن أحمد الحضيكي. انظر :
أ ــ طبقات الحضيكي م. خ. ع. 2328 ك ؛ ص : 217، 218.
ب ــ ابن براهيم : الاعلام، ج 5، ص 82 ــ 86.
جـ ــ الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، ص 170.

(91) الكتاني ع : فهرس الفهارس، ج 2، ص 169.

(92) الكتاني ع : المصدر السابق، 170.

(93) الأخضر : الحياة الأدبية، ص 278.

(94) الجزء الأول من الذخيرة، م. خ. ع. الرباط رقم 2770 ك، المقدمة.

بها أو تسهيل حفظها وانتشارها (95). كما أن مؤلفها يعترف بموقف بعض النقاد إزاءها، عندما شرع في تداول اجزائها (96)، وما اظهروه نحوها من انكار، إلا أن هذا لم يزد الشيخ محمد المعطي إلا تصميما، وعزما على المضي في مشروعه إلى النهاية.

إن ما حاولنا توضيحه حول الذخيرة لا يعدو أن يكون مجرد إثارة الانتباه، وشحد الهمم، حتى يحضى هذا النوع من التراث بما يستحقه من الاهتمام والدراسة، يقينا منا أن هذا العمل وحده الكفيل بترجمة الاعجاب الى حقيقة علمية ملموسة، بل إن ما تم إدراجه من أسفار، لا يتجاوز ما تم استخراجه من الخزانة العامة بالرباط فقط، في حين تحوي الخزانة الملكية بالرباط ومراكش وخزانة القرويين بفاس وخزانة ابن يوسف بمراكش نفائس أخرى من هذا المؤلف.

---

(95) انظر نموذجا لذلك في الملحق رقم 4.

(96) الجزء الأول من الذخيرة : المصدر السابق، المقدمة. (انظر الملحق رقم 4 نموذج رقم 1).

لائحة أولية لأسفار الذخيرة
(اعتمادا على مخطوطات الخزانة العامة بالرباط)

الرقم الترتيبي	عــوان السفــر	أرقام نسخه بـ : ح.ع.ر.	مــلاحــظــلات
1	الجزء الأول من الذخيرة ..	2770 ك	
2	في الصلاة على النبي ﷺ	2790 ك 2761 ك 502 ج 516 ج	
3	أمداح نبوية	2787 ك	
4	في الذات المحمدية	2759 ك 2785 ك 517 ج	
5	في المولد النبوي	2786 ك 2774 ك 2760 ك	وقد أضيف إليه سفرا زواج النبي ﷺ.
6	في المولد النبوي	2797 ك	بمقارنته مع المخطوط 2786 ك يلاحظ أنه أكمل منه واشمل.
7	بحر عين الحقيقة سيدنا محمد ﷺ..................	2757 ك	
8	في الشمائل المحمدية	2769 ك	
9	طلب المدد	115 ح 7294 ك 794 ج	
10	في الأسماء النبوية	2778 ك	مع شرحه لبعض الآيات القرآنية.
11	في سيرته الطيبة	2779 ك	مع ذكر كرائمه ومعجزاته.
12	سفر العبودية	2793 ك 512 ج	

الرقم الترتيبي	عنوان السفر	أرقام نسخه ب : خ.ع.ر.	ملاحظات
13	سفر العبودية (تتمة)	513 ك	
14	في الزيارة	514 ج	ابتداه «الحمد لله الذي نور بصائر العارفين بأنوار الفتح والالهام».
15	في الزيارة والتشوف إلى الأماكن المقدسة	2758 ك 654 ح	وسماه أيضا «الحج الحسي والمعنوي» ذكر أنه أردفه بسفر النفس.
16	التشوف إلى زيارة قبر الرسول	2789 ك 653 ج	ألفه بعد الكلام عن «حج بيت الله الحرام» وشعائره ومناسكه.
17	زيارة الأماكن المقدسة في سائر الشهور والأعوام.	582 ك	«وأردف ذلك بذكر رؤيته السعيدة في اليقظة والمنام..» وهو من التحف الفية الخطية..
18	المعراج الحسي	2756 ك 2764 ك 2768 ك 2776 ك 2773 ك 510ج و652ج 652 ح	يذكر في المخطوط 2773 ك .. إن هذا السفر جاء بعد «المعراج المعنوي» وقبلهما سفر «اسراءاته».
19	في البساتين السوية	982 ج	كما يشتمل على استغفارات من إنشاء والده الشيخ محمد الصالح مع التعرض لبعض كراماته.
20	في ذكر مواليه من الرجال والنساء	2795 ك	
21	في عمر وعلي	2796 ك	وهو قسم من كتاب «مناقب الخلفاء الأربعة».
22	مناقب الصحابة العشرة ...	2762 ك 2783 ك 2782 ك	يقول إنه ألفه بعد «مناقب الخلفاء الأربعة».
23	في الذكر العددي	2765 ك 2777 ك	يتحدث فيه أيضا عن «النفس» مع صلوات عن النبي..

الرقم الترتيبي	عنـوان السفـر	أرقام نسخه ب : خ.ع.ر.	مـلاحـظـات
24	العرش المعنوي	2763 ك	يقول إنه ألفه بعد «العرش الحسي».
25	النقطة / الوفاة	2766 ك	سفر مزدوج.
26	سفر النقطة	2767 ك	«يليه الجزء التامن في «انتظار الأرواح الروحانية» وقبله «معنى البسملة والفاتحة» وحروف حواتم السور.»
27	صلوات / استعمارات	2772 ك	
28	ابتهالات وأمداح	587 ك	
29	مجموع	2771 ك	يتضمن مواليه من الرحال والنساء وكتابه، نزول الوحي، بعثه، في النعال.
30	في فضائل العلم والحض عليه	2798 ك	
31	فضائل الأعمال	2781 ك 515 ح 2788 ك	
32	أوصاف الأولياء والصالحين	2791 ك	
33	فضائل الأولياء والصالحين	1083 ج	
34	في أخبار الآخرة	2775 ك	
35	وفاته (ﷺ)	2799 ك	

ملاحظـة : إن الترتيب الوارد أعلاه، اعتمدنا في بعضه على إشارات تضمنتها بعض أسفار الذخيرة، في حين أن معظم الترتيب، لا يعدو أن يكون محض إجتهاد، في انتظار استكمال باقي أسماء وعناوين أسفار الذخيرة.

ثالثا : نماذج فكرية أخرى :

تمثل كتب التراجم الأربعة الخاصة بالزاوية، وكذلك أسفار الذخيرة وأحزاب الشيخ محمد المعطي مادة علمية أولية غنية بالانتاجات المتنوعة، إذ بالاضافة إلى ما يمكن استنتاجه من معلومات تاريخية تهم مجالات متعددة إقتصادية وإجتماعية وسياسية، نجدها تفيدنا ثقافة صوفية ودينية وأدبية بالغة الأهمية. وحتى تكتمل الصورة التي أعطيناها عن تراث الزاوية، سنحاول أن نعرف ببعض المساهمات الأخرى للزاوية شيوخا وأطرا، ليتسنى تكوين فكرة مجملة وشاملة عن النشاط العلمي والمستوى الفكري بالزاوية، مما ييسر للباحثين والمهتمين بالحياة الفكرية المغربية سواء في العهد السعدي أو العلوي منه على الخصوص، إيجاد صيغة جديدة للتعبير عن هذه الثقافة في إطار نظرة أكثر عمقا وإحاطة.

أ ـــ فهرس «الموائد السنية والأسانيد السنية»

من تأليف محمد المعطي بن عبد الخالق أحد أحفاد أبي عبد الله الشرقي (المتوفي 1092 / 1681)، وهو والد الشيخ محمد الصالح. أشار إلى هذا المؤلف معظم الذين ترجموا لهذه الشخصية (97)، إلا أن «صاحب الدليل لم يوضح مكان وجوده أو تعرفه عليه، مكتفيا بترديد ما قاله عنه «صاحب الاعلام»

«وللمترجم فهرس تسمى بـ «الموائد السنية» في مجلد، وهو مجموعة طب وفقه وحكم وأشعار بلا تقيد بسند.» (98)

(97) لم يذكر الأفراني هذا المؤلف «في معرض ترجمته لهذه الشخصية بالرغم من العلاقات الوطيدة التي كانت بينه وبين شيخ الزاوية محمد الصالح بن محمد المعطي المعنى بالامر.
ـــ الافراني : الصفوة، ص 188، 189.

(98) ابن براهيم : الأعلام، ج 4، ص 328.
ـــ ابن سودة : الدليل، ج 2، ص 303.

وقد ضمنه ما ينيف عن اثنين وسبعين علما من شيوخه وعلماء عصره.. (99) في حين أن مصادر الزاوية تؤكد على أن الأمر يتعلق فقط بمشروع مؤلف، لم يكتب له الانتهاء منه (100)، ذكر فيه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة وأسماء من روى وأخذ عنهم ذلك، إلا اننا مع الأسف لم نعثر له على أثر حتى نتمكن من تقيم الآراء السالفة.. وقد شرع المؤلف في تأليفه أثناء وجوده برباط الفتح (101)، كما اقتطف منه صاحب الروض بعض الفقرات التي ذكر فيها أشياخه أمثال عبد الله ابن علي بن طاهر السجلماسي وعيسى السكتاني وأحمد بن إبراهيم الدرعي، وذكر كذلك بعض إجازاتهم له، واقتبس منه مناقشته لقضية مخالطة أشياخ التصوف للسلاطين، وقبول جوائزهم.

ومما قاله في ذلك، بعد أن جعل الناس ثلاثة أصناف : صوفي وفقيه وغيرهما..

«العلماء ورثة الأنبياء مالم يميلوا إلى الدنيا ويخالطوا السلاطين، فإذا مالوا إلى الدنيا أو خالطوا السلاطين فاخشوهم في دينكم الحديث... لأنه ليس في صحبته إياهم إلا غشهم والإضرار بهم من حيث لا يشعرون ؛ بسكوته عما يرتكبونه من المخالفات ومداهنته فيما يصدر عنهم من المنهيات لنيل حظه العاجل والاتصال بمقصوده الباطل.. إنما أهل العلم بالله هم أهل الخشية لله، والعمل بأوامر الله، والشفقة والنصح لعباد الله وهم الذين يقصدون بمخالطتهم الملوك ما يعود عليهم نفعه في الدين من مصالح المسلمين كتفريج كرب المكروبين وتفريج المحزونين بإبلاغ حوائجهم ودفع المضار عنهم بالاستشفاع لهم.. لذلك كان شيخ الطريقة أبو الحسن الشاذلي (ر) يواصلهم ويتقدم إليهم حتى أشكل أمره بذلك

(99) ابن الموقت : السعادة الأبدية، ج 1، ص 141، 142.

(100) المعداني : الروض، ص 428، 429.

(101) المصدر السابق، ص 443.

على كثير من الناس، فقال (ر) : لكل ولي حجاب، وحجابي مخالطة الملوك..» (102).

ب ــ الكناشات الشرقاوية :

الكناشات نوع خاص من المخطوطات (103)، «يسجل فيها المعتنون مختارات ما يقرأون أو يسمعون، وأحيانا يضيفون لذلك انتاجاتهم ومشاهداتهم، وما جرى مجرى ذلك» (104).

وهذا ما حاوله الشيخ محمد الصالح الشرقاوي في كناشته قائلا :

«أما بعد فهذه أدعية سنية وفوائد كالعمر أبدا بهية، تلقى عدة في النوازل وعمدة تلجأ إليها في الفقر والزلازل.. ولابأس أن أذكر من كلام الأئمة الأعلام، ما يحمل المظلوم على الاقدام على الأخذ بالثأر..» (105).

إلا أن صاحب الاعلام أشار إلى كناشين عاينهما عند زيارته للزاوية في 16 شعبان 1337 هـ «جلهما مكتوب بخط يده، وفيهما خط كثير من علماء عصره في بطائق يكتبونها له.. وفيه حزب الشيخ.. محمد بن إبراهيم التاملي.. وفيه خط حفيده سيدي العربي بن المعطي بن صالح..» (106) كما وقف على مجموع آخر بخط محمد الصالح أيضا من جملة ما فيه الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وحزب النووي وإجازة محمد بن عبد القادر الفاسي له المؤرخة عام 1109 هـ ثم البردة ودلائل الخيرات وغيرها..

---

(102) المعداني : الروض، ص 437، 438.

(103) انظر : بحث الأستاذ المنوني محمد «الكناشات المغربية...» مجلة المناهل، ع : 2 ص 196 232.

(104) المرجع السابق، ص 196.

(105) كناشة الشرقاوي صالح. م. خ. ع. رقم 1108 ك.

(106) ابن ابراهيم : الاعلام، ج 5، ص 43، 44، 45.

إن ما يمكن استنتاجه حول هذا، هو تعدد كتابات الشيخ محمد الصالح إما على شكل كناشات (107) أو غيرها.

وتتضمن إحدى هذه الكناشات، أمداحا وابتهالات وأشعارا وأقوالا لفقهاء وعلماء مثل الونشريسي والقاضي عبد الوهاب بن محمد الزقاق، والحسن اليوسي، ثم ما قيل في مدح العلم والحث عليه، واشعار حسان ابن ثابت في مدح الرسول (108).

تعرض بعد ذلك لبعض الفتاوي والاستشارات الفقهية، ثم اتبعها بحكم ومواعظ وإرشادات وأحاديث نبوية، وروايات عن السلف الصالح، وأحكام ومكاتبات. وفي قسم آخر يعرض لبعض النوازل، مثل :

«وقع في هذه البوادي إعطاء الزكاة لبعضهم البعض..» (109)

وكذلك مسائل تتعلق بالشراكة والزواج والطلاق والبيع والشراء والارث... ثم ينتقل بعد ذلك للخوض في مسائل تتعلق باللغة والقراءات وغيرها من العلوم النقلية والعقلية..

جـ ــ مراسلات وكتابات صوفية :

1 ــ كتب الشيخ محمد المعطي بن عبد الخالق معلقا على قولة أبي عبد الله الشرقي، «يأتي من أولادي من جربي هو مشيه..» ومدافعا عن أحقيته في الخلافة بقوله :

«قد بلغنا في قراءتنا أثناء الوصول، وصلنا إليه تعالى بصلة التوفيق..

(107) منها : الكناشة الشرقاوية : مخطوط خ. م. رقم 3415. وهي من الحجم الصغير عدد صفحاتها 183، حالتها رديئة، تحتوي على أقوال عدد من الأئمة مثل الشيخ المسناوي الدلائي (ص 6) وعبد السلام بن الطيب القادري (ص 12) وكذلك إجازة شيخه محمد بن عبد القادر الفاسي (ص 39، 40)، ومراسلاته مع بعض الأشياخ.

(108) كناشة الشرقاوي صالح : م. خ. ع. الرباط رقم 1108 ك، ص 1 ــ 21.

(109) المصدر السابق، ص : 32.

لنعرف المعرف بأداة التعريف المنزه عن مدركات الوهم والتكييف، فتشرق علينا نواسم الاهتداء بكشائف الابتداء فنشاهد الفاعل في الوجود، ونعلم وحدانيته في العدل والجود، فيقع القرب والبعد والوجد والفقر والفناء والمحو والسكر والصحو، فتثبت المعارف بعد هبوب النواسف، وتستحق الخلافة والنيابة، وتتحقق الاصابة في الدعوة والاجابة، قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، يدعو إلى ذلك، لأن قدم التابع على قدم المتبوع.. فمن سلك هذا المسلك، فقد يقع عليه قول الشيخ المحدث (بفتح الذال) الداعي إلى الله تعالى والدال ؛ يكون في أولادي من يكون جريي هو مشيه، وبيان ذلك والله أعلم بمراده، أن الشيخ عبر بجريه على حالة جذبه، لأن المجذوب من قطعت له الطرق القاطعة والموصلة، من غير تعب ولا نصب.. وعبر بمشيي الذي بعده عن سلوكه في قصده، لأن السالك يقطع المقامات كلها لكن بحسب ما قدر لصاحبه أن يمكث، ساعة أو أعواما أو أياما.. فكأنه يقول : يكون من بعدي من يروم ما قصدته، ويقطع ما قطعته، وإن اختلفنا في السير، وفي حالتي الجاه والتشهير، قد اجتمعنا في عوارف المعارف، واتفقنا في شهادة المشهد السالف..» (110).

2 ـــ كتاب الشيخ محمد الصالح إلى شيخه محمد بن عبد القادر الفاسي، يسأله عن بعض القضايا الملحة المتعلقة بالتصوف، ومتصوفة العصر :

«الحمد لله وحده.. سيدي ومولاي محمد بن شيخ الاسلام سيدي عبد القادر.. جوابك سيدي فيما يبرز من الأولياء على سبيل الكشف ويظهر الله خلافه.. وما سبب تكلم المدعين النسبة اليوم في عصرنا، حتى أن بعضهم يقسم أن فلانا المعاصر له لكاذب في دعوته ويحذر من الفرار

(110) العروسي : المرقي، ص 276، 277.

منه كالفرار من المجذوم، مع أن العاقبة مجهولة وملك الله كبير فهل يحمل تنازعهم على تنازع الأقدمين، فقد سمعنا عن بعضهم أنه كان يقول في الشيخ الكبير أبي يعزى إنه لم يشم لهذه الطريقة رائحة أو كما هو لفظه.. وما معنى. قول بعض من لقيناهم اليوم، لم يبق إلا محض الفضل لتعذر الأهلية في هذا الزمان والسير على الطريق الجادة كسير الأوائل. وما سبب قلة انتفاع المريد اليوم من الشيخ، هل ذلك من عدم صدق المريد أم من عدم أهلية الشيخ، وهل لا يجوز المقام على صحبة من لم ير الانسان معه نفعا في نفسه ولا زيادة على ما كان يعتاده فيها، أم يثبت ويكتفي بمجرد الأخوة امتثالا لحديث استكثروا من الاخوان، فإن لكل أخ شفاعة. وما بال أرباب الوقت اليوم المنتحلين طريقة القوم، لا يحصل المدد لمن صاحبهم كمدد من سلف، فقد سمعنا أن الشيخ هو الذي يسري معناه في التلميذ وينقله من مقام إلى مقام، وهل هذا المعنى المذكور موجود في كل فرد من أفرادهم، أم هو خاص بالقطب ومن في معناه. ومسألة الخواص المذكورة للبركة في الطعام والادام والدراهم، ما أصلها من الحديث وما يجوز استعماله في ذلك المعنى. اكتب لنا بما علمت في ذلك ليطمئن القلب بأخذها منكم، فإنكم نصحاء الأمة المحمدية... أطال الله عمرك للاسلام..» (111)

وإذا كان جواب شيخه (112)، لايخرج عن نطاق ما هو متعارف عليه في الكتابات الصوفية، إلا أن الأسئلة في حد ذاتها ربما كانت تطمح إلى أبعد من ذلك..

3 ــ خطاب (113) من سيدي محمد الصالح إلى بعض معارفه لم يفصح عن اسمه، إلا أنه أفصح في مضمونه عن أحوال وظروف تنم عن

(111) المعداني : الروض، ص 335، 336.

(112) حول الجواب، انظر : المعداني، المصدر السابق، ص 336 ــ 341.

(113) المعداني : الروض، ص 254.

الأسى والحسرة، وتعرض لحالة فئة معينة من المجتمع، أمام تحديات العصر التي لم يستطيعوا لها دفعا ولا تغييرا. ونصه :

«الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد.. من فلان ابن فلان، عامله الكريم بجميل لطفه.. أما بعد، فلا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون، رضي بقضاء الله تعالى وتسليما واستسلاما، أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، ومن لم يشكر النعم تعرض لزوال النعم، لو عقلنا لفزعنا نحو باب الله طرا، لو نبذنا ما سواه، لم نخف زيدا ولا عمرا، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون. وقد آمنا مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، واعرضنا عما لا ينبغي الاعراض عنه. وبسبب البلاء الذي انجر إلينا منه كان ذلك المكان، كنا للذكر والعبادات وترك البدع والعادات ومعادات أهل الفساد، والآن ما من منكر إلا وتراه في ازدياد، كيف يطمع بالراضية على هذه الحال أم كيف لا تتطرق إلينا طوارق الأهوال، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وعادوا المعادي على ذلك وانسوا ونسوا ما ذكروا به من الاسراف على المهالك، فليس لنا إلا أن نحط رقابنا بأبواب الاستسلام والله يلطف، فاعتبروا يأولي الأبصار، فليس بهذا الفعل تتشرف القرى والأمصار. وهذا خطاب لي ولكم وأنا في كل ذكر داخل معكم، غير أن الذكرى تنفع المومنين على حساب ما سبق في علم الله من ظهور الأثر في المستقبل والحين..»

د ــ أشعار ومنظومات :

حفلت مصادر الزاوية ــ ومنها الذخيرة ــ بمختلف فنون الأدب من نثر وشعر ونظم.

وإذا كنا قد تعرضنا لبعض منها فيما سبق (114) إلا أنه من الأجدى أن نعطي فكرة مجملة عن هذه الانتاجات لما تتضمنه أحيانا، من دلالات دينية واجتماعية وتاريخية لها أهميتها.

1 ــ الشعر : كان للشيخ محمد الصالح رأي خاص في هذا الفن، كما يظهر ذلك من موقفه من قصيدة مدحه بها عبد الخالق العروسي وكما يستدل على ذلك من المقدمة التبريرية التي ساقها مؤلفها، موضحا فيها أن مدح أشياخ الطريقة تقليد محبب وشائع، مستمد من سيرة الرسول ﷺ، الذي كان من شعرائه، حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة (115). إلا أن تواضع الشيخ محمد الصالح جعله مع ذلك يطلب من عبد الخالق العروسي، أن يغير فيها ما يحتاج إلى تغيير، ويقلب فيها ما يحتاج إلى قلب ليصبح موضوعها الشيخ محمد الشرقي (116) يبقى مع ذلك رأى محمد الصالح في القصيدة شكلا ومضمونا وهو ما يعبر عن تمكنه من هذا الفن وإحاطته به، كما أوضح ذلك معاصروه من كبار العلماء والفقهاء (117).

يقول محمد الصالح : «أما بعد فقد طالعت القصيدة من أولها إلى آخرها، فوجدت بها نفسا طيبا، إلا أنك أجلستني بذلك على بُسط هي من قدري أعلا وحليتني ياأخي بما لست له أهلا. فالله سبحانه يجازيك بخير على ظنك الجميل..» (118)

---

(114) انظر حول هذا ما سبقت الاشارة إليه، شعرا أو نثرا أو ملحونا، والتي ادرجناها حسبما يقتضيه ظرفها وسياقها.

(115) العروسي : المرقي، ص 145، 146، 147.

(116) تجاوزت هذه القصيدة مائة بيت، انظر المصدر السابق، ص 148 ــ 153.

(117) اشرنا إلى ذلك في معرض ترجمة الشيخ محمد الصالح، وفي أماكن أخرى.

(118) العروسي : المصدر السابق، ص 145.

تعددت قصائد محمد الصالح ومنظوماته الدينية والتعليمية، منها هذه الأبيات في مدح العلم والحض عليه :

تعلم فما للمرء كالعلم مقتنى
وليس أخو علم بكفء لجاهل
فذو العلم محبوب على كل حالة
وذو الجهل محمول على غير طائل
وإن امرءا قد آثر الجهل والغنى
على العلم.. اخرق غير عاقل

إلى أن يقول :

فكن معتن بالعلم لا تنس درسه
نهارا وليلا والزم سير الأفاضل
ودع عنك ما يلهيك ولا تكن
نئوما فما اختار الكرى غير سافل
وسامر دواوين العلوم فإنها
الزند لم (ــــــ) دافع للبلابل
تفيدك علما لا ينال بدونها
وتعرب عن شأن القرون الأوائل
فواظب عليها فهي أنس بوحدة
وخير جليس كاتم السر كامل(119)

وفي عام 1133 هـ خرج جند النصارى من سبتة على حين غفلة من المسلمين، فقتلوا وسلبوا ونهبوا.. ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم (120) فوقعت بين الجانبين حروب كثيرة تروع من جرائها غرب

(119) العبدوني : اليتيمة، ص : 45، 46.

(120) الناصري : الاستقصا، ج 7، ص : 98، 99.

البلاد، فأمر السلطان بالجهاد في القبائل (121) ووصل صدى هذه الأحداث إلى شيخ الزاوية محمد الصالح بأبي الجعد، فأنشأ قصيدة في الانتصار بصلحاء المغرب، مؤكدا لأصحابه :

«لا يخرج النصارى للغرب وأنا فيه..» (122).

ومما جاء في القصيدة المذكورة :

عسعس الليل فانهضوا سادتي للحراسة
وامسوا للغرب باشروا أرضه كل ساعة
وانشروا لانخراطه في سلوك السلامة
وسداد ثغوره راية بعد راية
في حماكم جعلته فهو تحت الرماية
فابسطوا كل راحة في الدجا للضراعة

وقد تعددت القصائد في مدح الشيخ الشرقي باعتباره مؤسس الزاوية وجد الأسرة «المرابطية الشرقاوية» وأحد كبار أعلام الطريقة الجزولية.

ومن هذه القصائد، قصيدة لأبي علي الحسن اليوسي، مطلعها (124)

إلى كم ترى ما عشت في سابح البرق
وفي كل عام أنت معتسف الطرق

إلى أن يقول :

وطفت بأهل الله في الغرب كلهم
ولم يبق لي بعد الطواف سوى الشرق

ولأبي العباس أحمد بن فتوح التازي قصيدة لامية في مدحه أيضا،

---

(121) المعداني : الروض، ص : 188. وهو يجعل عام 1134 هـ كتاريخ لهذه الأحداث.

(122) المصدر السابق، نفس المكان.

(123) المصدر السابق، ص : 189، وهي تقع في 17 بيتا.

(124) العروسي : المرقي، ص : 167 إلى 168. وهي تقع في 22 بيتا.

وهي تقع في أربعين بيتا (125) جاء في مطلعها :

نزلنا بحمد الله خير المنازل
لآل عدي في العلى متطاول

إلى أن يقول :

كثير العطايا دأبه الجود والوفا
إلى قبره شدت صدور الرواحل

وعندما توفي الشيخ محمد الصالح عام 1139 هـ، أرسل الأمير عبد المالك بن السلطان مولاي إسماعيل رسالة تعزية إلى نجله وخليفته سيدي محمد المعطي، قدم لها بهذه الأبيات (126) :

كذا عادت الأيام تسلب ما تعطي
وتلبس أثواب الحداد لذي بسط
وتقلب للراجين ظهر مجنها
وتنزل من فوق السماء لمنحط
وما نحن إلا جوهر متناثر
تتبعه كف المنية باللقط

إلى أن يقول :

ولو أنها تبقي نبيها لفضله
لأبقت إلينا صالح بن الرضي المعط

2 ـــ الملحونات :

أطلق المغاربة على شعرهم الشعبي أسماء عديدة أهمها «الملحون» تمييزا له عن «الزجل» الذي خصوا به النوع الأندلسي. (127)، ويرى الأستاذ

(125) المصدر السابق، ص : 75 إلى 77.

(126) المعداني : الروض، ص : 351، 352، وتقع في 23 بيتا.

(127) عباس بن عبد الله الجراري : الزجل في المغرب (القصيدة)، الرباط، ص، 49، 50.

عباس الجراري أن هناك تقاربا واضحا بين النوعين، مما جعله يقترح إطلاق اسم «الزجل» على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي التي منها «الملحون» (128)، وأنه لا يوافق الأستاذ محمد الفاسي فيما ذهب إليه، من أن أصل التسمية اشتقت من اللحن بمعنى التنغيم والغناء (129)، مؤكدا ومبررا اشتقاقها من اللحن بمعنى الخطأ النحوي (130).

إن هذا اللون من التعبير، قد تجذر في المجتمع المغربي، فأصبح له شعراؤه ونظامه وبحوره وأغراضه، إلا أنه فوق كل هذا وذاك شاع استعماله من طرف أشياخ التصوف، وبلغ فيه بعضهم شأوا بعيدا، وصارت أقوالهم فيه، مضرب الأمثال وحكمة يرددها العلماء والعامة على السواء. ومن هؤلاء، عبد الرحمان المجذوب (131)

كما أن الشيخ محمد الشرقي، كان له في هذا الفن مساهمات، جعلته يصنف ضمن الزجالين المتصوفين، المطورين لهذا النوع من أشكال التعبير الشعبي شكلا ومضمونا (132).

فمن أقواله في الحكمة (133).

1) احْفَظْ العِلْم واقْـرَاهْ   الْجَهْـلْ ظَلْمَـا اعْظِيمَـــا
مَنْ لاَ يَقْرَا مَايْلُوجَاهْ   فِـي دَنْيَتُـو كَالْبْهِيمَـــا

2) حُبْ النَّاسْ رِيحْ افْرِيحْ   مَنْ رِيحْهُمْ اسْقَيْتْ لَمْرَايَرْ
واللِّي ايكَيِّلْ مَنْ الرِّيحْ   مَاتَّمْـــلاَ لُـــو اْغرَايَـــرْ

---

(128) المرجع السابق، ص 50 ــ 54.

(129) المرجع السابق، ص 55.

(130) المرجع السابق، ص 56، 57.

(131) المرجع السابق، ص 81، 82 وكذلك ص 596.

(132) المرجع السابق، ص 53، 82، 83، 551، 597.

(133) كلام سيدي محمد الشرقي : مجموع ورقات مخطوطة بـ «خ. ع.» الرباط رقم 3027 ك.

3) لاَبُدْ مَنْ يَوْم مَعْلُومْ تَرْتَـدْ فِيهْ لَمْظَالَـمْ
أَفْرَحتْ مَنْ كَانْ مَظْلُومْ أَوَيْلْ مَنْ كَانْ ظَالَمْ

تأثر الشرقي في بعض ملحوناته بالشاعر الصوفي أبي الحسن الششتري (134)، كما يظهر ذلك في القصيدة المشهورة المعروفة بـ «الفياشية» (135) التي منها :

أَنَـا مَالِـي فَيَّـاشْ اَشْ عْلِيَّـا مَنِّـي
نَقْنَطْ مَنْ رَزْقِـي لاَشْ وَالْخَالَقْ يَرْزُقْنِـي (136)

ومن قصائده المشهورة في هذا المجال أيضا : القصيدة التي ضمنها رسالته إلى الشيخ أبي المحاسن الفاسي، وهي كل ما بقي من الرسالة :

الْمُلْكْ والْمَلْكُوتْ	وَصْفْهُم منعُوتْ	أهْلْ الْجَبْرُوتْ	مَاغَيْبُو عَنَّا
تْنُوحْ السَّمُوتْ	عَلَى ارْبَابْ الْقُوتْ	بَادْرَكْ يفُوتْ	عَنَّكْ وَقْتَنَا
شْمُوسْ الْقُلُوبْ	تَشَاهَدْ الْمَحْجُوبْ	فِي عَالَمْ الْغُيُوبْ	شْرَابْهَا مَخْتُومْ
الشّرْقْ والجَنُوبْ	فِي طَيْهَا مَكْتُوبْ	تَخْرَقْ الْحُجُوبْ	لِلْوَاحَدْ الْقَيُّومْ
رِيَاحْ الصّبَا	تَاتِي عَلَى غْبَا	وَارْبَابْ الْمُحِبْ	مَاخْفَاهُمْ حَالْ
الْقَلْبْ نْبَا	مَنْ سَرَّكْ اتْربَا	وَالرُّوحْ جَاذْبَا	فِي حَضْرَة الْجَلاَلْ*

وإذا كانت أغراض ملحونات الشرقي لم تخرج عن الزهد والتصوف والحكمة، إلا أن بحور ملحوناته وميازينها قد تعددت (137)، ومن أشهر

(134) الجراري : «الزجل في المغرب»، ص 526، 550.

(135) وينسبها البعض إلى أبي البقاء عبد الوارث بن محمد اليصلوتي انظر المرجع السابق، ص 551، 601.

(136) توجد هذه الملحونة ضمن مجموع يتضمن بعض أشعاره في هذا الفن م. خ. ع. الرباط رقم 3027 ك وقد اثبتت بعضا منه في الملحق رقم 5.

(*) انظر الملحونة كاملة مع ملحونة أبي المحاسن الجوابية في المرقي ص 54، 55، وكذلك في كتاب الزجل المغربي (الجراري) ص 597، 598.

(137) كنموذج لذلك : محاورته السابقة لابنه الغزواني. وكذلك أقواله في الحكمة والزهد (الملحق رقم 4).

قصائده التي لا زالت تردد بضريحه إلى الآن، ملحونة «باسم الكريم» (138)

باسْم اَلكْرِيمْ ابْدِينَـا فَضْلُ عْلِينَـــا ذِكْـرُ فَـرْضْ عْلِينَـا (يابابا)
أُوعْلَى النْبِي صَلِّينَـا إشْفَـعْ فِينَـا مُـولَ الَعْمَامَـة الزِّينَـة
سِيدْ الْرسُلْ سْقَانِي كَـاسُ رْوَانِـي مَـنْ خَمْـرَةْ الْوَحْدَانِـي
سِيدِي عْطَانِي نُقْـطَ مَنْ بْحَرْ زَايَـدْ بِهَا انْعَالَجْ مَنْ لاَلُوَوالِي(139)
نَسْقِـــي سْدَاسِي وَسْبَاعِي وَخْمَاسِي مَـادَارْ هَـذَا الْفُلكْ إلاَّ بِـي
أَمَـنْ يـدَوَّرْ عْلِـيَّ هْنَـا مْوَجَّــدْ مَحْتَال مَنْ فَضْلُ غِيْر نْشَالِي(140)
جَـادْ لَكْرِيـمْ عْلِينَـا وَالْـوَقْتْ سَاعَـدْ هَا الْكَاسْ فِدَيْ يَدَّافَقْ مَالِي
إلَـي عْشَقْتْ أَنَـايَ مَالُــو نْهَايَـا حُبُّ اسْكَـــنْ فَــعْضَايَ
اكْوِيتْ كَمَنْ كَـيَّ عَمْــدَا عْلِــيَ سَرْ لَمْحَــــاوِرْ فِـــيَ
انْبَاتْ الَّيـلْ نْسَاسِي نَرْعَـى قْيَـاسِي حَتَّـى اتْقَـنْتْ عْـرَاسِي
انْبَـاتْ الِّيـلْ نْقُـومْ نَرْعَـى نْجُـومْ حَتَّــى نْهَـــارْ نْصُومْ
انْبَـاتْ لِّيـلْ سَارِي نَرْعَـى الْـدرَارِي حَتَّـى نْظَـرْتْ الْبَـارِي
إلَي عْطَـاكْ الْعَاطِـي لَـيْسَ بَــاطِ تَامَنْ الَجْبَالْ لِيكْ طَّاطِي (141)
آرْصَاصْتِـي فَالْمَدْفَـعْ قَـرْسِي مْطَلَّـعْ مَـنْ لْقِـيتُ رَاحْ مْزَلَّـعْ
إلَي نْشُوفْ الْحَضْرَة يَهْتَــزْ قَلْبِـــي وَنْحَبْ نَشْطَحْ وَتْهَبْ رْيَاحِي
بِينِـي وَبِيْـنْ حْبَابِـي رَهَــا آنْـــوَاَورْ أَهْلْ التْسَابَح يَازَهْوَتْ رُوحِـي
حَسْ طْبُـولْ تْنَقَّـرْ وَاعْلُـومْ تَظْهَـرْ الَخْيُـولْ عِنْـدَ الْـمَشْوَر

---

(138) نقل هذه الملحونة صاحب الفتح (ص 189) إلا أنني أكملتها من عند المنشدين بضريح الشيخ الشرقي بأبي الجعد.

(139) معناها : ليس له ولي.

(140) معناها : انني على استعداد ومتأهب.

(141) معناها : حتى الجبال تتطأطىء لك، وفي المعنى الدارج والشائع بالمنطقة، «فلان بَاتْ ايطَاطِي» : أي ترتعد فرائصه، مضطرب وخائف.

سَادَتِ الأَوْلِيَا يَالصُّوفِيَا   نُورْكُمْ شَعْشَعْ فِيَا
سَادَتِ الأَوْلِيَا نَظْرُو فِيَا   نَظْرَةْ رَبَّانِيَة
سَادَتِ الأَتْقِيَا عَطْفُو عْلِيَا   رَاسْرَارْكُمْ مَخْفِيَا
كَمْ مَنْ فْقِيرْ مْعَانَ مَاهُوَ مْعَانَ   جَابْتُ غِيرْ الدَّنْدَنَة
أَهْلْ الطْرِيقْ الرَّبَانِي رَكْبُو عْلِينَا   مَزِّينْ مْحَبَّتْكُمْ لِينَا
اللِّي بْغَى آتْعَنَّى وِايكُوْن مَنَّا   آتْبَعْ طْرِيقْ السُّنَّا
اللِّي بْغَى اتْرَبَّى وِيزِيدْ رَغْبَة   آقْبَلْ شْرُوطْ الصُّحبَة

الملاحق

حزب الفلاح
لمحمد بن سليمان الجزولي (1)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا، الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق. جزى الله عنا سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم افضل ما هو أهله (ثلاثا). ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، انك انت الوهاب. (ثلاثا) اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاثا). سبحان ربي العظيم وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (ثلاثا) استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو، بديع السموات والأرض وما بينهما من جميع جرمي وظلمي وما جنيته على نفسي، وأتوب إليه. (ثلاثا) لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثبتنا يارب بقولها، وأنفعنا يارب بفضلها. واجعلنا من أخيار أهلها. واحشرنا في زمرة قومها (ثلاثا) آمين آمين رب العالمين.

---

(1) العربي الفاسي : مرآة المحاسن، ص : 54 وما بعدها : أورده أيضا محمد حجي : الزاوية الدلائية .. ملحق رقم 4 ص 275.

كتاب أبي المحاسن يوسف الفاسي
إلـــى
أبي عبد الله محمد الشرقي (1)

ونص الكتاب المذكور : بعد الحمد الله والصلاة على ما فيه من التصحيف والاسقاط، السيد الشيخ الفاضل الخير الدين الكامل، محل السيادة والتكريم والمجد الراسخ الجسيم، أبو عبد الله سيدي محمد بن سيدي أبي القاسم المعروف بالشرقي، وصل الله سعادته ورفع مجادته سلام الله الأتم المبارك الاعم. من عبيد الله وخديم أهل الله يوسف بن محمد الفاسي لطف الله به بمنه. هذا وموجبه إليكم رفع الله قدركم ان بعض الناس ذكر لي أنه بلغكم عني اني قلت ليس عليكم إلا بركة والذكم ؛ وحمل على غير وجهه، وانكم كتبتم من أجله كلمات لم أطلع عليها إلى الان ؛ ولم تجعلوا لكلامنا مخرجا ولا وجها حسنا مع اني والله الخير أردت والبر قصدت ؛ فهو إن تدبرته وجدته مثبت البركة ؛ وانها حاصلة معك. وتفصيل مجمل ما وصلكم؛ أنه لايزال يرد علينا خبر ما

(1) حذف التقديم والتعليق المصاحبين للرسالة ؛ لانهما من انشاء مؤلفي «الممتع» و «المرقي» كما حذفت الملحونتين اللتين تم التعرض لهما سابقا، وتقع الرسالة مع تفصيلات الحادث كالتالي :

ـ الفاسي م : الممتع. من الصفحة 123 ـ 129.
ـ العروسي : المرقي. من الصفحة 54 ـ 65.

بسط الله من النعم عليكم، وما جَدَّ من كثرة المنح حولكم، ولا يخفى عليكم أعزكم الله ان الله تعالى وتقدس أجرى عادته ببديع حكمته، أن يحمي الدنيا ويدفعها عمن استخلصه من عباده .. وكان أمركم كما ذكرنا تشابه الأمر فيكم على الكافة وتشاكل. فقلت ذلك لأن الله سبحانه أجرى سنته بأن ما يزرعه الوالد يحصده الولد .. وأمر سيدي أبي القاسم لا يخفى على ذي سمع، وحصل لكم انتم من الحظ الأوفر دون اخوتك .. أمَّا أني أتعرض لنفي الخصوصية عنكم ؛ فهذا والله مما لا أشتغل به ولا قط أرتضيه من غيري فضلا من نفسي ؛ بل لا أزال آخذ على الفقراء الذين شأنهم البحث ممن له أدنى نصيب من هذا الشأن، فضلا عن غيره ؛ إذ ذاك من ذأب الفقهاء ووظيفهم .. ثم ليكن في علمكم حفظكم الله اني والله ممن يحبكم ويحسن الظن بكم .. وأما ما كتبتَ قد استبعدت ذلك غاية من جنابكم ؛ ولا شك انها سنة جرت عليكم والنسيان ليس ببدع في الانسان .. وقد قيل : أخوك لا تباهيه ولا تماريه. وهو عند أهل الظاهر واضح ذمه ؛ فكيف بأهل الباطن الذين طهر الله سرايرهم ورقاهم إلى العالم الأسمى، ورفعهم عن العالم الأدنى .. وكيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته وآنست بذكره، فهي قلوب صافية من هواجس النفوس، وظلمات الطبائع .. وهذا كله لا يخفى عليكم.

وقد وصلنا عنكم أيضا اعزكم الله؛ أنكم قلتم في أن أهل الظاهر رضوه وأهل الباطن لم يرضوه. فعلى تقدير صحة ذلك عنكم أو عدمه ؛ فسأصف لكم بعض حالي مجملا، لتعلموا هل هو صواب أم لا : لأن الانسان يتهم نفسه ؛ فاعلم أني كنت من صغري مستغرق الأوقات في تعلم علم الظاهر، حتى حصلت منه ما يسر الله سبحانه وحصل لي به في بلادي صيت عظيم، وجاه في الخلق ؛ لانفرادي بتدريسه يومئذ واقتداري على توصيله للبليد والفطن، ثم ان الله تعالى أخذني إليه وغسل من قلبي

الأكوان ولم يوقف همتي على شيء دونه من دنيا وآخرة وما فيهما سبحانه ذي الفضل، وحبسني فيه، ورفع همتي إليه، وشغلني به عما سواه، واستغرق فكري وهمي فيه واستوى عندي منه العز والذل والفقر والغنى وغير ذلك من الاضداد .. ثم كنس وجودي وأفناني عن شهودي لغيبتي في مشهودي ؛ تارة بكشف صفاته وتارة بمشاهدة آثار عظمة ذاته. واستولى على باطني أمر الحي تعالى وتقدس ؛ حتى لم يبق هاجس ولا وسواس وكادت تستولي علي الغيبة عن الاحساس ؛ ثم ردني للوجود وصار لا يحجبني الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق .. فقد سألتك بالله فإن كان هذا رضى من الله تعالى على عبده، وشهادة منه تعالى بجميل صنعه ؛ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله ؛ فأجبْني بمقتضاه ؛ وإن كان غير ذلك ولا علم عندي فأخبرني والا لي معك توقف بين يدي الله ؛ لأني طلبت منك النصيحة ونطلب منكم الجواب إذ لعله ان يكون فتحا للباب وسببا للمعرفة وجمعا ؛ إذ هذا والله القصد الأول بهذا المكتوب ليرفع الريب ويزول اللوم والعيب .. ونحب منكم ألّا يطلع عليه سواكم أحد الا الواحد الأحد، سيما الكلام الاخير اذ فيه شيء لولا مادعت إليه الضرورة من اذاعة السر؛ والله يحلنا منه محل المؤانسة والتفهيم والمفاتحة والتكريم، والسلام عليكم ورحمة الله ورضوانه. وكتب العبد الفقير إلى الله الكريم ابن يوسف لطف الله به عن املاء والده رزقه الله رضاه، لمرض ألزمه الفراش في يوم الخميس ثالث المحرم فاتح تسعة وتسعين عرفنا الله خيره انتهى.

ملحق رقم 3

حزب اللطائف والاذكار
للشيخ أبي عبد الله محمد المعطي (1)
ويسمى اختصارا «حزب والاهكم»

باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى ولا الضآلين (الفاتحة ثلاثا) وإلاهكم إلاه واحد. لا إلاه إلا هو. الرحمن الرحيم شهد الله أن لا إلاه إلا-هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط. لا إلاه إلا هو العزيز الحكيم. قل اللهم مالك الملك، توتي الملك من تشاء، وتنزع الملك من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، انك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل. وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي. وترزق من تشاء بغير حساب. ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين. أدعوا ربكم تضرعا وخفية، إنه لايحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين. فان تولوا فقل حسبي الله لا إلاه إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. إن ولي الله الذي نزل

(1) بسبب طوله اقتصرت هنا على ابراز أهم صيغه الدينية بتصرف حتى يتسنى أخذ فكرة مجملة عنه ومقارنته بما هو شبيه له.

الكتاب وهو يتولى الصالحين؛ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم.

الله الله الله الله ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم.

الله الله الله الله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم .. الخ (2).

بعدها. الله الله الله (مائة مرة) ثم يليها :

لا إلاه إلا اللــــه   الملك الحق المبين
لا إلاه إلا اللــــه   القــوي المتيـــن
لا إلاه إلا اللــــه   الرحمــن الرحـيم

إلخ .. مستعرضا اسماء الله الحسنى (3)، ويختمها :

لا الاه إلا الله الحي القيوم، بديع السموات والأرض، وما بينهما ذو العزة والجلال.

لا إلاه إلا الله. سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله (7 مرات).

لا الاه إلا اللــــه   يطيب بها ذكري
لا إلاه إلا اللــــه   تشـرح لي صـدري

وهكذا يتغير في كل مقطع القسم الثاني فقط الذي يحتوي أدعية وتوسلات وابتهالات متعددة المعنى مثل : تيسر لي أمري، ينتفي بها فقري. يرفع بها قدري، يجبر بها كسري، يكشف بها ضري، يغفر بها وزري، يحفظ بها قطري توفر لي أجري. تنور لي قبري، اقطع بها دهري،

---

(2) يواصل هذا القسم من الحزب المسبوق ب «الله الله الله الله» ثم جميع الآيات التي تبدأ ب : «ربنا» أو «ربي» على امتداد 13 صفحة ؛ في كل صفحة 11 سطرا وفي كل سطر حوالي 5 أو 7 كلمات.

(3) على امتداد اربع صفحات.

افني بها عمري. تجمع لي شملي، يخف بها حملي، يحسن بها فعلي، يزيد بها فضلي، يبيد بها هولي يصلح بها نسلي، بعدها .. لا إلاه إلا الله (100 مرة) ثم :

لا الاه إلا اللـــه	لا مقصود إلا اللـــه
لا الاه إلا اللـــه	لا موجود الا اللـــه
لا إلاه إلا اللـــه	لا معبود الا اللـــه

الخ .. بعدها

لا إلاه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى اله (10 مرات)

لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير (3 مرات) هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض، وعشي وحين تظهرون. سبحان الله العظيم وبحمده، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزينة عرشه، ومداد كلماته وعدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. سبحان الله والحمد لله ولا إلاه إلا الله،

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد. (انتهى).

وقد يختمه البعض بمجموعة دعوات واستعطافات، والبعض الاخر يضيف إلى هذا أو ذاك قراءة قصيدة شعرية في مدح الرسول ﷺ وصحابته وبعض افراد واجداد الزاوية الشرقاوية متوسلا بكل هذا وبأسماء

الله الحسنى وبسور القرآن والملائكة والرسل ان يدفع الله عن أمته البلاء والاحزان، وان يصلح امور المسلمين ويحمي حماهم وينصرهم على من ظلمهم .. وينسبون هذه القصيدة للشيخ العربي بن المعطي ومطلعها :

الحمد لله منيل الخير كاشف كل كربة وضيْر
نحمده حمدا على الانعام سبحانه ذو الجود والاكرام
ثم صلاة ربنا مع السلام على الحبيب المصطفى خير الانام

الخ.

وهي تقع في خمسين بيتا..

ملحق رقم 4

نماذج من اسفار الذخيرة

نموذج رقم 1

ـــ جاء في مقدمة السفر الأول المسمى «ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج»

«.. فارجو الله تعالى ان يكون أهل المشرق يغشون إلى ضوء نهارها المشرق، وأهل المغرب يفخرون ببديع صنعها المغرب .. وأهل الارادة والبداية يستفيدون منها علوم المعارف والدراية، وأهل النشر والولاية يجوزون بها درجة العز والعناية .. وأهل الشوق والحب يقتبسون منها أنوار الشطحات والجذب، وأهل الكشوف والبصائر يشاهدون بها غيب السرائر .. وأهل القلوب والأحوال يغيبون بها في نور الجلال والجمال .. والقصد بذلك وجه الله العظيم والتقرب إليه بخدمة نبيه وحبيبه سيدنا محمد (ص) .. ولما برز بعضها للعيان، وظهرت جواهرها للأعيان .. وافق القدر سقوط قرطاسها في يد بعض الجهابذة النقاد. والفقهاء الانجاد. فلما تصفحها نظر إليها بعين الإنكار والانتقاد، ورمى بها وجه من كانت بيده من أهل النية وجميل الاعتقاد .. ولما طرق سمعي ذلك .. بت والقلب يطوي الغيظ وينشر أعلامه، وهاجس الصدر يهز رمحه ويفرق سهامه، وجواد الصبر تارة يقرع سنه وتارة يحرك لجامه .. ونمت نومة المهموم المكروب، وسلمت تسليم المقهور المغلوب، وقلت إنما أشكو بثي وحزني إلى من بيده أزمة القلوب .. ولله در من قال :

مَا ضَرَّ شَمس الضُّحى في الأفق طالعةً
أن لا يرى ضوأها من ليس ذا بَصَرِ (1)

نموذج رقم 2

ــ «قال مؤلفه عفا الله عنه .. لما فرغت من غرس هذه البساتين النبوية والحدائق المصطفوية التي تفتقت بنواسم المعارف أزهارها، وترنحت بألحان العوارف اطيارها، ورقصت على قضبان الشوق بلابلها، وصففت بأكف العشق خمائلها. وابتسمت على غرر الصلوات المحمدية ثغور أقحوانها، وتمايلت بلطائف الاحمدية معاطف قضبانها، ورفلت في حلل المجد عرائس رياحينها وخفقت عذبات البان لعزة سلاطينها ... دخلت إلى تلك الحدائق المحفوفة بنور اليمن والأمان، المحصنة بسوسن الرضى والرضوان؛ فجلست تحت شجرة الزيتون اليانعة الأوراق والغصون. فقالت :شمِّر يا بخيل الذيل على ساقك، إلى كم أنت بحب الازواج والبنين مفتون، وفي سجن الدنيا الدنية محبوس ومرهون .. ثم تحولت إلى شجرة العنب فقالت : تكلتك أمك، عرضت نفسك للعطب، وضيعت عمرك في اللهو والطرب، وحان الأجل ولم تظفر بنيل المقصود والأرب. ثم تحولت إلى شجرة البرقوق فقالت : إليك عني يا مضيع الحقوق ومنشغلا بما يفضي إلى التمرد عن طاعة مولاه والعقوق .. ثم تحولت إلى شجرة الصفصاف فقالت : إرجع إلى ربك يا قليل العدل والانصاف، وتب توبة نصوحا تخرجك من ردي الأوصاف، وتنزلك منازل الأشراف. ثم تحولت إلى شجرة النخيل فقالت : أيها المريض العليل المتكاسل عن طاعة مولاه العظيم الجليل، قد سعيت في حتفك بضلفك ؛ الزَّاد قليل، والسفر طويل، والمنادي ينادي كل يوم وليلة : الرحيل الرحيل. ثم تحولت إلى شجرة الرمان فقالت : أفق من سكرتك أيها الانسان واستيقظ من غفلتك أيها النايم الوسنان، الثمل بخمر دنياه الطافح النسوان .. (1)» الخ.

---

(1) مخطوط خ.ع. الرباط رقم : 2770 ك.

(1) سفر في البساتين النبوية : م.ح.ع. الرباط رقم : 982ج :143، 144.

نموذج رقم 3

«.. والحمد لله الذي جعل ارواح المحبين تستريح بذكره الطيب .. هذا وقد كنت مدة مديدة، وأياما وشهورا عديدة، وأزمنة متطاولة قديمة وجديدة؛ أتشوف إلى رؤية تلك البقاع المنورة والحجرات النقية المطهرة، وكلما ورد ركب من أرض الحجاز يهيج بلابل أشواقي، ويرسل على صفحات الخدود دموع أماقي ... فتارة انتفض كما ينتفض العصفور، وتارة أتأوه كما يتأوه المغلوب المقهور، وتارة أهتز كما يهتز الغصن الرائح، وتارة أصيح كما يصيح المتهتك البائح، وتارة أسكن وائن، وتارة اضطرب وأحن، وتارة أعفِّر مصون شيبي بغبار الزوار ؛ وتارة أضع نعالهم على رأسي وأتوسل بهم إلى المولى الحليم الغفار. وتارة أُسلي نفسي بإنشاء القصائد والأشعار ..» (2).

نموذج رقم 4

«فإني لما فرغت من تقييد شمائله المحمدية .. أردفت ذلك بالكلام هنا عن وفاته التي تدوب من هولها صم الجبال، وتتفتت من حزنها ووبالها الأكباد وتتقطع منها العروق والأمعاء والأوصال ...

نعم كالدما في الخد مني المدامع ومثوى لهيب مهجتي والأضالع
وكيف هدوي والتباريح في الحشـا وكيف سلوي والحبيـب موادع
وكيف يطيب العيش من بعد فقده ومن لي بروض الاجتماع المراتع
ومن لي بجمع الشمل مع من أحبه وهل تجمعني بالحبيب المجامع
تعالوا نُدِم نوحا لفقد محمد وللورق في التغريد أيضا نساجـع

الخ .... (3).

---

(2) سفر في الزيارة والتشوق إلى الأماكن. م.ح.ع. الرباط رقم 2758 ك. المقدمة.

(3) سفر في وفاته ﷺ م.ح.ع. الرباط رقم 2799 ك. المقدمة.

ملحق رقم : 5

بعض «كلام» سيدي محمد الشرقي
في موضوع : التصوف والحكمة (1)

من ذلك قوله :

(1) قالوا لي بعض الناس اتعقل يا بهلول
واترك عنك الوسواس واعرف انت ما تقول
ابني الحيط على الساس ان ارباطك محلول
قلت لهم دون أهواش انصفتم لا كني
أنا مالي فياش آش علي مني

(2) ما الدنيا غير امزاح وانت عليها تبكي
في الحظ امْسَ واصباح منها عقلك مسبي
روح روحك ترتاح من تعبك يا قلبي
ذا التعب اَلْكُلّ اعلاش واَقَلّ الشي يغني
أنا مالي فياش آش علي مني

(3) نوصيك بتقوى الله في السر والاعلان
لا تنظر إلا الله حاضر في كل امكان

(1) مجموع رقم : 3027 ك م.ح.ع. بالرباط وعدد أوراقه عشرون، مكتوبة بخط أنيق مزخرف في كل صفحة ما بين 12 إلى 13 بيتاً. وهو شعر الملحون.

اذا ينفعك الله ليس يضرك انسان
صفها من الاغشاش ان كنت تطاوعني
انا مالي فياش اش علي مني

(4) ومن أقواله أيضاً :

لو صبت بعض المحبين فالدار نعملوا امناحة
نبكو على غربة الدين لأن البكا فيه راحة

ولـه :

نَرْكَبُ من الخَيلْ لَحْمرْ وُمُولاه لَلْبَعد رَايحْ
وعَلْتي غِيرْ الكفار زادوا في قَلب قْرايحْ

ولـه :

دَوَّرتْ على الناس فَي الناس مَاصبْتْ لَلنَّاس مَارَة
الّي جَابْ لي خْبَرْ الناس يَاخذْ عليه الَبْشَرَة

ولـه :

عَيَّطْتْ وُما غَاثْني حَدْ اسْكتْ ماصَبتْ راحة
الغرب رَيْتُ منكّدْ في كلْ خَيْمَ مْنَاحة

ولـه :

الغرب رايْتُ مْهَوَّلْ أتَاه البْلَا من اطراف
احْرَام على كل رَاجل الخَير قَطْ لَاشَاف

فهرس

فهرس الموضوعات

تقديم عام

الباب الثاني
الدور الديني للزاوية

* **الفصل الأول :**

* **الفصل الثاني :**

* **الفصل الثالث :**

* **الفصل الرابع :**

الباب الثالث
النشاط العلمي بالزاوية

فهرس الصور والخرائط والرسوم

فهرس الملاحق

سيصدر قريبا لنفس المؤلف

الكتاب الثاني عن تاريخ الزاوية
الشرقاوية تحت عنوان :

«الزاوية الشرقاوية»

«زاوية أبي الجعد
دورها الاجتماعي والسياسي»

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 1985/594

هذا الكتاب

قد يكون من المتعذر كتابة تاريخنا وتسجيل وفهم أحداثه ؛ دون الاهتمام بالجوانب الدينية والروحية للمجتمع المغربي، التي شكلت وسيلة وقناة التعبير الجوهرية ؛ عن كل الدوافع والحوافز الفاعلة والمحركة لهذا التاريخ..

من هذا المنظور ؛ وجب الاهتمام بموضوع تاريخنا الديني ؛ بسبب ارتباطه الوثيق بالمجتمع ؛ وذلك من خلال قراءة جديدة ومستوعبة لمغزى وعمق هذا الخطاب.

حَوْلَ زاوية أبي الجعد (الزاوية الشرقاوية) ؛ حاولنا توضيح ظروف ومنطلقات تأسيس هاته الزاوية.. كما تتبعنا مختلف أنشطتها وأدوارها الدينية والعلمية، والاجتماعية وغيرها ؛ في محاولة لاظهار أهمية هاته المؤسسات، روحيا، ودينيا، وثقافيا..، باعتبارها مراكز إشعاع ذات حضور فعلي في حركة التاريخ، وبدون تسجيل هاته المساهمات، يظل كل تاريخ للفكر والثقافة والمجتمع بعيدا كل البعد عن الموضوعية والشمولية المطلوبة.

المؤلف

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء